① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الثاني
من تفسير سورة النساء والمائدة والأنعام

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الثاني

من تفسير سورة النساء والمائدة والأنعام

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم .

تفسير

سورة النساء

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً

---

* افتتح تعالى هذه السورة ، بالأمر بتقواه ، والحث على عبادته ،والأمر بصلة الأرحام ، والحث على ذلك .

وبين السبب الداعى ، الموجب لكل من ذلك ، وأن الموجب لتقواه أنه [ربكم الذى خلقكم] ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة ، التى من جملتها خلقكم [من نفس واحدة وخلق منها زوجها] ليناسبها ، فيسكن إليها ، وتتم بذلك النعمة ، ويحصل به السرور .

وكذلك ، من الموجب الداعى لتقواه ، تساؤلكم به ، وتعظيمكم .

حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم ،توسلتم بها، بالسؤال.

فيقول من يريد ذلك لغيره : أسألك بالله ، أن تفعل الأمر الفلانى .

لعلمه بما قام فى قلبه ، من تعظيم الله الداعى ، أن لا يرد من سأله بالله .

فكما عظمتموه بذلك ، فلتعظموه بعبادته وتقواه .

وكذلك الإخبار بأنه رقيب ، أى : مطلع على العباد،فى حال حركاتهم وسكونهم ، وسرهم وعلنهم ، وجميع الأحوال ، مراقباً لهم فيها ، مما يوجب مراقبته ، وشدة الحياء منه ، بلزوم تقواه .

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

وفى الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة ، وأنه بثهم فى أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد — ليعطف بعضهم على بعض ، ويرقق بعضهم على بعض . .

وقرن الأمر بتقواه، بالأمر ببر الأرحام ، والنهى عن قطيعتها ، ليؤكد هذا الحق .

وأنه كما يلزم القيام بحق الله ، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم ، بل القيام بحقوقهم ، هو من حق الله الذى أمر به .

وتأمل كيف افتتح هذه السورة ، بالأمر بالتقوى ، وصلة الأرحام والأزواج عموماً .

ثم بعد ذلك ، فصل هذه الأمور أتم تفصيل،من أول السورة إلى آخرها. فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة ، مفصلة لما أجمل منها ، موضحة لما أبهم .

وفى قوله [وجعل منها زوجها] تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به ، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج .

فبينهم وبينهن ، أقرب نسب ، وأشد اتصال وأوثق علاقة .

وقوله تعالى : [وآتو اليتامى أموالهم] الآية .

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

---

* هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق فى هذه السورة .

وهم اليتامى ، الذين فقدوا آباءهم ، الكافلين لهم ، وهم صغار ضعاف ، لا يقومون بمصالحهم .

فأمر الرءوف الرحيم عباده ، أن يحسنوا إليهم ، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتى هى أحسن ، وأن يؤتوهم أموالهم ، إذا بلغوا ، ورشدوا ، كاملة موفرة .

وأن لا [تتبدلوا الخبيث] الذى هو أكل مال اليتيم بغير حق .

[بالطيب] وهو الحلال ، الذى ما فيه حرج ولا تبعة .

[ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم] أى : مع أموالكم .

ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم ، بهذه الحالة ، التى هى قد استغنى بها الإنسان ، بما جعل الله له ، من الرزق فى ماله .

فمن تجرأ على هذه الحالة ، فقد أتى [حوباً كبيراً] أى : إثماً عظيما ، ووزراً جسيما .

ومن استبدال الخبيث بالطيب ، أن يأخذ الولى، من مال اليتيم، النفيس، ويجعل بدله من ماله ، الخسيس .

وفيه الولاية على اليتيم ، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله ، ثبوت ولاية المؤتي على ماله .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾

وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم ، لأن تمام إيتائه ماله ، حفظه ، والقيام به بما يصلحه وينميه ، وعدم تعريضه المخاوف والأخطار .

* أى : وإن خفتم ألا تعدلوا فى يتامى النساء ، التى تحت حجوركم وولايتكم ، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن ، لعدم محبتكم إياهن — فاعدلوا إلى غيرهن ، وانكحوا [ما طاب لكم من النساء] أى : ما وقع عليهن اختياركم ، من ذوات الدين ، والمال ، والجمال ، والحسب ، والنسب ، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن ، فاختاروا على نظركم .

ومن أحسن ما يختار من ذلك ، صفة الدين كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يمينك » .

وفى هذه الآية — أنه ينبغى للإنسان ، أن يختار قبل النكاح .

بل قد أباح له الشارع ، النظر إلى من يريد تزوجها ، ليكون على بصيرة من أمره .

ثم ذكر العدد الذى أباحه من النساء فقال :

[مثنى وثلاث ورباع] أى : من أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل ، أو ثلاثاً فليفعل ، أو أربعاً فليفعل ، ولا يزيد عليها ، لأن الآية سيقت لبيان الامتنان .

وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾

فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعاً .

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة ، فأبيح له واحدة بعد واحدة ، حتى تبلغ أربعاً ، لأن فى الأربع ، غنية لكل أحد ، إلا ما ندر .

ومع هذا ، فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم ، ووثق بالقيام بحقوقهن .

فإن خاف شيئاً من هذا ، فليقتصر على واحدة ، أو على ملك يمينه .

فإنه لا يجب عليه القسم ، فى ملك اليمين .

[ذلك] أى : الاقتصار على واحدة ، أو ما ملكت اليمين [أدنى أن لا تعولوا] أى : تظلموا .

وفى هذا ، إن تعرض العبد للأمر الذى يخاف منه الجور والظلم ، وعدم القيام بالواجب — ولو كان مباحاً — أنه لا ينبغى له أن يتعرض له ، بل يلزم السعة والعافية ، فإن العافية خير ما أعطى العبد .

ولما كان كثير من الناس ، يظلمون النساء ، ويهضمونهن حقوقهن — خصوصاً الصداق ، الذى يكون شيئاً كثيراً ، ودفعة واحدة ، يشق دفعه للزوجة — أمرهم وحثهم على إيتاء النساء [صدقاتهن] أى : مهورهن [نحلة] أى : عن طيب نفس ، وحال طمأنينة ، فلا تمطلوهن ، أو تبخسوا منه شيئاً .

وفيه : أن المهر يدفع إلى المرأة ، إذا كانت مكلفة ، وأنها تملكه بالعقد ، لأنه أضافه إليها ، والإضافة تقتضى التمليك .

. . . .

[فإن طبن لـكم عن شيء منه] أي : من الصداق [نفساً] بأن سمحن لـكم عن رضا واختيار ، بإسقاط شيء منه ، أو تأخيره أو المعاوضة عنه .

[فـكلوه هنيئاً مريئاً] أي : لا حرج عليـكم في ذلك ولا تبعة .

وفيه دليل على أن للمرأة ، التصرف فى مالها — ولو بالتبرع — إذا كانت رشيدة ، فإن لم تـكن كذلك ، فليس لعطيتها حكم .

وأنه ليس لوليها من الصداق شيء ، غير ما طابت به .

وفى قوله [فانـكحوا ما طاب لـكم من النساء] دليل على أن نكاح الخبيثة، غيرمأمور به، بل منهى عنه، كالمشركة ، وكالفاجرة، كما قال تعالى : [ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن] وقال [الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك] .

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) ﴾

☆ السفهاء ، جمع « سفيه » وهو : من لا يحسن التصرف فى المال .

إما لعدم عقله ، كالمجنون والمعتوه ، ونحوهما .

وإما لعدم رشده ، كالصغير وغير الرشيد .

فنهى الله الأولياء ، أن يؤتوا هؤلاء أموالهم ، خشية إفسادها وإتلافها .

لأن الله جعل الأموال ، قياماً لعباده ، فى مصالح دينهم ودنياهم .

وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها .

فأمر الله الولى أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها ، ويكسوهم ، ويبذل منها ، ما يتعلق بضروراتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية ، وأن يقولوا لهم قولا معروفاً ، بأن يعدوهم — إذا طلبوها — أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم ، ونحو ذلك ، ويلاطفوا لهم فى الأقوال ، جبراً لخواطرهم .

وفى إضافته تعالى ، الأموال إلى الأولياء ، إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا فى أموال السفهاء ، ما يفعلونه فى أموالهم ، من الحفظ ، والتصرف ، وعدم التعرض للأخطار .

وفى الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه ، فى مالهم ، إذا كان لهم مال ، لقوله [وارزقوهم فيها واكسوهم] .

وفيه دليل على أن قول الولى مقبول فيما يدعيه ، فى النفقة الممكنة ، والكسوة .

لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم ، فلزم قبول قول الأمين .

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

☆ الابتلاء هو : الاختبار والامتحان .

وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد ، الممكن رشده ، شيئاً من ماله ، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله ، فيتبين بذلك رشده من سفهه .

فإن استمر غير محسن للتصرف ، لم يدفع إليه ماله ، بل هو باق على سفهه ، ولو بلغ عمراً كثيراً .

فإن تبين رشده وصلاحه فى ماله وبلغ النكاح [فادفعوا إليهم أموالهم] كاملة موفرة .

[ولا تأكلوها إسرافاً] أى مجاوزة للحد الحلال الذى أباحه الله لكم ، من أموالكم إلى الحرام الذى حرمه الله عليكم من أموالهم .

[وبداراً أن يكبروا] أى : ولا تأكلوها ، فى حال صغرهم ، التى لا تمكنهم فيها أخذها منكم ، ولا منعكم من أكلها ، تبادرون بذلك أن يكبروا ، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها .

وهذا من الأمور الواقعة ، من كثير من الأولياء ، الذين ليس عندهم خوف من الله ، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم .

يرون هذه الحال ، حال فرصة ، فيغتنمونها ، ويتعجلون ما حرم الله عليهم .

فنهى الله تعالى ، عن هذه الحالة بخصوصها .

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

---

* كان العرب فى الجاهلية — من جبروتهم[1] وقسوتهم ، لا يورثون الضعفاء ، كالنساء والصبيان ، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء . لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال ، والنهب والسلب .

فأراد الرب الرحيم الحكيم ، أن يشرع لعباده شرعاً ، يستوى فيه رجالهم ونساؤهم ، وأقوياؤهم وضعفاؤهم .

وقدم بين يدى ذلك ، أمراً مجملا ، لتتوطن على ذلك النفوس .

فيأتى التفصيل بعد الإجمال ، قد تشوفت له النفوس ، وزالت الوحشة ، التى منشأها ، العادات القبيحة فقال :

[للرجال نصيب] أى : قسط وحصة [مما ترك] أى : خلف[الوالدان] أى : الأب والأم [والأقربون] عموما بعد خصوص [وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون] .

فكأنه قيل : هل ذلك النصيب ، راجع إلى العرف والعادة ، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون ؟ أو شيئاً مقدرا ؟

فقال تعالى [نصيباً مفروضاً] أى : قدره العليم الحكيم .

وسيأتى — إن شاء الله — تقدير ذلك .

---

(١) فى الأصل (جبريتهم) وهو غير سائغ لغة، ولذا أبدلناها بـ (جبروتهم).

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾

وأيضاً ، فهنا توهم آخر ، لعل أحداً يتوهم أن النساء والوالدين ، ليس لهم نصيب ، إلا من المال الكثير ، فأزال ذلك بقوله، [مما قل منه أو كثر] فتبارك الله أحسن الحاكمين .

* وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة ، الجابرة للقلوب فقال :

[وإذا حضر القسمة] أى : قسمة المواريث [أولوا القربى] أى : الأقارب غير الوارثين ، بقرينة قوله [القسمة] لأن الوارثين من المقسوم عليهم .

و [اليتامى والمساكين] أى : المستحقون من الفقراء .

[فارزقوهم منه] أى : أعطوهم ما تيسر من هذا المال ، الذى جاءكم بغير كد ولا تعب ، ولا عناء ، ولا نصب ، فإن نفوسهم متشوفة إليه ، وقلوبهم متطلعة .

فاجبروا خواطرهم ، بما لا يضركم ، وهو نافعهم .

ويؤخذ من المعنى ، أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدى الإنسان ، ينبغى له أن يعطيه منه ، ما تيسر كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه ، فليجلسه معه ، فإن لم يجلسه معه ، فليناوله لقمة أو لقمتين » أو كما قال :

وكان الصحابة رضى الله عنهم — إذا بدأت باكورة أشجارهم — أتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبرّك عليها ، ونظر إلى أصغر وليد

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

عنده ، فأعطاه ذلك ، علماً منه بشدة تشوفه إلى ذلك ، وهذا كله ، مع إمكان الإعطاء .

فإن لم يمكن ذلك — لكونه حق سفهاء ، أو ثم أهم من ذلك — فليقولوا لهم [قولا معروفاً] يردونهم رداً جميلا ، بقول حسن ، غير فاحش ، ولا قبيح .

* قيل : إن هذا خطاب لمن يحضر ، من حضره الموت وأجنف فى وصيته ، أن يأمره بالعدل فى وصيته ، والمساواة فيها بدليل قوله .

[وليقولوا قولا سديداً] أى : سداداً ، موافقاً للقسط والمعروف .

وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده ، بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم .

وقيل : إن المراد بذلك ، أولياء السفهاء ، من المجانين ، والصغار ، والضعاف ، أن يعاملوهم فى مصالحهم الدينية والدنيوية ، بما يحبون أن يعامل به من بعدهم ، من ذريتهم الضعاف .

[فليتقوا الله] فى ولايتهم لغيرهم ، أى : يعاملونهم بما فيه تقوى الله ، من عدم إهانتهم ، والقيام عليهم ، وإلزامهم لتقوى الله .

. . . .

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد فقال: على ذلك أشد العذاب [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً] أى: بغير حق.

وهذا القيد، يخرج به ما تقدم، من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم بطعام اليتامى.

فمن أكلها ظلماً، فإنما [يأكلون فى بطونهم ناراً] أي: فإن الذى أكلوه، نار تتأجج من أجوافهم وهم الذين أدخلوه فى بطونهم.

[وسيصلون سعيراً] أى: ناراً محرقة[1] متوقدة.

وهذا أعظم وعيد ورد فى الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار.

فدل ذلك، أنها من أكبر الكبائر. نسأل الله العافية.

---

(١) فى الأصل (محترقة) وهو تحريف.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ

﴿ أحكام المواريث — بيان أصحابها ﴾

هذه الآيات ، والآية التي هى آخر السورة من آيات المواريث المتضمنة لها .

فإنها — مع حديث عبدالله بن عباس ، الثابت فى صحيح البخارى « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى ، فلأولى رجل ذكر » ـ مشتملات على جل أحكام الفرائض ، بل على جميعها ، كما سترى ذلك ، إلا ميراث الجدات ، فإنه غير مذكور فى ذلك .

لكنه قد ثبت فى السنن ، عن المغيرة بن شعبة ، ومحمدبن مسلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى الجدة السدس ، مع إجماع العلماء على ذلك .

﴿ بيان ميراث الأولاد ﴾

[يوصيكم الله فى أولادكم] أى : أولادكم ـ يامعشر الوالدين ـ عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم ، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية .

فتعلمونهم وتؤدبونهم ، وتكفونهم عن المفاسد، وتأمرونهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى :

[يأأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة]

فالأولاد ـ عند والديهم ـ موصى بهم .

فإما أن يقوموا بتلك الوصية ، فلهم جزيل الثواب .

وإما أن يضيعوها ، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب .

وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين ـ مع كمال شفقتهما ، عليهم .

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال [للذكر مثل حظ الأنثيين] أى : الأولاد للصلب ، والأولاد للابن ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، إن لم يكن معهم صاحب فرض ، أو ما أبقت الفروض ، يقتسمونه كذلك .

وقد أجمع العلماء على ذلك ، وأنه ـ مع وجود أولاد الصلب ـ فالميراث لهم .

وليس لأولاد الابن شىء ، حيث كان أولاد الصلب ، ذكوراً وإناثاً .

هذا مع اجتماع الذكور والإناث .

وهنا حالتان : انفراد الذكور ، وسيأتى حكمها .

وانفراد الإناث ، وقد ذكره بقوله .

﴿ أحكام البنات فى الميراث ﴾

[فإن كن نساء فوق اثنتين] أى : بنات صلب ، أو بنات ابن ، ثلاثاً فأكثر [فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة] أى : بنتاً ، أو بنت ابن [فلها النصف] وهذا إجماع .

بقى أن يقال . من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين ، الثلثين بعد الإجماع على ذلك ؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله [فإن كانت واحدة فلها النصف] .

فمفهوم ذلك ، أنه إن زادت على الواحدة ، انتقل الفرض عن النصف ، ولا ثم بعده إلا الثلثان .

وأيضاً ، فقوله [للذكر مثل حظ الأنثيين] إذا خلف ابنا وبنتا ،فإن الابن ، له الثلثان ، وقد أخبر الله ، أنه مثل حظ الأنثيين .

فدل ذلك ، على أن للبنتين الثلثين .

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها ـ وهو أزيد ضرراً عليها من أختها ـ فأخذها له ـ مع أختها ـ من باب أولى وأحرى .

وأيضاً فإن قوله تعالى فى الأختين [فإن كانتا اثنتين ، فلهما الثلثان مما ترك] نص فى الأختين الثنتين .

فإذا كان الأختان الثنتان ـ مع بُعدهما ـ يأخذان الثلثين ، فالابنتان ـ مع قربهما ـ من باب أولى وأحرى .

وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم ، ابنتي سعد ، الثلثين كما فى الصحيح .

بقى أن يقال : فما الفائدة فى قوله [فوق اثنتين] ؟

قيل : الفائدة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنه ليعلم أن الفرض الذى هو الثلثان ، لا يزيد بزيادتهن على الثنتين ، بل من الثنتين فصاعداً .

ودلت الآية الكريمة ، أنه إذا وجد بنت صلب واحدة ، وبنت ابن أو بنات ابن ، فإن لبنت الصلب ، النصف ، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات ، أو بنات الابن ، السدس ، فيعطى بنت الابن ،أو بنات الابن ، ولهذا يسمى هذا السدس ، تكملة الثلثين .

ومثل ذلك ، بنت الابن ، مع بنات الابن ، اللاتى أنزل منها .

وتدل الآية ، أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين ، أنه

لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ

يسقط من دونهن ، من بنات الابن ، لأن الله لم يفرض لهن ، إلا الثلثين ، وقد تم .

فلو لم يسقطن ، لزم من ذلك أن يفرض لهن ، أزيد من الثلثين ، وهو خلاف النص .

وكل هذه الأحكام ، مجمع عليها بين العلماء ، ولله الحمد .

ودل قوله [مما ترك] أن الوارثين ، يرثون كل ما خلف الميت ، من عقار ، وأثاث ، وذهب ، وفضة ، وغير ذلك ، حتى الدية ، التي لم تجب إلا بعد موته ، وحتى الديون التي فى الذمة .

﴿ أحكام الأبوين فى الميراث ﴾

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال :

[ولأبويه] أى أبوه وأمه [لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد] أى : ولد صلب ، أو ولد ابن ، ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو متعدداً .

فأما الأم ، فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد .

﴿ أحكام الأب فى الميراث ﴾

وأما الأب ، فمع الذكور منهم ، لا يستحق أزيد من السدس .

فإن كان الولد أنثى أو إناثا ، ولم يبق بعد الفرض شىء ، كأبوين وابنتين ، لم يبق له تعصيب .

وإن بقى بعد فرض البنت أو البنات شىء ، أخذ الأب السدس فرضاً ، والباقى تعصيباً .

لأننا ألحقنا الفروض بأهلها ، فما بقى ، فلأولى رجل ذكر ، وهو أولى من الأخ والعم ، وغيرهما .

[فإن لم يكن له ولد ، وورثه أبواه ، فلأمه الثلث] أى : والباقى للأب ، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم ، إضافة واحدة ، ثم قدر نصيب الأم ، فدل ذلك ، على أن الباقى للأب .

وعلم من ذلك ، أن الأب — مع عدم الأولاد — لا فرض له ، بل يرث — تعصيباً — المال كله ، أو ما أبقت الفروض .

ولكن لو وجد مع الأبوين ، أحد الزوجين — ويعبر عنهما بالعمريتين — فإن الزوج أو الزوجة ، يأخذ فرضه ، ثم تأخذ الأم ثلث الباقى والأب ، الباقى .

وقد دل على ذلك قوله [وورثه أبواه ، فلأمه الثلث] ثلث ماورثه الأبوان .

وهو فى هاتين الصورتين ، إما سدس فى زوج وأم وأب ، وإما ربع فى زوجة ، وأم وأب .

فلم تدل الآية على إرث الأم ، ثلث المال كاملا ، مع عدم الأولاد .

حتى يقال : إن هاتين الصورتين ، قد استثنيتا من هذا .

ويوضح ذلك ، أن الذى يأخذه الزوج أو الزوجة ، بمنزلة ما يأخذه الغرماء .

فيكون من رأس المال ، والباقى ، بين الأبوين .

ولأنا لو أعطينا الأم ثلث المال ، لزم زيادتها على الأب ، فى مسألة الزوج ، أو أخذ الأب فى مسألة الزوجة ، زيادة عنها نصف السدس ، وهذا لا نظير له .

فإن المعهود مساواتها للأب ، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم .

[فإن كان له إخوة فلأمه السدس] أشقاء ، أو لأب ، أو لأم ، ذكورا أو إناثا ، وارثين ، أو محجوبين بالأب ، أو الجد .

لكن قد يقال : ليس ظاهرُ قولِه [فإن كان له إخوة] شاملا لغير الوارثين ، بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف .

فعلى هذا ، لا يحجبها عن الثلث من الإخوة ، إلا الإخوة الوارثون .

ويؤيده أن الحكمة فى حجبهم لها عن الثلث ، لأجل أن يتوفر لهم شىء من المال ، وهو معدوم . والله أعلم . ولكن يشرط كونهم اثنين فأكثر .

ويشكل على ذلك ، إتيان لفظ « الإخوة » بلفظ الجمع .

وأجيب عن ذلك ، بأن المقصود ، مجرد التعدد لا الجمع ، ويصدق ذلك باثنين .

وقد يطلق الجمع ، ويراد به الاثنان كما فى قوله تعالى عن داود وسليمان [وكنا لحكمهم شاهدين] وقال فى الإخوة للأم :

[وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث] .

فأطلق لفظ الجمع ، والمراد به ، اثنان فأكثر ، بالإجماع .

فعلى هذا ، لو خلف أما وأبا وإخوة ، كان للأم السدس ، والباقى للأب ، فحجبوها عن الثلث ، مع حجب الأب إياهم ، إلا على الاحتمال الآخر ، فإن للأم الثلث ، والباقى للأب .

ثم قال تعالى [من بعد وصية يوصى بها أو دين] أى هذه الفروض والأنصباء ، والمواريث ، إنما ترد وتستحق ، بعد نزع الديون التى على الميت لله ، أو للآدميين ، وبعد الوصايا ، التى قد أوصى الميت بها بعد موته ، فالباقى عن ذلك ، هو التركة ، التى يستحقها الورثة .

وقدم الوصية ـ مع أنها مؤخرة عن الدين ـ للاهتمام بشأنها ، لكون إخراجها ، شاقاً على الورثة ، وإلا ، فالديون مقدمة عليها ، وتكون من رأس المال .

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل ، للأجنبى الذى هو غير وارث .

وأما غير ذلك ، فلا ينفذ ، إلا بإجازة الورثة ، قال تعالى :

[آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً] .

فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم ، لحصل من الضرر ، ما الله به عليم ، لنقص العقول ، وعدم معرفتها بما هو اللائق والأحسن ، فى كل زمان ومكان .

فلا يدرون أى الأولاد ، أو الوالدين ، أنفع لهم وأقرب ، لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية .

[فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما] أى : فرضها الله الذى قد أحاط بكل شىء علماً ، وأحكم ماشرعه ، وقدر ما قدره ، على أحسن تقدير ، لاتستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة ، لكل زمان ، ومكان ، وحال .

﴿ حكم الزوج والزجات فى الميراث ﴾

ثم قال تعالى : [ولكم] أيها الأزواج [نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين] .

ويدخل فى مسمى الولد ، المشروط وجوده أو عدمه ، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى ، الواحد والمتعدد ، الذى من الزوج ، أو من غيره ، ويخرج عنه ، ولد البنات إجماعا .

﴿ بيان معنى (الكلالة) ونصيبها فى الميراث ﴾

ثم قال تعالى [وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت] أى : من أم ، كما هى فى بعض القراءات .

وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة — هنا — الإخوة للأم .

فإذا كان يورث كلالة أى : ليس للميت والد ولا ولد ، أى : لا أب ، ولا جد ، ولا ابن ، ولا ابن ابن ، ولا بنت ، ولا بنت ابن وإن نزلوا . وهذه هى : الكلالة ، كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد حصل على ذلك ، الاتفاق ، ولله الحمد .

مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ

[فلكل واحد منهما] أى : من الأخ والأخت [السدس] .

[فإن كانوا أكثر من ذلك] أى : من واحد [فهم شركاء فى الثلث] أى : لا يزيدون على الثلث ، ولو زادوا عن اثنين .

ودل قوله [فهم شركاء فى الثلث] أن ذكرهم وأنثاهم سواء ، لأن لفظ « الشريك » يقتضى التسوية .

ودل لفظ [الكلالة] على أن الفروع وإن نزلوا ، والأصول الذكور وإن علوا ، يسقطون أولاد الأم ، لأن الله لم يورثهم إلا فى الكلالة ، فلو لم يكن يورث كلالة ، لم يرثوا منه شيئا ، اتفاقا .

ودل قوله [فهم شركاء فى الثلث] أن الإخوة الأشقاء ، يسقطون فى المسألة المسماة بالحمارية .

وهى : زوج ، وأم ، وإخوة أشقاء .

وللزوج ، النصف . وللأم ، السدس . وللاخوة للأم : الثلث .

ويسقط الأشقاء ، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم .

فلو شاركهم الأشقاء ، لكان جمعا ، لما فرق الله حكمه .

وأيضا ، فإن الإخوة للأم ، أصحاب فروض ، والأشقاء ، عصبات .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى ، فلأولى رجل ذكر » .

وأهل الفروض هم : الذين قدر الله أنصباءهم .

يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم

فنى هذه المسألة ، لايبقى بعدهم شىء ، فيسقط الأشقاء ، وهذا هو الصواب فى ذلك .

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء ، أو لأب ، فمذكور فى قوله :

[يستفنونك قل الله يفتيكم فى الكلالة] الآية .

فالأخت الواحدة ، شقيقة ، أو لأب ، لها النصف .

والثنتان ، لهما الثلثان .

والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب ، أو الأخوات ، تأخذ النصف والباقى من الثلثين ، للأخت ، أو الأخوات لأب ، وهو السدس ، تكملة الثلثين .

وإذ استغرقت الشقيقات الثلثين ، تسقط الأخوات للأب ، كما تقدم فى البنات ، وبنات الابن .

وإن كان الإخوة ، رجالا ونساء ، فللذكر مثل حظ الأنثيين .

﴿ حكم القاتل واختلاف دين الميت وأقربائه ﴾

فإن قيل : فهل يستفاد حكم ميراث القاتل ، والرقيق ، والمخالف فى الدين ، والمبعض والخنثى ، والجد مع الإخوه لغير أم ، والعول ، والرد وذوى الأرحام ، وبقية العصبة ، والأخوات لغير أم ، مع البنات ، أو بنات الابن ، من القرآن أم لا ؟

مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً

قيل : نعم ، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة، يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات.

فأما (القاتل والمخالف فى الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية ، فى توزيع المال على الورثة ، بحسب قربهم ، ونفعهم الدينى والدنيوى .

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله [لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعا] .

وقد علم أن القاتل ، قد سعى لمورثه[1] بأعظم الضرر ، فلا ينتهض ما فيه ، من موجب الإرث ، أن يقاوم ضرر القتل ، الذى هو ضد النفع الذى رتب عليه الإرث .

فعلم من ذلك ، أن القتل أكبر مانع يمنع من الميراث ، ويقطع الرحم الذى قال الله فيه :

[وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] .

مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية ، أن « من استعجل شيئا قبل أوانه ، عوقب بحرمانه » .

وبهذا ونحوه ، يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له .

---

(١) قوله : الأولى (لموروثه) خطأ ، والصحيح (لمورثه) لأن كلمة (موروث) معناها الحقيقى تركة الميت فيقال : مال موروث . ولا يقال ـ على وجه الحقيقة ـ ميت موروث، لأن جثته لا تورث، ولا داعى لارتكاب المجاز .

أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟

وذلك أنه قد تعارض الموجب ، الذى هو : اتصال النسب ، الموجب للإرث ، والمانع الذى ، هو المخالفة فى الدين ، الموجبة للمباينة من كل وجه .

فقوى المانع ، ومنع موجب الإرث ، الذى هو النسب .

فلم يعمل الموجب لقيام المانع .

يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين ، أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية .

فإذا مات المسلم ، انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به .

فيكون قوله تعالى :

[وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] إذا اتفقت أديانهم .

وأما مع تباينهم ، فالأخوة الدينية ، مقدمة على الأخوة النسبية المجردة .

قال ابن القيم فى « جلاء الأفهام » :« وتأمل هذا المعنى من آية المواريث ، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة ، دون المرأة كما فى قوله تعالى [ولكم نصف ما ترك أزواجكم] .

ففيه إيذان[1] بأن هذا التوارث ، إنما وقع بالزوجية ، المقتضية للتشاكل والتناسب .

(١) إيذان . أى : إعلام وتعليم .

والمؤمن والكافر ، لا تشاكل بينهما ، ولاتناسب ، فلا يقع بينهما التوارث .

وأسرار مفردات القرآن ومركباته ، فوق عقول العاقلين » انتهى .

﴿ حكم الرقيق فى الميراث ﴾

وأما (الرقيق) ، فإنه لايرث ولايورث .

أما كونه لايورث فواضح ، لأنه ليس له مال يورث عنه ، بل كل مامعه ، فهو لسيده .

وأما كونه لايرث ، فلأنه لايملك ، فإنه لو ملك ، لكان لسيده ، وهو أجنبي من الميت ، فيكون مثل قوله تعالى :

[للذكر مثل حظ الأنثيين — ولكم نصف ماترك أزواجكم — فلكل واحد منهما السدس] ونحوها ، لمن يتأتى منه التملك .

وأما الرقيق ، فلا يتأتى منه ذلك ، فعلم أنه لاميراث له .

وأما من بعضه حر ، وبعضه رقيق ، فإنه تتبعض أحكامه .

فما فيه من الحرية ، يستحق بها مارتبه الله فى المواريث ، لكون مافيه من الحرية ، قابلا للتملك ، وما فيه من الرق ، فليس بقابل لذلك .

فإذاً يكون المبعض ، يرث ويورث ، ويحجب بقدر مافيه من الحرية .

وإذا كان العبد يكون محمودا ومذموماً ، مثابا ومعاقباً ، بقدر مافيه من موجبات ذلك ، فهذا كذلك .

أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿ حكم الخنثى والمشكل فى الميراث ﴾

وأما (الخنثى) فلا يخلو ، إما أن يكون واضحاً ذكوريته أوأنوثيته ، أو مشكلا .

فإن كان واضحاً ، فالأمر فيه واضح .

إن كان ذكرا ، فله حكم الذكور ، ويشمله النص الوارد فيهم .

وإن كانت أنثى ، فلها حكم الإناث ، ويشملها النص الوارد فيهن .

وإن كان مشكلا ، فإن كان الذكر والأنثى لايختلف إرثهما — كالإخوة للأم — فالأمر فيه واضح .

وإن كان يختلف إرثه ، بتقدير ذكوريته ، وبتقدير أنوثيته ، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك ، لم نعطه أكثر التقديرين ، لاحتمال ظلم من معه من الورثة ، ولم نعطه الأقل ، لاحتمال ظلمنا[1] إياه .

فوجب التوسط بين الأمرين ، وسلوك أعدل الطريقين ، قال تعالى : [اعدلوا هو أقرب للتقوى] .

فليس لنا طريق إلى العدل فى مثل هذا ، أكثر من هذا الطريق المذكور .

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » « فاتقوا الله ما استطعتم » .

---

(١) قوله (ظلمنا له) هكذا فى الأصل وهو خطأ نحوى . لأن (ظلم) يتعدى بنفسه لاباللام ، كما قال تعالى (وما ظلمهم الله) ولذا أصلحناه كما ترى .

. . . .

﴿ ميراث الجد ﴾

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء ، أو لأب ، وهل يرثون معه أم لا ؟ .

فقد دل كتاب الله ، على قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أن الجد يحجب الإخوة ، أشقاء ، أو لأب ، أو لأم ، كما يحجبهم الأب .

وبيان ذلك : أن الجد : أب فى غير موضع من القرآن كقوله تعالى : [إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحق] الآية .

وقال يوسف عليه السلام [واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب] .

فسمى الله الجد ، وجد الأب : أباً . فدل ذلك ، على أن الجد ، بمنزلة الأب ، يرث ما يرثه الأب ، ويحجب من يحجبه (أى : عند عدمه) .

وإذا كان العلماء ، قد أجمعوا على أن الجد ، حكمه حكم الأب عند عدمه فى ميراثه مع الأولاد وغيرهم ، من بين الإخوة والأعمام وبنيهم ، وسائر أحكام المواريث ـ فينبغى أيضاً ، أن يكون حكمه حكمه ، فى حجب الإخوة لغير أم .

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب ، فلم لايكون الجد بمنزلة الأب ؟

وإذا كان جد الأب ، مع ابن الأخ ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه . فلم لايحجب جد الميت أخاه ؟

. . . .

فليس مع من يورث الإخوة مع الجد ، نص ولا إشارة ، ولاتنبيه ، ولاقياس صحيح .

﴿ العول وأحكامه ﴾

وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن .

وذلك أن الله تعالى ، قد فرض ، وقدر لأهل المواريث أنصباء . وهم بين حالتين .

إما أن يحجب بعضهم بعضاً ، أولا .

فإن حجب بعضهم بعضاً ، فالمحجوب ساقط،لايزاحم ، ولايستحق شيئاً

وإن لم يحجب بعضهم بعضاً ، فلا يخلو .

إما أن لاتستغرق الفروض التركة ، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص أو تزيد الفروض على التركة .

ففى الحالتين الأوليين ، كل يأخذ فرضه كاملا .

وفى الحالة الأخيرة وهى — ما إذا زادت الفروض على التركة — فلا يخلو من حالين .

إما أن ننقص بعض الورثة عن فرضه الذى فرضه الله له ، ونكمل للباقين منهم فروضهم ، وهذا ترجيح بغير مرجح ، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر .

فتعينت الحال الثانية ، وهو : أننا نعطى كل واحد منهم نصيبه ، بقدر الإمكان ، ونحاصص بينهم ، كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم .

. . . .

ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول .

فعلم من هذا ، أن العول فى الفرائض ، قد بينه الله فى كتابه .

﴿ بيان أحكام الرد على أصحاب الفرائض ﴾

وبعكس هذه الطريقة بعينها ، يعلم (الرد) .

فإن أهل الفروض – إذا لم تستغرق فروضهم التركة ، وبقى شىء ليس له مستحق ، من عاصب قريب ولا بعيد ، فإن رده على أحدهم ، ترجيح بغير مرجح ، وإعطاؤه غيرهم ، ممن ليس بقريب للميت ، جنف وميل ، ومعارضة لقوله [وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] .

فتعين أن يرد على أهل الفروض ، بقدر فروضهم .

﴿ حكم الرد على الزوجين فى الميراث ﴾

ولما كان الزوجان ، ليسا من القرابة ، لم يستحقا الزيادة على فرضهم المقدر عند القائلين ، بعدم الرد عليهما .

وأما على القول الصحيح أن حكم الزوجين ، حكم باقى الورثة فى الرد ، فالدليل المذكور ، شامل للجميع ، كما شملهم دليل العول .

﴿ حكم ذوى الأرحام فى الميراث ﴾

وبهذا يعلم أيضاً ، ميراث ذوى الأرحام .

فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض ، ولا عاصباً ، وبقى الأمر دائراً بين كون ماله يكون لبيت المال ، لمنافع الأجانب ، وبين كون ماله يرجع

. . . .

إلى أقربائه المدلين بالورثة ، المجمع عليهم ، تعين الثانى .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

[وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] .

فصرفه لغيرهم ، ترك لمن هو أولى من غيره ، فتعين توريث ذوى الأرحام .

وإذا تعين توريثهم ، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم فى كتاب الله .

وأن بينهم وبين الميت وسائط ، صاروا ـ بسببها ـ من الأقارب .

فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط . والله أعلم .

﴿ بيان من هم عصبة الميت وحكمهم فى الميراث ﴾

وأما (ميراث بقيـة العصبة) كالبنوة والأخوة وبنيهم والأعمام وبنيهم الخ فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فلأولى رجل ذكر » .

وقال تعالى :[ولكل جلعنا موالى ، مما ترك الوالدان والأقربون] .

فإذا ألحقنا الفروض بأهلها ، ولم يبق شىء ، لم يستحق العاصب شيئا .

وإن بقى شىء ، أخذه أولى العصبة ، بحسب جهاتهم ، ودرجاتهم .

﴿ جهات العصبة ﴾

فإن جهات العصوبة خمس : البنوة ، ثم الأبوة ثم الأخوة وبنوهم ، ثم العمومة وبنوهم ، ثم الولاء ، ويقدم منهم الأقرب جهة .

فإن كانوا فى جهة واحدة ، فالأقرب منزلة .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

فإن كانوا بمنزلة واحدة ، فالأقوى ، وهو الشقيق .

فإن تساووا من كل وجه ، اشتركوا . والله أعلم .

وأما كون الأخوات لغير أم ، مع البنات ، أو بنات الابن عصبات، يأخذن مافضل عن فروضهن ، فلأنه ليس فى القرآن ، مايدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات .

فإذا كان الأمر كذلك ، وبقى شىء بعد أخذ البنات فرضهن ، فإنه يعطى للأخوات ، ولا يعدل عنهن إلى عصبة أبعد منهن ، كابن الأخ والعم ، ومن هو أبعد منهم . والله أعلم .

* أى : تلك التفاصيل التى ذكرها فى المواريث ، حدود الله ، التى يجب الوقوف معها ، وعدم مجاوزتها ، ولا القصور عنها .

وفى ذلك دليل ، على أن الوصية للوارث منسوخة ، بتقديره تعالى أنصباء الوارثين .

ثم قوله تعالى [تلك حدود الله فلا تعتدوها] فالوصية للوارث ، بزيادة على حقه ، يدخل فى هـذا التعدى ، مع قوله صلى الله عليه وسلم « لا وصية لوارث » .

ثم ذكر طاعة الله ورسوله ، ومعصيتهما ، عموما ، ليدخل فى العموم ، لزوم حدوده فى الفرائض ، أو ترك ذلك فقال :

ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

[ومن يطع الله ورسوله] بامتثال أمرهما ، الذى أعظمه ، طاعتهما فى التوحيد ، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها ، واجتناب نهيهما ، الذى أعظمه الشرك بالله ، ثم المعاصى على اختلاف طبقاتها [يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها] .

فمن أدى الأوامر ، واجتنب النواهى ، فلا بد له من دخول الجنة ، والنجاة من النار .

[وذلك الفوز العظيم] الذى حصل به النجاة ، من سخطه وعذابه ، والفوز بثوابه ورضوانه ، بالنعيم المقيم ، الذى لا يصفه الواصفون .

[ومن يعص الله ورسوله . الخ] ويدخل فى اسم المعصية ، الكفر فما دونه من المعاصى .

فلا يكون فيها شبهة للخوارج ، القائلين بكفر أهل المعاصى .

فإن الله تعالى رتب دخول الجنة ، على طاعته ، وطاعة رسوله .

ورتب دخول النار ، على معصيته ومعصية رسوله .

فمن أطاعه طاعة تامة ، دخل الجنة بلا عذاب .

ومن عصى الله ورسوله ، معصية تامة ، يدخل فيها الشرك ، فما دونه ، دخل النار وخلد فيها .

ومن اجتمع فيه معصية وطاعة ، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية .

﴿ وَٱلَّـٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا

وقد دلت النصوص المتواترة ، على أن الموحدين ، الذين معهم طاعة التوحيد ، غير مخلدين فى النار .

فما معهم من التوحيد ، مانع لهم من الخلود فيها .

* أى : النساء [اللاتى يأتين الفاحشة] أى : الزنا .

فوصفها بالفاحشة ، لشناعتها وقبحها .

[فاستشهدوا عليهن أربعة منكم] أى : من رجالكم المؤمنين العدول .

[فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت] احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة .

وأيضاً ، فإن الحبس ، من جملة العقوبات .

[حتى يتوفاهن الموت] أى : هذا منتهى الحبس .

[أو يجعل الله لهن سبيلا] أى : طريقا غير الحبس فى البيوت .

فهذه الآية ليست منسوخة ، فإنما هى مغياة إلى ذلك الوقت .

فكان الأمر فى أول الإسلام كذلك ، حتى جعل الله لهن سبيلا ، وهو رجم المحصن والمحصنة وجلد غير المحصن والمحصنة .

(و) كذلك [اللذان يأتيانها] أى : الفاحشة [منكم] من الرجال والنساء [فآذوهما] بالقول والتوبيخ والتعيير ، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة .

مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

فعلى هـذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون ، والنساء يحبسن ويؤذين .

فالحبس غايته للموت ، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح .

ولهذا قال [فإن تابا] أى : رجعا عن الذنب الذى فعلاه ، وندما عليه ، وعزما أن لايعودا [وأصلحا] العمل الدال على صـدق التوبة [فأعرضوا عنهما] أى : عن أذاهما [إن الله كان توابا رحيما] أى : كثير التوبة على المذنبين الخطائين ، عظيم الرحمة والإحسان ، الذى - من إحسانه - وفقهم للتوبة ، وقبلها منهم ، وسامحهم عن ماصدر منهم .

ويؤخذ من هاتين الآيتين ، أن بينة الزنا ، أن تـكون أربعة رجال مؤمنين .

ومن باب أولى وأحرى ، اشتراط عدالتهم .

لأن الله تعالى ، شدد فى أمر هذه الفاحشة ، ستراً لعباده .

حتى إنه ، لايقبل فيها النساء منفردات ، ولامع الرجل ، ولا مع دون أربعة .

ولابد من التصريح بالشهادة ، كما دلت على ذلك ، الأحاديث الصحيحة وتومئ إليه هذه الآية لما قال [فاستشهدوا عليهن أربعة منكم] .

لم يكتف بذلك حتى قال [فإن شهدوا] أى : لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً ، من غير تعريض ، ولا كناية .

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ

ويؤخذ منهما ، أن الأذية بالقول والفعل ، والحبس ، قد شرعه الله ، تعزيراً لجنس المعصية ، الذى يحصل به الزجر .

* توبة الله على عباده نوعان :

توفيق منه للتوبة ، وقبول لها ، بعد وجودها من العبد .

فأخبر هنا ـ أن التوبة المستحقة على الله ، حق أحقه على نفسه ، كرماً منه وجوداً ، لمن عمل السوء أى : المعاصى [بجهالة] أى: جهالة منه لعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه ، وجهل منه ، لنظر الله ومراقبته له ، وجهل منه ، بما تئول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه .

فكل عاص لله ، فهو جاهل بهذا الاعتبار ، وإن كان عالماً بالتحريم . بل العلم بالتحريم ، شرط لكونها معصية ، معاقباً عليها .

[ثم يتوبون من قريب] يحتمل أن يكون المعنى : ثم يتوبون قبل معاينة الموت .

فإن الله يقبل توبة العبد ، إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب، قطعا.

وأما بعد حضور الموت ، فلا يقبل من العاصين توبتهم، ولا من الكفار رجوع ، كما قال تعالى عن فرعون :

[فلما أدركه الغرق ، قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين] الآية .

إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

وقال تعالى : [فلما رأوا بأسنا ، قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم ، لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده] وقال هنا :

[وليست التوبة للذين يعملون السيئات] أى : المعاصى فيما دون الكفر.

[حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار ، فأولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما] .

وذلك ، أن التوبة فى هذه الحال توبة اضطرار ، لا تنفع صاحبها .

إنما تنفع توبة الاختيار .

ويحتمل أن يكون معنى قوله « من قريب » أى : قريب من فعلهم الذنب ، الموجب للتوبة .

فيكون المعنى : من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب ، وأناب إلى الله ، وندم عليه فإن الله يتوب عليه .

بخلاف من استمر على ذنبه ، وأصر على عيوبه ، حتى صارت فيه صفات راسخة ، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة .

والغالب أنه لا يوفق للتوبة ، ولا ييسر لأسبابها .

كالذى يعمل السوء على علم قائم ، ويقين متهاون بنظر الله إليه ، فإنه يسد على نفسه ، باب الرحمة .

نعم قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب ، على عمد ويقين ، للتوبة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ

النافعة ، التى يمحو بها ما سلف من سيئاته ، وما تقدم من جناياته ولكن الرحمة والتوفيق للأول ، أقرب .

ولهذا ختم الآية الأولى بقوله [وكان الله عليما حكيما] .

فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها ، فيجازى كلا منهما ، بحسب ما استحق بحكمته .

ومن حكمته ، أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته ، توفيقه للتوبة .

ويخذل من اقتضت حكمته وعدله ، عدم توفيقه . والله أعلم .

* كانوا فى الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته ، رأى قريبه ، كأخيه ، وابن عمه ونحوهما ، أنه أحق بزوجته من كل أحد ، وحماها عن غيره ، أحبت أو كرهت .

فإن أحبها ، تزوجها على صداق ، يحبه دونها .

وإن لم يرضها ، عضلها ، فلا يزوجها إلا من يختاره هو .

وربما امتنع من تزويجها ، حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه ، أو من صداقها .

وكان الرجل أيضاً ، يعضل زوجته التى يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها ، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين :

أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ

إذا رضيت ، واختارت نكاح قريب زوجها الأول ، كما هو مفهوم قوله [كرها] .

وإذا أتين بفاحشة مبينة ، كالزنا ، والكلام الفاحش،وأذيتهاالزوجها، فإنه فى هذه الحال ، يجوز له أن يعضلها ، عقوبة لها على فعلها ، لتفتدى منه إذا كان عضلا بالعدل .

ثم قال [وعاشروهن بالمعروف] وهذا يشمل المعاشرة القوليةوالفعلية.

فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف ، من الصحبة الجميلة ، وكف الأذى ، وبذل الإحسان ، وحسن المعاملة ، ويدخل فى ذلك النفقة ، والكسوة ونحوهما .

فيجب على الزوج لزوجته ، المعروف ، من مثله لمثلها ، فى ذلك الزمان والمكان .

وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال .

[فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً].

أى : ينبغى لكم ـ أيها الأزواج ـ أن تمسكوازوجاتكم مع الكراهة لهن ، فإن فى ذلك ، خيراً كثيراً . من ذلك ، امتثال أمر الله ، وقبول وصيته التى فيها سعادة الدنيا والآخرة .

ومنها أن إجباره نفسه ـ مع عدم محبته لها ـ فيه مجاهدة النفس ، والتخلق بالأخلاق الجميلة .

مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

وربما أن الكراهة تزول ، وتخلفها المحبة ، كما هو الواقع فى ذلك .

وربما رزق منها ولداً صالحا ، نفع والديه فى الدنيا والآخرة .

وهذا كله ، مع الإمكان فى الإمساك ، وعدم المحذور .

فإذا كان لا بد من الفراق ، وليس للإمساك محل، فليس الإمساك بلازم.

بل متى [أردتم استبدال زوج مكان زوج] أى : تطليق زوجة ، وتزوج أخرى .

أى : فلا جناح عليكم فى ذلك ولا حرج .

ولكن إذا [آتيتم إحداهن] أى : المفارقة ، أوالتي تزوجها [قنطاراً] أى : مالا كثيراً .

[فلا تأخذوا منه شيئاً] بل . وفروه لهن ، ولا تمطلوا بهن .

وفى هذه الآية ، دلالة على عدم تحريم كثرة المهر ، مع أن الأفضل واللائق ، الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فى تخفيف المهر .

ووجه الدلالة ، أن الله أخبر عن أمر يقع منهم ، ولم ينكره عليهم . فدل على عدم تحريمه .

لكن قد ينهى عن كثرة الصداق ، إذا تضمن مفسدة دينية ، وعدم مصلحة تقاوم .

ثم قال : [أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا] فإن هذا لا يحل ، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل ، فإن إثمه واضح .

﴿ وَلَا تَنْكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله : [وكيف تأخذونه ، وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا] .

وبيان ذلك : أن الزوجة قبل عقد النكاح ، محرمة على الزوج ، ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر ، الذى يدفعه لها .

فإذا دخل بها ، وأفضى إليها ، وباشرها المباشرة التى كانت حراما قبل ذلك ، والتى لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض ، فإنه قد استوفى المعوض ، فثبت عليه العوض .

فكيف يستوفى المعوض ، ثم بعد ذلك يرجع فى العوض ؟

هذا من أعظم الظلم والجور .

وكذلك أخذ الله على الأزواج ، ميثاقاً غليظاً ، بالعقد ، والقيام بحقوقها .

* أى : لا تتزوجوا من النساء ، ما تزوجهن آباؤكم ، أى : الأب وإن علا .

[إنه كان فاحشة] أى : أمرا قبيحا يفحش ويعظم قبحه [ومقتا] من الله لكم ومن الخلق ، بل يمقت بسبب ذلك الابن أباه ، والأب ابنه ، مع الأمر ببره .

[وساء سبيلا] أى : بئس الطريق طريقا لمن سلكه ، لأن هذا من عوائد الجاهلية ، التى جاء الإسلام بالتنزه عنها ، والبراءة منها .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ

---

* هذه الآيات الكريمات ، مشتملات على المحرمات بالنسب ، والمحرمات بالصهر ، والمحرمات بالجمع ، وعلى المحللات من النساء .

فأما المحرمات فى النسب ، فهن السبع اللاتى ذكرهن الله .

الأم ، يدخل فيها ، كل من لها عليك ولادة ، وإن بعدت .

ويدخل فى البنت كل من لك عليها ولادة ، والأخوات الشقيقات ، أو لأب أو لأم .

والعمة كل : أخت لأبيك ، أو لجدك ، وإن علا .

والخالة : كل أخت لأمك ، أو جدتك وإن علت ، وارثة أم لا .

وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، أى : وإن نزلت .

فهؤلاء هن المحرمات من النسب ، بإجماع العلماء ، كما هو نص الآية الكريمة ، وما عداهن فيدخل فى قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » ، وذلك كبنت العمة والعم ، وبنت الخال والخالة .

وأما المحرمات بالرضاع ، فقد ذكر الله منهن ، الأم ، والأخت .

وفى ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها ، إنما هو لصاحب اللبن .

دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن ، يكون أبا للمرتضع .

فإذا ثبتت الأبوة والأمومة ، ثبت ما هو فرع عنهما ، كأخوتهما ، وأصولهما ، وفروعهما .

وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «يحرم من الرضاع ، ما يحرم من النسب» .

فينتشر التحريم من جهة المرضعة ، ومن له اللبن ، كما ينتشر فى الأقارب ، وفى الطفل المرتضع ، إلى ذريته فقط .

لكن بشرط أن يكون الرضاع ، خمس رضعات فى الحولين ، كما بينت السنة .

وأما المحرمات بالصهر ، فهن أربع .

حلائل الآباء وإن علوا ، وحلائل الأبناء ، وإن نزلوا ، وارثين ، أو محجوبين .

وأمهات الزوجة ، وإن علون .

فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد .

والرابعة : الربيبة ، وهى بنت زوجته وإن نزلت ، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا [وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن] الآية .

وقد قال الجمهور : إن قوله [اللاتى فى حجوركم] قيد خرج بمخرج الغالب ، لا مفهوم له .

فإن الربيبة تحرم ، ولو لم تكن فى حجره ، ولكن للتقييد بذلك فائدتان :

إحداهما : التنبيه على الحكمة فى تحريم الربيبة ، وأنها كانت بمنزلة البنت ، فمن المستقبح إباحتها .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ

والثانية : فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة ، وأنها بمنزلة من هى فى حجره من بناته ونحوهن . والله أعلم .

وأما المحرمات بالجمع ، فقد ذكر الله ، الجمع بين الأختين ، وحرمه .

وحرم النبى صلى الله عليه وسلم . الجمع بين المرأة وعمتها ، أو خالتها .

فكل امرأتين بينهما رحم محرم ، لو قدر إحداهما ذكراً ، والأخرى أنثى ، حرمت عليه ، فإنه يحرم الجمع بينهما ، وذلك لما فى ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام .

ومن المحرمات فى النكاح [المحصنات من النساء] أى : ذوات الأزواج .

فإنه يحرم نكاحهن ما دمن فى ذمة الزوج ، حتى تطلق، وتنقضى عدتها .

و [إلا ما ملكت أيمانكم] أى : بالسبي .

فإذا سبيت الكافرة ذات الزوج ، حلت للمسلمين ، بعد أن تستبرأ .

وأما إذا بيعت الأمة المزوجة ، أو وهبت ، فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثانى ، نزل منزلة الأول ، ولقصة بريرة ، حين خيرها النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله [كتاب الله عليكم] أى : الزموه واهتدوا به ، فإن فيه الشفاء والنور ، وفيه تفصيل الحلال من الحرام .

فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴿٢٤﴾

ودخل فى قوله : [وأحل لكم ما وراء ذلكم] كل ما لم يذكر فى هذه الآية ، فإنه حلال طيب .

فالحرام محصور ، والحلال ليس له حد ولا حصر ، لطفامن الله، ورحمة، وتيسيراً للعباد .

وقوله [أن تبتغوا بأموالكم] أى . تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم ، من اللاتى أباحهن الله لكم حالة كونكم [محصنين] أى : مستعفين عن الزنا ، ومعفين نساءكم .

[غير مسافحين] والسفح : سفح الماء فى الحلال والحرام ، فإن الفاعل لذلك ، لا يحصن زوجته ، لكونه وضع شهوته فى الحرام ، فتضعف داعيته للحلال ، فلا يبقى محصنا لزوجته .

وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف ، لقوله تعالى :

[الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك] .

[فما استمتعتم به منهن] أى :.من تزوجتموها [فآتوهن أجورهن] أى الأجور ، فى مقابلة الاستمتاع .

ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته ، تقرر عليه صداقها .

[فريضة] أى إتيانكم إياهن أجورهن ، فرض فرضه الله عليكم ، ليس بمنزلة التبرع ، الذى إن شاء أمضاه ، وإن شاء رده .

. . . .

أو معنى قوله فريضة : أى مقدرة قد قدرتموها ، فوجبت عليكم ، فلا تنقصوا منها شيئاً .

[ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة] أى : بزيادة من الزوج ، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس ، هذا قول كثير من المفسرين .

وقال كثير منهم : إنها نزلت فى متعة النساء التي كانت حلالا فى أول الإسلام ، ثم حرمها النبى صلى الله عليه وسلم ،وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذى بينهما ، فتراضيا بعد الفريضة ، فلا حرج عليهما ، والله أعلم .

[إن الله كان عليما حكيما] أى : كامل العلم واسعه ، كامل الحكمة .

فمن علمه وحكمته ، شرع لكم هذه الشرائع ، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام .

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ

ثم قال تعالى [ومن لم يستطع طولا] الآية .

* أى : ومن لم يستطع الطول الذى هو المهر لنكاح المحصنات ، أى : الحرائر المؤمنات ، وخاف على نفسه العنت ، أى : الزنا والمشقة الكثيرة ، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات .

وهذا بحسب ما يظهر ، وإلا ، فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره .

فأمور الدنيا مبنية على ظواهر الأمور ، وأحكام الآخرة مبنية على ما فى البواطن .

[فانكحوهن] أى : المملوكات [بإذن أهلهن]أى: سيدهن ،واحداً، أو متعدداً .

[وآتوهن أجورهن بالمعروف] أى : ولوكن إماء ، فإنه كما يجب المهر للحرة ، فكذلك يجب للأمة .

ولكن لا يجوز نكاح الإماء ، إلا إذا كن [محصنات]أى: عفيفات عن الزنا .

[غير مسافحات] أى : زانيات علانية .

[ولا متخذات أخدان] أى : أخلاء فى السر .

فالحاصل ، أنه لا يجوز للحر المسلم ، نكاح أمة ، إلا بأربعة شروط ذكرها الله :

فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

إيمانهن ، والعفة ظاهراً ، وباطنا ، وعدم استطاعة طول الحرة ، وخوف العنت .

فإذا تمت هذه الشروط ، جار له نكاحهن .

ومع هذا ، فالصبر عن نكاحهن أفضل ، لما فيه من تعريض الأولاد للرق ، ولما فيه من الدناءة والعيب .

وهذا إذا أمكن الصبر ، فإن لم يمكن الصبر عن الحرام، إلا بنكاحهن، وجب ذلك .

ولهذا قال [وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم] .

وقوله [فإذا أحصن] أى : تزوجن أو أسلمن ، أى الإماء [فإن أتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات] أى : الحرائر [من العذاب] .

وذلك الذى يمكن تنصيفه ، وهو : الجلد ، فيكون عليهن خمسون جلدة.

وأما الرجم ، فليس على الإماء رجم ، لأنه لا يتنصف .

فعلى القول الأول ، إذا لم يتزوجن ، فليس عليهن حد ، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة .

وعلى القول الثانى : إن الإماء غير المسلمات.إذا فعلن فاحشة أيضا عزرن .

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين « الغفور الرحيم » لكون

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ

هذه الأحكام ، رحمة بالعباد ، وكرما ، وإحساناً إليهم ، فلم يضيق عليهم ، بل وسع غاية السعة .

ولعل فى ذكر المغفرة بعد ذكر الحد ، إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده ، كما ورد بذلك الحديث .

وحكم العبد الذكر فى الحد المذكور ، حكم الأمة ، لعدم الفارق بينهما .

* يخبر تعالى ، بمنته العظيمة ، ومنحته الجسيمة ، وحسن تربيته لعباده المؤمنين ، وسهولة دينه فقال :

[يريد الله ليبين لكم] أى : جميع ما تحتاجون إلى بيانه ، من الحق والباطل ، والحلال والحرام .

[ويهديكم سنن الذين من قبلكم] أى : الذين أنعم الله عليهم، من النبيين وأتباعهم ، فى سيرهم الحميدة ، وأفعالهم السديدة ، وشمائلهم الكاملة ، وتوفيقهم التام .

فلذلك نفذ ما أراده ، ووضح لكم ، وبين بياناً ، كما بين لمن قبلكم ، وهداكم هداية عظيمة فى العلم والعمل .

[ويتوب عليكم] أى : يلطف لكم فى أحوالكم ، وما شرعه لكم ، حتى تتمكنوا من الوقوف على ما حده الله ، والاكتفاء بما أحله ، فتقل ذنوبكم ، بسبب ما يسر الله عليكم ، فهذا من توبته على عباده .

ومن توبته عليهم ، أنهم إذا أذنبوا ، فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع

عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

قلوبهم الإنابة إليه ، والتذلل بين يديه ، ثم يتوب عليهم ، بقبول ما وفقهم له . فله الحمد والشكر ، على ذلك .

وقوله [والله عليم حكيم] أي : كامل الحكمة ، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون . ومنها هذه الأشياء والحدود .

ومن حكمته ، أنه يتوب على من اقتضت حكمته ورحمته ، التوبة عليه. ويخذل من اقتضت حكمته وعدله ، من لا يصلح للتوبة .

وقوله [والله يريد أن يتوب عليكم] أي : توبة تلم شعثكم ، وتجمع متفرقكم ، وتقرب بعيدكم .

[ويريد الذين يتبعون الشهوات] أي : يميلون معها حيث مالت ، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم ، ويعبدون أهواءهم ، من أصناف الكفرة والعاصين ، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم .

فهؤلاء يريدون [أن تميلوا ميلا عظيما] أي : تنحرفوا عن الصراط المستقيم ، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين .

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن ، إلى طاعة الشيطان ، وعن التزام حدود من السعادة كلها ، فى امتثال أوامره ، إلى من الشقاوة كلها فى اتباعه .

فإذا عرفتم أن الله تعالى ، يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم ، وسعادتكم ، وأن هؤلاء المتبعين لشهواتهم ، يأمرونكم ، بما فيه غاية الخسار والشقاء ، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين ، وتخيروا أحسن الطريقتين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ

[يريد الله أن يخفف عنكم] أى : بسهولة ما أمركم به ، ونهاكم عنه .

ثم مع حصول المشقة فى بعض الشرائع ، أباح لكم ماتقتضيه حاجتكم، كالميتة والدم ونحوهما، للمضطر، وكتزوج الأمة للحر، بتلك الشروط السابقة.

وذلك لرحمته التامة ، وإحسانه الشامل ، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان، من جميع الوجوه ، ضعف البنية ، وضعف الإرادة وضعف العزيمة ، وضعف الإيمان ، وضعف الصبر .

فناسب ذلك ، أن يخفف الله عنه ، ما يضعف عنه،وما لا يطيقه إيمانه ، وصبره ، وقوته .

* ينهى تعالى ، عباده المؤمنين ، أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل .

وهذا يشمل أكلها بالغصوب ، والسرقات ، وأخذها بالقمار ، والمكاسب الرديئة .

بل لعله يدخل فى ذلك ، أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف ، لأن هذا من الباطل ، وليس من الحق .

ثم أنه — لما حرم أكلها بالباطل — أباح لهم أكلها بالتجارات ، والمكاسب الخالية من الموانع ، المشتملة على الشروط ، من التراضى وغيره .

[ولا تقتلوا أنفسكم] أى : لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يقتل الإنسان نفسه .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

ويدخل فى ذلك ، الإلقاء بالنفس إلى التهلكة ، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك .

[إن الله كان بكم رحيما] ومن رحمته ، أن صان نفوسكم وأموالكم ، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها ، ورتب على ذلك ، ما رتبه من الحدود .

وتأمل هذا الإيجاز والجمع ، فى قوله « لا تأكلوا أموالكم » ولا تقتلوا أنفسكم » كيف شمل أموال غيرك ، ومال نفسك ، وقتل نفسك ، وقتل غيرك ، بعبارة أخصر من قوله « لا يأكل بعضكم مال بعض » و « لا يقتل بعضكم بعضاً » مع قصور هذه العبارة على مال الغير ، ونفس الغير .

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين ، فيه دلالة على أن المؤمنين ، فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، ومصالحهم ، كالجسد الواحد ، حيث كان الإيمان يجمعهم ، على مصالحهم الدينية والدنيوية .

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل ، التى فيها غاية الضرر عليهم ، على الأكل ، ومن أخذ ماله — أباح لهم ، مافيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات ، وأنواع الحرف والإجارات فقال :

[إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم] أى : فإنها مباحة لكم .

وشرط التراضى — مع كونها تجارة ـ لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا ، لأن الربا ليس من التجارة ، بل مخالف لمقصودها ، وأنه لابد أن يرضى كل من المتعاقدين ، ويأتى به اختيارا .

. . . .

ومن تمام الرضا ، أن يكون المعقود عليه ، معلوما ، لأنه إذا لم يكن كذلك ، لا يتصور الرضا مقدورا على تسليمه ، لأن غير المقدور عليه ، شبيه ببيع القمار .

فبيع الغرر بجميع أنواعه ، خال من الرضا ، فلا ينفذ عقده .

وفيها أنه تنعقد العقود ، بما دل عليها ، من قول أو فعل ، لأن الله شرط الرضا ، فبأي طريق حصل الرضا ، انعقد به العقد .

ثم ختم الآية بقوله [إن الله كان بكم رحيما] ومن رحمته ، أن عصم دماءكم وأموالكم ، وصانها ، ونهاكم عن انتهاكها .

ثم قال [ومن يفعل ذلك] أي : أكل الأموال بالباطل ، وقتل النفوس [عدوانا وظلما] أي : لا جهلا ونسيانا [فسوف نصليه نارا] أي : عظيمة كما يفيده التنكير [وكان ذلك على الله يسيرا] .

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

---

* وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات ، غفر لهم جميع الذنوب والسيئات ، وأدخلهم مدخلا كريما ، كثير الخير ، وهو الجنة ، المشتملة على مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ويدخل فى اجتناب الكبائر ، فعل الفرائض التى يكون تاركها مرتكبا كبيرة ، كالصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .

« الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهما ، ما اجتنبت الكبائر » .

وأحسن ما حدت به الكبائر ، أن الكبيرة ما فيه حد فى الدنيا ، أو وعيد فى الآخرة ، أو نفى إيمان ، أو ترتيب لعنة ، أو غضب عليه .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

---

* ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ، مافضل الله به غيره ، من الأمور الممكنة ، وغير الممكنة .

فلا تتمنى النساء خصائص الرجال ، التى بها فضلهم على النساء ، ولا صاحب الفقر والنقص ، حالة الغنى والكامل ، تمنيا مجرداً ، لأن هذا ، هو الحسد بعينه ، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك ، ويسلب إياها .

ولأنه يقتضى السخط على قدر الله ، والإخلاد إلى الكسل والأمانى الباطلة ، التى لايقترن بها عمل ، ولا كسب .

وإنما المحمود أمران ، أن يسعى العبد على حسب قدرته ، بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية .

ويسأل الله تعالى من فضله . فلا يتكل على نفسه ، ولا على غير ربه .

ولهذا قال تعالى [للرجال نصيب مما اكتسبوا] أى : من أعمالهم المنتجة للمطلوب .

[وللنساء نصيب مما اكتسبن] فكل منهم لايناله ، غيرما كسبه ، وتعب فيه .

[واسألوا الله من فضله] أى : من جميع مصالحكم فى الدين والدنيا.

فهذا كمال العبد ، وعنوان سعادته ، لا من يترك العمل ، أو يتكل

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾

على نفسه ، غير مفتقر له ، أو يجمع بين الأمرين ، فإن هذا مخذول خاسر .

وقوله [إن الله كان بكل شيء عليما] فيعطى من يعلمه أهلا لذلك ، ويمنع من يعلمه غير مستحق .

* أى : [ولكل] من الناس [جعلنا موالى] أى يتولونه ويتولاهم ، بالتعزز والنصرة ، والمعاونة على الأمور .

[مما ترك الوالدان والأقربون] وهذا يشمل سائر الأقارب ، من الأصول والفروع والحواشى . هؤلاء الموالى من القرابة .

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال :

[والذين عقدت أيمانكم] أى : حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة ، والاشتراك بالأموال ، وغير ذلك .

وكل هذا من نعم الله على عباده ، حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً .

قال تعالى [فآتوهم نصيبهم] أى : آتوا الموالى نصيبهم ، الذى يجب القيام به ، من النصرة والمعاونة ، والمساعدة ، على غير معصية الله .

والميراث للأقارب الأدنين من الموالى .

[إن الله كان على كل شيء شهيداً] أى : مطلعا على كل شيء ، بعلمه لجميع الأمور ، وبصره لحركات عباده ، وسمعه لجميع أصواتهم .

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ

---

* يخبر تعالى أن [الرجال قوامون على النساء] أى : قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى ، من المحافظة على فرائضه ، وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم ، أن يلزموهن بذلك ، وقوامون عليهن أيضاً ، بالإنفاق عليهن ، والكسوة ، والمسكن .

ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال :

[بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم] أى: بسبب فضل الرجال على النساء ، وإفضالهم عليهم .

فتفضيل الرجال على النساء ، من وجوه متعددة .

من كون الولايات مختصة بالرجال ، والنبوة، والرسالة ، واختصاصهم بكثير من العبادات ، كالجهاد ، والأعياد ، والجمع .

وبما خصهم الله به ، من العقل ، والرزانة ، والصبر ، والجلد ، الذى ليس للنساء مثله .

وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات ، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ، ويتميزون عن النساء .

ولعل هذا ، سر قوله [بما أنفقوا] وحذف المفعول ، ليدل على عموم النفقة .

فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فعلم من هذا كله، أن الرجل كالوالى والسيد لامرأته ، وهى عنده عانية أسيرة .

فوظيفته ، أن يقوم بما استرعاه الله به .

ووظيفتها ، القيام بطاعة ربها ، وطاعة زوجها ، فلهذا قال :

[فالصالحات قانتات] أى : مطيعات لله تعالى [حافظات للغيب] أى : مطيعات لأزواجهن حتى فى الغيب ، تحفظ بعلها بنفسها ، وماله ، وذلك بحفظ الله لهن ، وتوفيقه لهن ، لا من أنفسهن ، فإن النفس أمارة بالسوء ، ولكن من توكل على الله ، كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه .

ثم قال : [واللاتى تخافون نشوزهن] أى : ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن ، بأن تعصيه بالقول أو الفعل ، فإنه يؤدبها بالأسهل فالأسهل .

[فعظوهن] أى ببيان حكم الله فى طاعة الزوج ومعصيته ، والترغيب فى الطاعة ، والترهيب من المعصية .

فإن انتهت ، فذلك المطلوب ، وإلا فيهجرها الزوج فى المضجع ، بأن لايضاجعها ، ولايجامعها بمقدار مايحصل به المقصود .

وإلا ، ضربها ضربا غير مبرح .

فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور ، وأطعنكم [فلا تبغوا عليهن سبيلا] أى : فقد حصل لكم ماتحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

الماضية ، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها ، ويحدث بسببه ، الشر.

[إن الله كان عليا كبيرا] أى : له العلو المطلق ، بجميع الوجوه ، والاعتبارات ، علو الذات ، وعلو القدر ، وعلو القهر ، الكبير الذى لا أكبر منه ، ولا أجل ، ولا أعظم ، كبير الذات والصفات.

* أى : وإن خفتم الشقاق بين الزوجين ، والمباعدة والمجانبة ، حتى يكون كل منهما فى شق.

[فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها] أى : رجلين مكلفين ، مسلمين عدلين ، عاقلين ، يعرفان مابين الزوجين ، ويعرفان الجمع والتفريق.

وهذا مستفاد من لفظ « الحكم » لأنه لايصلح حكما ، إلا من اتصف بتلك الصفات.

فينظران ماينقم كل منهما على صاحبه ، ثم يلزمان كلا منهما مايجب.

فإن لم يستطع أحدهما ذلك ، أقنعا الزوج الآخر بالرضا ، بما تيسر من الرزق والخلق.

ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح ، فلا يعدلا عنه.

فإن وصلت الحال ، إلى أنه لايمكن اجتماعهما وإصلاحهما ، إلا على وجه المعاداة والمقاطعة ، ومعصية الله ، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح ، فرقا بينهما.

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ

ولا يشترط رضا الزوج ، كما يدل عليه ، أن الله سماها الحكمين .

والحكم يحكم ، وإن لم يرض المحكوم عليه .

ولهذا قال : [إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما] أى : بسبب الرأى الميمون ، والكلام الذى يجذب القلوب ، ويؤلف بين القرينين .

[إن الله كان عليما خبيرا] أى : عالما بجميع الظواهر والبواطن ، مطاعا على خفايا الأمور وأسرارها .

فمن علمه وخبره ، أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة ، والشرائع الجميلة .

* يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لاشريك له ، وهو الدخول تحت رق عبوديته ، والانقياد لأوامره ونواهيه ، محبة ، وذلا ، وإخلاصاً له ، فى جميع العبادات الظاهرة والباطنة .

وينهى عن الشرك به شيئا ، لاشركا أصغر ، ولا أكبر ، لاملكا ، ولا نبيا ، ولا وليا ولاغيرهم من المخلوقين ، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ، ولانشورا .

بل الواجب المتعين ، إخلاص العبادة ، لمن له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، وله التدبير الكامل ، الذي لايشركه ، ولايعينه عليه أحد .

ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه ، أمر بالقيام بحقوق العباد ، الأقرب ، فالأقرب .

ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ

فقال : [وبالوالدين إحسانا] أى : أحسنوا إليهم بالقول الكريم ، والخطاب اللطيف ، والفعل الجميل ، بطاعة أمرهما ، واجتناب نهيهما ، والإنفاق عليهما ، وإكرام من له تعلق بهما ، وصلة الرحم ، التى لارحم لك إلا بهما .

وللإحسان ضدان ، الإساءة ، وعدم الإحسان . وكلاهما منهى عنه .

[وبذى القربى] أيضاً إحساناً ، ويشمل ذلك جميع الأقارب ، قربوا ، أو بعدوا ، بأن يحسن إليهم ، بالقول ، والفعل ، وأن لايقطع رحمه ، بقوله أو فعله .

[واليتامى] أى : الذين فقدوا آباءهم وهم صغار، فلهم حق على المسلمين ، سواء كانوا أقارب أو غيرهم ، بكفالتهم ، وبرهم ، وجبر خواطرهم ، وتأديبهم ، وتربيتهم أحسن تربية ، فى مصالح دينهم ودنياهم .

[والمساكين] وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر ، فلم يحصلوا على كفايتهم ، ولا كفاية من يمونون .

فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم ، بسد خلتهم ، وبدفع فاقتهم ، والحض على ذلك ، والقيام بما يمكن منه .

[والجار ذى القربى] أى : الجار القريب ، الذى له حقان ، حق الجوار ، وحق القرابة ، فله على جاره حق ، وإحسان ، راجع إلى العرف .

وكذلك [الجار الجنب] أى : الذي ليس له قرابة .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

وكلما كان الجار أقرب بابا ، كان آكد حقا .

فينبغى للجار ، أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة ، والدعوة ، واللطافة بالأقوال والأفعال ، وعدم أذيته ، بقول أو فعل .

[والصاحب بالجنب] قيل : الرفيق فى السفر ، وقيل : الزوجة ، وقيل الصاحب مطلقا ، ولعله أولى ، فإنه يشمل الصاحب فى الحضر والسفر ، ويشمل الزوجة .

فعلى الصاحب لصاحبه ، حق زائد على مجرد إسلامه ، من مساعدته على أمور دينه ودنياه ، والنصح له ؛ والوفاء معه ، فى اليسر والعسر ، والمنشط والمكره ، وأن يحب له ، ما يحب لنفسه ، ويكره له ، مايكره لنفسه ، وكلما زادت الصحبة ، تأكد الحق ، وزاد .

[وابن السبيل : هو : الغريب الذى احتاج فى بلد الغربة ، أو لم يحتج ، فله حق على المسلمين ، لشدة حاجته ، وكونه فى غير وطنه ، بتبليغه إلى مقصوده ، أو بعض مقصوده ، وبإكرامه ، وتأنيسه .

[وما ملكت أيمانكم] أى : من الآدميين والبهائم ، بالقيام بكفايتهم وعدم تحميلهم ، ما يشق عليهم وإعانتهم على ما تحملوه ، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم .

فمن قام بهذه المأمورات ، فهو الخاضع لربه ، المتواضع لعباد الله ، المنقاد لأمر الله وشرعه ، الذى يستحق الثواب الجزيل ، والثناء الجميل .

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ

ومن لم يقم بذلك، فإنه عبد معرض عن ربه ، غير منقاد لأوامره ، ولا متواضع للخلق .

بل هو متكبر على عباد الله ، معجب بنفسه ، فخور بقوله ، ولهذا قال :

[إن الله لايحب من كان مختالا] أى : معجباً بنفسه ، متكبرا على الخلق .

[فخوراً] يثنى على نفسه ويمدحها ، على وجه الفخر والبطر ، على عباد الله .

فهؤلاء، مابهم من الاختيال والفخر ، يمنعهم من القيام بالحقوق .

ولهذا ذمهم بقوله [الذين يبخلون] أى : يمنعون ماعليهم من الحقوق الواجبة .

[ويأمرون الناس بالبخل] بأقوالهم وأفعالهم .

[ويكتمون ما آتاهم الله من فضله] أى : من العلم الذى يهتدى به الضالون ويسترشد به الجاهلون ، فيكتمونه عنهم ، ويظهرون لهم من الباطل ، مايحول بينهم وبين الحق .

فجمعوا بين البخل بالمال ، والبخل بالعلم ، وبين السعى فى خسارة أنفسهم ، وخسارة غيرهم ، وهذه هى صفات الكافرين ، فلهذا قال تعالى :

[وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا] أى : كما تكبروا على عباد الله ،

وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾

ومنعوا حقوقه ، وتسببوا فى منع غيرهم ، من البخل ، وعدم الاهتداء ، أهانهم بالعذاب الأليم ، والخزى الدائم .

فعياذاً بك اللهم من كل سوء .

ثم أخبر عن النفقة الصادرة ، عن رياء وسمعة ، وعدم إيمان به ، فقال :

[والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس] أى : ليروهم ، ويمدحوهم ، ويعظموهم .

[ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر] أى : ليس إنفاقهم صادراً عن إخلاص وإيمان بالله ، ورجاء ثوابه .

أى : فهذا من خطوات الشيطان وأعماله ، التى يدعو حزبه إليها ، ليكونوا من أصحاب السعير .

وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها ، فلهذا قال :

[ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا] أى : بئس المقارن والصاحب الذى يريد إهلاك من قارنه ، ويسعى فيه أشد السعى .

فكما أن من بخل بما آتاه الله ، وكتم ما من به الله عليه ، عاص آثم ، مخالف لربه .

فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله ، فإنه آثم عاص لربه ، مستوجب للعقوبة .

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

لأن الله إنما أمر بطاعته ، وامتثال أمره ، على وجه الإخلاص ، كما قال تعالى :

[وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين] فهذا هو العمل المقبول الذى يستحق صاحبه المدح والثواب ، فلهذا حث تعالى عليه بقوله :

[وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر . الآية] .

* أى : أى شىء عليهم ، وأى حرج ومشقة ، تلحقهم ، لو حصل منهم ، الإيمان بالله ، الذى هو الإخلاص ، وأنفقوا من أموالهم ، التى رزقهم الله ، وأنعم بها عليهم ، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق .

ولما كان الإخلاص ، سراً بين العبد وربه ، لا يطلع عليه إلا الله ، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال [وكان الله بهم عليما] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ

---

* يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله ، وتنزهه عما يضاد ذلك ، من الظلم القليل ، والكثير فقال :

[إن الله لا يظلم مثقال ذرة] أى : ينقصها من حسنات عبده، أو يزيدها فى سيئاته .

كما قال تعالى [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] .

[وإن تك حسنة يضاعفها] أى : إلى عشرة أمثالها : أى أكثر من ذلك ، بحسب حالها ونفعها ، وحال صاحبها ، إخلاصاً ، ومحبة : وكمالا .

[ويؤت من لدنه أجراً عظيما] أى : زيادة على ثواب العمل بنفسه ، من التوفيق لأعمال أخر ، وإعطاء البر الكثير ، والخير الغزير .

ثم قال تعالى : [فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً] .

أى : كيف تكون تلك الأحوال ، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم ، الذي جمع أن من حكم به ، كامل العلم ، كامل العدل ، كامل الحكمة ، بشهادة أزكى الخلق ، وهم الرسل ، على أممهم ، مع إقرار المحكوم عليه ؟!! فهذا ـ والله ـ الحكم ، الذى هو أعم الأحكام ، وأعدلها ، وأعظمها .

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له ، لكمال الفضل والعدل ، والحمد والثناء .

أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

وهناك يسعد أقوام ، بالفوز والفلاح ، والعز والنجاح .

ويشقى أقوام ، بالخزى والفضيحة ، والعذاب المبين ، ولهذا قال :

[يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول] أى : جمعوا بين الكفر بالله ورسوله ، ومعصية الرسول [لو تسوى بهم الأرض] أى :تبتلعهم ، ويكونون تراباً وعدما ، كما قال تعالى[ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً].

[ولا يكتمون الله حديثاً] أى : بل يعترفون له بما عملوا ،وتشهدعليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، بما كانوا يعملون .

يومئذ يوفيهم الله دينهم : جزاءهم الحق،ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

فأما ما ورد ، من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم ، فإن ذلك يكون فى بعض مواضع القيامة ، حين يظنون أن جحودهم ينفعهم من عذاب الله .

فإذا عرفوا الحقائق ، وشهدت عليهم جوارحهم ، حينئذ ينجلى الأمر ، ولا يبقى للكتمان موضع ، ولا نفع ، ولا فائدة .

* ينهى تعالى عباده المؤمنين ، أن يقربوا الصلاة ، وهم سكارى ، حتى يعلموا ما يقولون .

وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة ، كالمسجد ، فإنه لا يمكن السكران من دخوله .

وشامل لنفس الصلاة ، فإنه ، لا يجوز للسكران ، صلاة ، ولا عبادة ، لاختلاط عقله ، وعدم علمه بما يقول .

ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم ، بما يقول السكران .

وهذه الآية الكريمة ، منسوخة بتحريم الخمر مطلقا .

فإن الخمر — فى أول الأمر — كان غير محرم .

ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه ، بقوله [يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما] .

ثم إنه تعالى ، نهاهم عن الخمر ، عند حضور الصلاة ، كما فى هذه الآية .

ثم إنه تعالى ، حرمه على الإطلاق فى جميع الأوقات فى قوله :

[ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه] الآية .

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة ، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة . بعد حصول مقصود الصلاة ، الذى هو روحها ولبها ، وهو الخشوع وحضور القلب ، فإن الخمر يسكر القلب ، ويصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة .

ويؤخذ من المعنى ، منع الدخول فى الصلاة ، فى حال النعاس المفرط ، الذى لا يشعر صاحبه ، بما يقول ويفعل .

سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا

بل لعل فيه إشارة ، إلى أنه ينبغى لمن أراد الصلاة ، أن يقطع عنه كل شاغل ، يشغل فكره ، كمدافعة الأخبثين ، والتوق لطعام ونحوه ، كما ورد فى ذلك الحديث الصحيح .

ثم قال [ولا جنبا إلا عابرى سبيل] أى : لا تقربوا الصلاة ، حالة كون أحدكم جنباً إلا فى هذه الحال ، وهو عابر السبيل أى: تمرون فى المسجد ، ولا تمكثون فيه .

[حتى تغتسلوا] أى : فإذا اغتسلتم ، فهو غاية المنع ، من قربان الصلاة للجنب .

فيحل للجنب ، المرور فى المسجد فقط .

[وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا] .

فأباح التيمم للمريض مطلقا ، مع وجود الماء وعدمه والعلة ، هى: المرض ، الذى يشق معه استعمال الماء ، وكذلك السفر ، فإنه مظنة فقد الماء .

فإذا فقده المسافر ، ووجد ما يتعلق بحاجته ، من شرب ونحوه ، جاز له التيمم .

وكذلك إذا أحدث الإنسان ، ببول أو غائط ، أو ملامسة النساء ، فإنه يباح له التيمم ، إذا لم يجد الماء ، حضراً وسفراً ، كما يدل على ذلك عموم الآية .

فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

والحاصل : أن الله تعالى أباح التيمم فى حالتين :

حال عدم الماء ، وهذا مطلقاً فى الحضر والسفر .

وحال المشقة باستعماله ، بمرض ونحوه .

واختلف المفسرون فى معنى قوله [أو لامستم النساء] هل المراد بذلك : الجماع ، فتكون الآية نصاً فى جواز التيمم للجنب ، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة ؟

أو المراد بذلك : مجرد اللمس باليد ، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذى ، وهو المس الذى يكون لشهوة ، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك[1] ؟ .

واستدل الفقهاء بقوله [فلم تجدوا ماء] بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت.

قالوا : لأنه لا يقال : « لم يجد » لمن لم يطلب ، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب .

واستدل بذلك أيضا ، على أن الماء المتغير بشىء من الطاهرات ، يجوز ، بل يتعين ، التطهر به لدخوله فى قوله [فلم تجدوا ماء] وهذا ماء .

---

(١) الذى انتهى إليه التحقيق فى لمس المرأة أنه لا ينقض الوضوء إلا إذا كانت بشهوة وكان الملامس يعرف من نفسه أنه يخرج منه مذى باللمس . وأما إذا لم يؤد اللمس إلى خروج المذى ، فلا ينقض اللمس الوضوء . والمسألة راجعة إلى حالة اللامس فكل ما أفضى إلى الإمذاء فهو ناقض للوضوء .

. . . .

ونوزع فى ذلك ، أنه ماء غير مطلق ، وفى ذلك نظر .

وفى هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم ، الذى امتن به الله على هذه الأمة ، وهو مشروعية التيمم ، وقد أجمع على ذلك العلماء ، ولله الحمد .

وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب ، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض ، سواء كان له غبار أم لا .

ويحتمل أن يختص ذلك ، بذى الغبار ، لأن الله قال فى آية الوضوء من سورة المائدة الآية ٦ [فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه] .

ومالا غبار له ، لا يمسح به .

وقوله [فامسحوا بوجوهكم وأيديكم] أى : منه . كما فى آية (المائدة) هذا محل المسح فى التيمم : الوجه جميعه ، واليدان إلى الكوعين ، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة ، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة ، كما دل على ذلك حديث عمار ، وفيه أن تيمم الجنب ، كتيمم غيره ، بالوجه واليدين .

فائدة

اعلم أن قواعد الطب ، تدور على ثلاث قواعد : حفظ الصحة عن المؤذيات ، والاستفراغ منها ، والحمية عنها . وقد نبه تعالى ، عليها فى كتابه العزيز .

أما حفظ الصحة والحمية عن المؤذى ، فقد أمر بالأكل والشرب ، وعدم الإسراف فى ذلك .

. . . .

وأباح للمسافر والمريض الفطر ، حفظا لصحتهما ، باستعمال ما يصلح البدن ، على وجه العدل ، وحماية للمريض عما يضره .

وأما استفراغ المؤذى ، فقد أباح تعالى للمحرم المتأذى برأسه ، أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه .

ففيه تنبيه على استفراغ ، ما هو أولى منها ، من البول ، والغائط ، والقيء ، والمنى ، والدم ، وغير ذلك .

نبه على ذلك ابن القيم ، رحمه الله تعالى .

وفى الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين ، وأنه يجوز التيمم ، ولو لم يضق الوقت ، وأنه لا يخاطب بطلب الماء ، إلا بعدوجودسبب الوجوب والله أعلم .

ثم ختم الآية بقوله [إن الله كان غفوراً رحيما] .

أى : كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين ، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل ، بحيث لا يشق على العبد امتثاله ، فيحرج بذلك .

ومن عفوه ومغفرته ، أن رحم هذه الأمة ، بشرع الطهارة بالتراب ، بدل الماء ، عند تعذر استعماله .

ومن عفوه ومغفرته ، أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة ، ودعاهم إليه ، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم .

ومن عفوه ومغفرته ، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيه لا يشرك به شيئاً ، لأتاه بقرابها مغفرة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ

---

* هذا ذم لمن [أوتوا نصيباً من الكتاب] وفى ضمنه ، تحذير عباده عن الاغترار بهم ، والوقوع فى أشراكهم .

فأخبر أنهم ، فى أنفسهم [يشترون الضلالة] أى : يحبونها محبة عظيمة ، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير ، فى طلب ما يحبه .

فيؤثرون الضلال على الهدى ، والكفر على الإيمان ، والشقاء على السعادة . ومع هذا [يريدون أن تضلوا السبيل] .

فهم حريصون على إضلالكم ، غاية الحرص ، باذلون جهدهم فى ذلك .

ولكن لما كان الله ولى عباده المؤمنين ، وناصرهم ، بين لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال ولهذا قال :

[وكفى بالله ولياً] أى : يتولى أحوال عباده ، ويلطف بهم ، فى جميع أمورهم ، وييسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم .

[وكفى بالله نصيراً] ينصرهم على أعدائهم ، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم .

فولايته تعالى ، فيها حصول الخير ، ونصره ، فيه زوال الشر .

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم ، وإيثارهم الباطل على الحق فقال :

وَرَٰعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

[من الذين هادوا] أي : اليهود ، وهم علماء الضلال منهم .

[يحرفون الكلم عن مواضعه] إما بتغيير اللفظ أو المعنى ، أوهما جميعا .

فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم ، التي لا تنطبق ولا تصدق ، إلا على محمد صلى الله عليه وسلم ، على أنه غير مراد بها ، ولا مقصود بها ، بل أريد بها ، غيره ، وكتمانهم ذلك .

فهذا حالهم في العلم ، شر حال ، قلبوا فيه الحقائق ، ونزلوا الحق على الباطل ، وجحدوا لذلك الحق .

وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم [يقولون سمعنا وعصينا] أي : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك .

وهذا غاية الكفر والعناد ، والشرود عن الانقياد .

وكذلك يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب ، فيقولون :

[اسمع غير مسمع] قصدهم : اسمع منا غير مسمع ما تحب ، بل مسمع ما تكره .

[وراعنا] قصدهم بذلك الرعونة ، بالعيب القبيح .

. . . .

ويظنون أن اللفظ ـ لما كان محتملا لغير ما أرادوا من الأمور ـ أنه يروج على الله وعلى رسوله ، فتوصلوا بذلك اللفظ الذى يلوون به ألسنتهم، إلى الطعن فى الدين ، والعيب للرسول ، ويصرحون بذلك فيما بينهم ، فلهذا قال :

[لياً بألسنتهم وطعنا فى الدين] .

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال :

[ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم] .

وذلك لما تضمنه هذا الكلام ، من حسن الخطاب والأدب اللائق فى مخاطبة الرسول ، والدخول تحت طاعة الله ، والانقياد لأمره ، وحسن التلطف فى طلبهم العلم ، بسماع سؤالهم ، والاعتناء بأمرهم .

فهذا هو الذى ينبغى لهم سلوكه .

ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية ، أعرضوا عن ذلك ، وطردهم الله ، بكفرهم وعنادهم .

ولهذا قال : [ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ

---

* يأمر تعالى أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، أن يؤمنوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم ، المهيمن على غيره ، من الكتب السابقة التى صدقها ، فإنها أخبرت به .

فلما وقع المخبر به ، كان تصديقاً لذلك الخبر .

وأيضاً ، فإنهم — إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فإنهم لم يؤمنوا بما فى أيديهم من الكتب ، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً ، ويوافق بعضها بعضاً .

فدعوى الإيمان ببعضها ، دون بعض ، دعوى باطلة ، لايمكن صدقها .

وفى قوله [آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم] حث لهم ، وأنهم ينبغى أن يكونوا قبل غيرهم ، مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به ، من العلم ، والكتاب الذى يوجب أن يكون ما عليهم ، أعظم من غيرهم ، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال :

[من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها] وهذا جزاء من جنس ما عملوا .

فكما تركوا الحق ، وآثروا الباطل ، وقلبوا الحقائق ، فجعلوا الباطل حقاً ، والحق باطلا جوزوا[١] من جنس ذلك ، بطمس وجوههم ، كما طمسوا

---

(١) فى الأصل (فجوزوا) ولا معنى هنا لاقتران الفعل بالفاء لأن قواعد النحو تأبى ذلك .

كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

الحق ، وردها على أدبارها ، بأن تجعل فى أقفائهم ، وهذا أشنع ما يكون .

[ونلعنهم كما لعنا أصحاب السبت] بأن يطردهم من رحمته ، ويعاقبهم بجعلهم قردة ، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا فى السبت .

[فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين] .

[وكان أمر الله مفعولا] كقوله [إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون] .

* يخبر تعــالى : أنه لايغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين ، ويغفر مادون ذلك ، من الذنوب ، صغائرها ، وكبائرها ، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك ، إذا اقتضت حكمته مغفرته .

فالذنوب التى دون الشرك ، قـد جعل الله لمغفرتها ، أسبابا كثيرة كالحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة فى الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة ، وكدعاء المؤمنين ، ، بعضهم لبعض ، وبشفاعة الشافعين .

ومن دون ذلك كله ، رحمته ، التى أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك ، قد سد على نفسه أبواب المغفرة ، وأغلق دونه أبواب الرحمة ، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئا .

. . . .

[وما لهم يوم القيامة من شافعين * ولاصديق حميم[1]] .

ولهذا قال تعالى [ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما] أى : افترى جرما كبيرا .

وأى ظلم ، أعظم ، ممن سوى المخلوق – من تراب ، الناقص من جميع الوجوه ، الفقير بذاته من كل وجه .

الذى لا يملك لنفسه — فضلا عمن عبده — نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا — بالخالق لكل شىء الكامل من جميع الوجوه ، الغنى بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، الذى بيده النفع والضر ، والعطاء والمنع ، الذى ما من نعمة بالمخلوقين ، إلا منه تعالى .

فهل أعظم من هذا الظلم شىء ؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب [إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار] .

وهذه الآية الكريمة فى حق غير التائب .

وأما التائب ، فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى [قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً] أى : لمن تاب إليه ، وأناب .

---

(١) الآيتان ١٠٠و١٠١ بنصهما فى سورة الشعراء . والمؤلف أتى بمعنى الآية الأولى لمناسبة سياق الكلام . وأتى بنص الآية الثانية .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

---

* هذا تعجب من الله لعباده ، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم ، من اليهود والنصارى ، ومن نحا نحوهم ، من كل من زكى نفسه ، بأمر ليس فيه .

وذلك أن اليهود والنصارى يقولون : [نحن أبناء الله وأحباؤه] .

ويقولون : [لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى] وهـذا مجرد دعوى ، لا برهان عليها .

وإنما البرهان ، ما أخبر به فى القرآن فى قوله :

[بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون] .

فهؤلاء هم الذين زكاهم الله ، ولهذا قال هنا : [بل الله يزكى من يشاء] أى : بالإيمان والعمل الصالح ، بالتخلى عن الأخلاق الرذيلة ، والتحلى بالصفات الجميلة .

وأما هؤلاء ، فهم ـ وإن زكوا أنفسهم بزعمهم ، أنهم على شىء ، وأن الثواب لهم وحدهم ـ فإنهم كذبة فى ذلك ، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب ، بسبب ظلمهم وكفرهم ، لا بظلم من الله لهم ، ولهذا قال : [ولا يظلمون فتيلا] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ

وهذا لتحقيق العموم ، أى : لايظلمون شيئا ، ولا مقدار الفتيل الذى فى شق النواة ، أو الذى يفتل من وسخ اليد وغيرها .

قال تعالى : [انظر كيف يفترون على الله الكذب] أى : بتزكيتهم أنفسهم ، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله .

لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم ، الإخبار بأن الله ، جعل ما هم عليه حقا ، وما عليه المؤمنون المسلمون ، باطلا .

وهـذا أعظم الكذب ، وقلب الحقائق ، بجعل الحق باطلا ، والباطل حقا .

ولهذا قال : [وكفى به إثما مبينا] أى : ظاهرا بينا ، موجبا للعقوبة البليغة ، والعذاب الأليم .

* وهذا من قبائح اليهود ، وحسدهم للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أن أخلاقهم الرذيلة ، وطبعهم الخبيث ، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت ، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله ، أو حكم بغير شرع الله .

فدخل فى ذلك ، السحر والكهانة ، وعبادة غير الله ، وطاعة الشيطان .

كل هذا من الجبت والطاغوت .

وكذلك حملهم الكفر والحسد ، على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله ، عبدة الأصنام ، على طريق المؤمنين فقال :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ

[ويقولون للذين كفروا] أى لأجلهم ، تملقـا لهم ومداهنة ، وبغضا للإيمان :

[هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا]أى : طريقا .

فما أسمجهم ، وأشد عنادهم ، وأقل عقولهم !! .

وكيف سلكوا هذا المسلك الوخيم ، والوادى الذميم ؟ ! !

هل ظنوا أن هذا ، يروج على أحد من العقلاء ، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء .

فهل يفضل دين ، قام على عبادة الأصنام والأوثان ، واستقام على تحريم الطيبات ، وإباحة الخبائث ، وإحلال كثير من المحرمات ، وإقامة الظلم بين الخلق ، وتسوية الخالق بالمخلوقين ، والكفر بالله ، ورسله ، وكتبه ، على دين قام على عبادة الرحمن ، والإخلاص لله ، فى السر والإعلان والكفر بما يعبد من دونه ، من الأوثان ، والأنداد ، والكاذبين ، وعلى صلة الأرحام ، والإحسان ، إلى جميع الخلق ، حتى البهائم ، وإقامة العدل والقسط بين الناس ، وتحريم كل خبيث وظلم ، ومصدق فى جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهذيان .

وصاحب هذا القول ، إما من أجهل الناس ، وأضعفهم عقلا ، وإما من أعظمهم عنادا وتمرداً ، ومراغمة للحق .

وهذا هو الواقع ، ولهذا قال تعالى عنهم [أولئك الذين لعنهم الله] أى : طردهم عن رحمته ، وأحل عليهم نقمته .

ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ

[ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا] أى : يتولاه ، ويقوم بمصالحه ، ويحفظه عن المكاره ، هذا غاية الخذلان .

[أم لهم نصيب من الملك] أى : فيفضلون من شاءوا على من شاءوا ، بمجرد أهوائهم ، فيكونون شركاء لله فى تدبير المملكة .

فلو كانوا كذلك ، لشحوا وبخلوا أشد البخل ، ولهذا قال :

[فإذاً] أى : لو كان لهم نصيب من الملك [لايؤتون الناس نقيرا] أى : شيئا ، ولا قليلا . وهذا وصف لهم ، بشدة البخل ، على تقدير وجود ملكهم ، المشارك لملك الله .

وأخرج هذا ، مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره ، عند كل أحد .

* [أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله] أى : هل الحامل لهم على قولهم ، كونهم شركاء لله ، فيفضلون من شاءوا ؟ أم الحامل لهم على ذلك ، الحسد للرسول وللمؤمنين ، على ما آتاهم الله من فضله ؟

وذلك ليس ببدع ولا غريب ، على فضل الله .

[فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما] وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة ، والكتاب ، والملك الذى أعطاه من أعطاه ، من أنبيائه كـ « داود » و « سليمان » .

سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ

فإنعامه لم يزل مستمراً ، على عباده المؤمنين .

فكيف ينكرون إنعامه ، بالنبوة ، والنصر ، والملك ، لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أفضل الخلق ، وأجلهم ، وأعظمهم معرفة بالله ، وأخشاهم له ؟!!

[فمنهم من آمن به] أى . بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فنال بذلك السعادة الدنيوية ، والفلاح الأخروى .

[ومنهم من صد عنه] عناداً ، وبغيا ، وصدا ، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ، ما هو بعض آثار معاصيهم .

[وكفى بجهنم سعيرا] تسعر على من كفر بالله ، وجحد نبوة أنبيائه ، من اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ، من أصناف الكفرة .

* ولهذا قال : [إن الذين كفروا بآياتنا ، سوف نصليهم ناراً] أى : عظيمة الوقود ، شديدة الحرارة .

[كلما انضجت جلودهم [1]] أى : احترقت [بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب] أى : ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ .

---

(١) خص الجلود ، لأنها موضع الإحساس بالألم كما ثبت ذلك بالطب .

جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

ولما تكرر منهم الكفر والعناد ، وصار وصفا لهم وسجية ؛ كرر ، عليهم العذاب جزاء وفاقا . ولهذا قال : [إن الله كان عزيزا حكيما] أى : له العزة العظيمة ، والحكمة فى خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه .

[والذين آمنوا] أى بالله ، وما أوجب الإيمان به [وعملوا الصالحات] من الواجبات والمستحبات [سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها أزواج مطهرة] أى : من الأخلاق الرذيلة ، والخلق الذميم ، ومما يكون من نساء الدنيا ، من كل دنس وعيب (وندخلهم ظلا ظليلا) أى : دائم الظل .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

* الأمانات ، كل ما ائتمن عليه الإنسان ، وأمر بالقيام به .

فأمر الله عباده بأدائها أى : كاملة موفرة ، لا منقوصة ولا مبخوسة ، ولا ممطولا بها .

ويدخل فى ذلك ، أمانات الولايات والأموال ،والأسرار ؛ والمأمورات التى لا يطلع عليها إلا الله .

وقد ذكر الفقهاء ، أن من ائتمن أمانة ؛ وجب عليه حفظها ، فى حرز مثلها .

قالوا : لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها ؛ فوجب ذلك .

وفى قوله تعالى (إلى أهلها) دلالة على أنها ، لا تدفع ، وتؤدى ، لغير المؤتمن ، ووكيله بمنزلته ؛ فلو دفعها لغير ربها ، لم يكن مؤديا لها .

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وهذا يشمل الحكم بينهم فى الدماء ، والأموال ، والأعراض ، القليل من ذلك ، والكثير ، على القريب ، والبعيد ، والفاجر ، والولى ، والعدو .

والمراد بالعدل الذى أمر الله بالحكم به ، هو ماشرعه الله على لسان رسوله ، من الحدود والأحكام ، وهذا يستلزم معرفة العدل ، ليحكم به .

ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة ، قال :

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيراً) وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيه لاشتمالها على مصالح الدارين ، ودفع مضارها ، لأن شارعها السميع البصير، الذى لاتخفى عليه خافية ، ويعلم من مصالح العباد ، مالا يعلمون .

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله ، وذلك بامتثال أمرها ، الواجب والمستحب ، واجتناب نهيهما .

وأمر بطاعة أولى الأمر ، وهم : الولاة على الناس ، من الأمراء ، والحكام، والمفتين ، فإنه لايستقيم للناس ، أمر دينهم ودنياهم ، إلا بطاعتهم والانقياد لهم ، طاعة لله ، ورغبة فيما عنده .

ولكن بشرط ، أن لا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك ، فلاطاعة لمخلوق ، فى معصية الخالق .

ولعل هذا هو السر فى حذف الفعل ، عند الأمر بطاعتهم ، وذكره مع طاعة الرسول .

فإن الرسول ، لا يأمر إلا بطاعة الله ، ومن يطعه ، فقد أطاع الله .

وأما أولو الأمر ، فشرط الأمر بطاعتهم ، أن لايكون معصية .

ثم أمر برد كل ماتنازع الناس فيه ؛ من أصول الدين وفروعه ، إلى الله والرسول ، أى : إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فإن فيهما الفصل فى جميع المسائل الخلافية ، إما بصريحهما ، أو عمومهما ؛ أو إيماء ، أو تنبيه ، أو مفهوم ، أو عموم معنى ، يقاس عليه ما أشبهه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ

لأن كتاب الله وسنة رسوله ، عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما .

فالرد إليهما ، شرط فى الإيمان ، فلهذا قال : (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .

فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة ، بل مؤمن بالطاغوت ، كما ذكر فى الآية بعدها .

[ذلك] أى : الرد إلى الله ورسوله [خير وأحسن تأويلا] فإن حكم الله ورسوله ، أحسن الأحكام وأعدلها ، وأصلحها للناس ، فى أمر دينهم ، ودنياهم ، وعاقبتهم .

* يعجب تعالى عباده ، من حالة المنافقين .

[الذين يزعمون أنهم آمنوا] بما جاء به الرسول وبما قبله .

ومع هذا [يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت] وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت .

والحال أنهم [قد أمروا أن يكفروا به] فكيف يجتمع هذا والإيمان؟.

فإن الإيمان يقتضى الانقياد لشرع الله وتحكيمه، فى كل أمر من الأمور .

فمن زعم أنه مؤمن ، واختار حكم الطاغوت على حكم الله ، فهو كاذب فى ذلك .

رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

وهذا من إضلال الشيطان إياهم ، ولهذا قال :

[ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً] عن الحق .

[فكيف] يكون حال هؤلاء الضالين [إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم] من المعاصى ، ومنها تحكيم الطاغوت ؟! .

[ثم جاءوك] معتذرين لما صدر منهم ، و[يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً] أى : ما قصدنا فى ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم ، وهم كذبة فى ذلك .

فإن الإحسان ، تحكيم الله ورسوله .

ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

ولهذا قال :

[أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم] أى : من النفاق والقصد السيء .

[فأعرض عنهم] أى : لاتبال بهم ولا تقابلهم على مافعلوه واقترفوه .

[وعظهم] أى : بين لهم حكم الله تعالى ، مع الترغيب فىالانقياد لله ، والترهيب من تركه .

[وقل لهم فىأنفسهم قولا بليغاً] أى : انصحهم سراً ، بينك وبينهم ،

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

فإنه أنجح لحصول المقصود ، وبالغ فى زجرهم وقمعهم ، عما كانوا عليه .

وفى هذا دليل على أن مقترف المعاصى ، وإن أعرض عنه ، فإنه ينصح سراً ، ويبالغ فى وعظه ، بما يظن حصول المقصود به .

* يخبر تعالى خبراً ، فى ضمنه الأمر ، والحث على طاعة الرسول ، والانقياد له .

وأن الغاية من إرسال الرسل ، أن يكونوا مطاعين ، ينقاد لهم المرسل إليهم فى جميع ما أمروا به ، ونهوا عنه ، وأن يكونوا معظمين ، تعظيم المطاع من المطيع .

وفى هذا إثبات عصمة الرسل ، فيما يبلغونه عن الله ، وفيما يأمرون به وينهون عنه .

لأن الله ، أمر بطاعتهم مطلقاً ، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ ، لما أمر بذلك مطلقاً .

وقوله : [بإذن الله] أي : الطاعة من المطيع ، صادرة بقضاء الله وقدره .

ففيه إثبات القضاء والقدر ، والحث على الاستعانة بالله ، وبيان أنه لا يمكن الإنسان — إن لم يعنه الله — أن يطيع الرسول .

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده ، ودعوته لمن اقترفوا السيئات — أن يعترفوا ويتوبوا ، ويستغفروا الله فقال :

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك] أى : معترفين بذنوبهم ، باخعين بها .

[فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما] أى لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم ، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها ، والثواب عليها.

وهذا المجيء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مختص بحياته ، لأن السياق يدل على ذلك ، لكون الاستغفار من الرسول ، لايكون إلافى حياته.

وأما بعد موته ، فإنه لا يطلب منه شيء ، بل ذلك شرك .

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة ، أنهم لا يؤمنون ، حتى يحكموا رسوله ، فيما شجر بينهم أى : فى كل شيء يحصل فيه اختلاف .

بخلاف مسائل الإجماع ، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة.

ثم لا يكفى هذا التحكيم ، حتى ينتفى الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض .

ثم لا يكفى هذا التحكيم ، حتى يسلموا لحكمه تسليما ، بانشراح صدر ، وطمأنينة نفس ، وانقياد بالظاهر والباطن .

فالتحكيم ، فى مقام الإسلام ، وانتفاء الحرج ، فى مقام الإيمان ، والتسليم فى مقام الإحسان .

فمن استكمل هذه المراتب ، وكملها ، فقد استكمل مراتب الدين كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

ومن ترك هذا التحكيم المذكور ، غير ملتزم له ، فهو كافر .

ومن تركه — مع التزامه — فله حكم أمثاله من العاصين .

* يخبر تعالى ، أنه لو كتب على عباده ، الأوامر الشاقة على النفوس ، من قتل النفوس ، والخروج من الديار ، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر .

فليحمدوا ربهم ، وليشكروه ، على تيسير ما أمرهم به ، من الأوامر التى تسهل على كل أحد ، ولا يشق فعلها .

وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى ، أن يلحظ العبد ، ضد ما هو فيه ، من المكروهات ، لتخف عليه العبادات ، ويزداد حمداً وشكراً لربه .

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به ، أى : ما وظف عليهم ، فى كل وقت بحسبه ، فبذلوا هممهم ، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله ، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه ، ولم يكونوا بصدده ، وهذا هو الذي ينبغى للعبد ، أن ينظر إلى الحالة التى يلزمه القيام بها ، فيكملها ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً ، حتى يصل إلى ما قدر له ، من العلم والعمل ، فى أمر الدين والدنيا .

وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ، ولم يؤمر به بعد ، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة ، وحصول الكسل ، وعدم النشاط .

ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به ، وهو أربعة أمور :

(أحدها) الخيرية فى قوله [لكان خيراً لهم] أى : لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم ، من أفعال الخير ، التى أمروا بها .

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

أى : وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار ، لأن ثبوت الشيء ، يستلزم نفي ضده .

(الثاني) حصول التثبيت والثبات وزيادته ، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان ، الذى هو القيام بما وعظوا به .

فيثبتهم فى الحياة الدنيا ، عند ورود الفتن فى الأوامر ، والنواهى ، والمصائب .

فيحصل لهم ثبات ، يوفقون به لفعل الأوامر ، وترك الزواجر ، التى تقتضى النفس فعلها ، وعند حلول المصائب ، التى يكرهها العبد .

فيوفق للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا ، أو الشكر .

فينزل عليه معونة من الله ، للقيام بذلك ، ويحصل له الثبات على الدين ، عند الموت وفى القبر .

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به ، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية ، حتى يألفها ، ويشتاق إليها وإلى أمثالها ، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات .

* (الثالث) قوله [وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما] أى فى العاجل والآجل ، الذى يكون للروح والقلب ، والبدن ، ومن النعيم المقيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم .

وهذا عموم بعد خصوص ، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم ، من كونها

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

متضمنة للعلم بالحق ، ومحبته وإيثاره به ، والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح، على ذلك .

فمن هدى إلى صراط مستقيم ، فقد وفق لكل خير ، واندفع عنه ، كل شر وضير .

* أى : كل من أطاع الله ورسوله — على حسب حاله ، وقدر الواجب عليه ، من ذكر وأنثى وصغير وكبير .

[فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم] أى : النعمة العظيمة التى تقتضى الكمال والفلاح ، والسعادة

[من النبيين] الذين فضلهم الله بوحيه ، واختصهم بتفضيلهم، بإرسالهم إلى الخلق ، ودعوتهم إلى الله تعالى .

[والصديقين] وهم : الذين كمل تصديقهم ، بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق،وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به ، قولا ، وعملا،وحالا ، ودعوة إلى الله .

[والشهداء] الذين قاتلوا فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فقتلوا .

[والصالحين] الذين صلح ظاهرهم وباطنهم ، فصلحت أعمالهم .

فكل من أطاع الله تعالى ، كان مع هؤلاء فى صحبتهم .

[وحسن أولئك رفيقاً] بالاجتماع بهم ، فى جنات النعيم ، والإنس بقربهم ، فى جوار رب العالمين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ

[ذلك الفضل] الذى نالوه [من الله] .

فهو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه ، وأعطاهم من الثواب ، مالا تبلغه أعمالهم .

[وكفى بالله عليما] ، يعلم أحوال عباده ، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل ، بما قام به ، من الأعمال الصالحة ، التى تواطأ عليها القلب والجوارح.

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين .

وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب ،التي بها يستعان على قتالهم، ويستدفع مكرهم وقوتهم ، من استعمال الحصون والخنادق ، وتعلم الرمى والركوب ، وتعلم الصناعات التى تعين على ذلك ، وما به يعرف مداخلهم ، ومخارجهم ، ومكرهم ، والنفير فى سبيل الله .

ولهذا قال : [فانفروا ثبات] أى : متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش ويقيم غيرهم [أو انفروا جميعاً] .

وكل هذا ، تبع للمصلحة ، والنكاية ، والراحة للمسلمين فى دينهم .

وهذه الآية نظير قوله تعالى [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة] .

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال :

[وإن منكم] أي أيها المؤمنين [لمن ليبطئن] أى يتثاقل عن الجهاد فى سبيل الله ، ضعفاً ، وخوراً ، وجبناً . هذا هو الصحيح .

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى

وقيل معناه : ليبطئن غيره ، أى يزهده عن القتال ، وهؤلاء ، هم المنافقون

ولكن الأول أولى ، لوجهين :

أحدهما قوله [منكم] والخطاب للمؤمنين .

والثانى : قوله فى آخر الآية : [كأن لم تكن بينكم وبينه مودة] .

فإن الكفار ، من المشركين ، والمنافقين ، قد قطع الله بينهم ، وبين المؤمنين المودة .

وأيضاً ، فإن هذا ، هو الواقع ، فإن المؤمنين على قسمين :

صادقون فى إيمانهم ، أوجب لهم ذلك ، كمال التصديق والجهاد .

وضعفاء ، دخلوا فى الإسلام ، فصار معهم إيمان ضعيف ، لا يقوى على الجهاد .

كما قال تعالى [قالت الأعراب آمنا قل : لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين ، ونهاية مقاصدهم ، وأن معظم قصدهم ، الدنيا وحطامها فقال :

[فإن أصابتكم مصيبة] أى : هزيمة ، وقتل ، وظفر الأعداء عليكم فى بعض الأحوال ، لما لله فى ذلك من الحكم .

[قال] ذلك المتخلف [قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيداً] .

كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

رأى — من ضعف عقله وإيمانه — أن التقاعد عن الجهاد — الذى فيه تلك المصيبة — نعمة .

ولم يدر أن النعمة الحقيقية ، هى التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة ، التى بها يقوى الإيمان ، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران ، ويحصل له فيها ، عظيم الثواب ، ورضا الكريم الوهاب .

وأما القعود ، فإنه ، وإن استراح قليلا ، فإنه يعقبه تعب طويل ، وآلام عظيمة ، ويفوته ما يحصل للمجاهدين (أى من الأجر العظيم) .

ثم قال [ولئن أصابكم فضل من الله] أى : نصر وغنيمة .

ما يحصل للمجاهدين .

ثم قال [ولئن أصابكم فضل من الله] أي : نصر وغنيمة [ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما] .

أى : يتمنى أنه حاضر ، لينال من المغانم . ليس له رغبة ، ولا قصد ، فى غير ذلك .

كأنه ليس منكم ، يامعشر المؤمنين ـ ولا بينكم ، وبينه المودة الإيمانية ، التى من مقتضاها ، أن المؤمنين مشتركون فى جميع مصالحهم ، ودفع مضارهم ، يفرحون بحصولها ، ولو على يد غيرهم ، من إخوانهم المؤمنين ، ويألمون بفقدها ، ويسعون جميعاً ، فى كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم .

فهذا الذى يتمنى الدنيا فقط ، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة .

ومن لطف الله بعباده ، أن لا يقطع عنهم رحمته ، ولا يغلق عنهم أبوابها .

يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

بل من حصل على غير ما يليق أمره ، دعاه إلى جبر نقصه، وتكميل نفسه.

فلهذا أمر هؤلاء ، بالإخلاص ، والخروج فى سبيله فقال :

* [فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة] .

هذا أحد الأقوال فى هذه الآية ، وهو أصحها .

وقيل : إن معناه ، فليقاتل فى سبيل الله ، المؤمنون الكاملو الإيمان ، الصادقون فى إيمانهم .

[الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة] أى يبيعون الدنيا ، رغبة عنها بالآخرة ، رغبة فيها .

فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب ، لأنهم، الذين قد أعدوا أنفسهم، ووطنوها على جهاد الأعداء لما معهم من الإيمان التام ، المقتضى لذلك .

وأما أولئك المتثاقلون ، فلا يعبأ بهم ، خرجوا أو قعدوا .

فيكون هذا ، نظير قوله تعالى :

[قل آمنوا به أولا تؤمنوا ، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً] إلى آخر الآيات .

وقوله [فإن يكفر بها هؤلاء ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين] .

وقيل : إن معنى الآية : فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة .

فيكون على هذا الوجه « الذين » فى محل نصب على المفعولية .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

[ومن يقاتل فى سبيل الله] بأن يكون جهاداً ، قد أمر الله به ورسوله ، ويكون العبد مخلصاً لله فيه ، قاصداً وجه الله .

[فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما] زيادة فى إيمانه ودينه ، وغنيمة ، وثناء حسناً ، وثواب المجاهدين فى سبيل الله الذين أعد الله لهم فى الجنة ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

* هذا حث من الله لعباده المؤمنين ، وتهييج لهم على القتال فى سبيله وأن ذلك ، قد تعين عليهم ، وتوجه اللوم العظيم عليهم ، بتركه فقال :

[وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله] والحال أن المستضعفين من الرجال، والنساء ، والولدان ، الذين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا ومع هذا ، فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم .

فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم ، بالكفر ، والشرك ، وللمؤمنين بالأذى ، والصد عن سبيل الله ، ومنعهم من الدعوة لدينهم ، والهجرة .

ويدعون الله ، أن يجعل لهم ولياً ونصيراً ، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

فصار جهادكم على هذا الوجه ، من باب القتال ، والذب عن عيلاتكم[1] وأولادكم ، ومحارمكم ، لأن باب الجهاد ، الذى هو الطمع فى الكفار فإنه ، وإن كان فيه فضل عظيم ، ويلام المتخلف عنه أعظم اللوم .

فالجهاد الذى فيه استنقاذ المستضعفين منكم، أعظم أجراً ، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء .

ثم قال [الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله] الآية .

* هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون فى سبيله [والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت] الذى هو الشيطان .

فى ضمن ذلك عدة فوائد :

منها : أنه بحسب إيمان العبد ، يكون جهاده فى سبيل الله ، وإخلاصه ، ومتابعته .

فالجهاد فى سبيل الله ، من آثار الإيمان ، ومقتضياته ولوازمه .

كما أن القتال فى سبيل الطاغوت ، من شعب الكفر ومقتضياته .

ومنها : أن الذى يقاتل فى سبيل الله ، ينبغى له ، ويحسن منه ، من الصبر والجلد ، مالا يقوم به غيره .

---

(١) قوله (عيلاتكم) معناه الدفاع عن نسائكم وأطفالكم والمحافظة عليهم بأن لا يتعرضوا للوقوع فى أيدى الأعداء .

. . . .

فإذا كان أولياء الشيطان ، يصبرون، ويقاتلون ، وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك ، كما قال تعالى فى هذا المعنى :

[إن تـكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون] الآية .

ومنها أن الذى يقاتل فى سبيل الله ، معتمداً على ركن وثيق ، وهو الحق ، والتوكل على الله .

فصاحب القوة ، والركن ، يطلب منه ، من الصبر والثبات ، والنشاط مالا يطلب ممن يقاتل ، عن الباطل ، الذى لاحقيقة له ، ولاعاقبة حميدة . فلهذا قال تعالى :

(فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) .

والـكيد : سلوك الطرق الخفية ، الذى فيه إلحاق الضرر بالعدو .

فالشيطان ، وإن بلغ مكره مهما بلغ ، فإنه فى غاية الضعف ، الذى لايقوم لأدنى شىء من الحق ، ولا لـكيد الله لعباده المؤمنين .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

---

* كان المسلمون — إذ كانوا بمكه — مأمورين بالصلاة والزكاة ، أى : مواساة الفقراء ، لا الزكاة المعروفة ، ذات النصب والشروط ، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة ، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء ، لعدة فوائد :

منها : أن من حكمة البارى تعالى ، أن يشرع لعباده ، الشرائع ، على وجه لايشق عليهم ؛ ويبدأ بالأهم ، والأسهل فالأسهل .

ومنها : أنه لو فرض عليهم القتال — مع قلة عددهم وعددهم ، وكثرة أعدائهم — لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام .

فروعى جانب المصلحة العظمى ، على ما دونها ، ولغير ذلك من الحكم .

وكان بعض المؤمنين ، يودون أن لو فرض عليهم القتال فى تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك .

وإنما اللائق فيها ، القيام بما أمروا به فى ذلك الوقت ، من التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ونحو ذلك كما قال تعالى :

[ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا] .

فلما هاجروا إلى المدينة ، وقوى الإسلام ، كتب عليهم القتال ، فى وقته المناسب لذلك .

فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك ، خوفا من الناس ، وضعفا وخورا : [ربنا لم كتبت علينا القتال ؟] .

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ

وفى هذا تضجرهم ، واعتراضهم على الله .

وكان الذى ينبغى لهم ، ضد هذه الحال — التسليم لأمر الله ، والصبر على أوامره .

فعكسوا الأمر المطلوب منهم ، فقالوا [لولا أخرتنا إلى أجل قريب]

أى : هلا أخرت فرض القتال ، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر .

وهذه الحال ، كثيرا ما تعرض لمن هو غير رزين ، واستعجل فى الأمور قبل وقتها .

فالغالب عليه ، أنه لايصبر عليها وقت حلولها ، ولا ينوء بحملها ، بل يكون قليل الصبر .

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال ، التى فيها التخلف عن القتال فقال :

[قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى] أى : التمتع بلذات الدنيا وراحتها ، قليل .

فتحمل الأثقال فى طاعة الله ، فى المدة القصيرة ، مما يسهل على النفوس ويخف عليها .

لأنها ، إذا علمت أن المشقة التى تنالها ، لايطول لبثها ، هان عليها ذلك .

فكيف إذا وازنت بين الدنيا والآخرة ، وأن الآخرة خير منها ، فى ذاتها ، ولذاتها ، وزمانها .

وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

فذاتها ـ كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثابت عنه ـ « أن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » .

ولذاتها ، صافية عن المكدرات ، بل كل ماخطر بالبال ، أو دار فى الفكر ، من تصور لذة ـ فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى .

[فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين] .

وقال الله على لسان نبيه « أعددت لعبادى الصالحين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وأما لذات الدنيا ، فإنها مشوبة بأنواع التنغيص ، الذى لو قوبل بين لذاتها ، وما يقترن بها من أنواع الآلام ، والهموم والغموم ، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه .

وأما زمانها ، فإن الدنيا منقضية ، وعمر الإنسان ـ بالنسبة إلى الدنيا ـ شىء يسير .

وأما الآخرة ، فإنها دائمة النعيم ، وأهلها خالدون فيها .

فإذا فكر العاقل فى هاتين الدارين ، وتصور حقيقتهما حق التصور ، عرف ماهو أحق بالإيثار ، والسعى له ، والاجتهاد لطلبه ، ولهذا قال :

[والآخرة خير لمن اتقى] أى : اتقى الشرك ، وسائر المحرمات .

[ولا تظلمون فتيلا] أى : فسعيكم للدار الآخرة ، ستجدونه كاملا موفرا ، غير منقوص منه شيئا .

۞ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ

---

* ثم أخبر أنه لايغنى حذر عن قدر ، وأن القاعد لايدفع عنه قعوده شيئا فقال :

[أينما تكونوا يدرككم الموت] أى : فى أى زمان ، وأى مكان .

[ولو كنتم فى بروج مشيدة] أى : قصور منيعة ، ومنازل رفيعة .

وكل هــذا حث على الجهاد فى سبيل الله ، تارة بالترغيب فى فضله وثوابه . وتارة بالترهيب من عقوبة تركه ، وتارة بالإخبار أنه لاينفع القاعدين قعودهم ، وتارة بتسهيل الطريق فى ذلك ، وقصرها .

ثم قال [وإن تصبهم حسنة] الآية .

يخبر تعالى ، عن الذين لايعلمون ، المعرضين عما جاءت به الرسل ، المعارضين لهم : أنهم إذا جاءتهم حسنة ، أى : خصب وكثرة أموال ، وتوفر أولاد وصحة ، قالوا .

[هذه من عند الله] وأنهم ، إن أصابتهم سيئة أى : جدب ، وفقر ، ومرض ، وموت أولاد وأحباب قالوا :

[هذه من عندك] أى : بسبب ما جئتنا به يامحمد .

تطيروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تطير أمثالهم برسل الله ، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم [إذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه] .

وقال قوم صالح [اطيرنا بك وبمن معك] .

ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

وقال قوم ياسين لرسلهم [إنا تطيرنا بكم ،لئن لم تنتهوا لنرجمنكم] الآية.

فلما تشابهت قلوبهم بالكفر ، تشابهت أقوالهم وأفعالهم .

وهكذا كل من نسب حصول الشر ، أو زوال الخير ، لما جاءت به الرسل أو لبعضه ، فهو داخل فى هذا الذم الوخيم .

قال الله فى جوابهم [قل كل] أى من الحسنة والسيئة ، والخير والشر .

[من عند الله] أى : بقضائه وقدره ، وخلقه .

[فما لهؤلاء القوم] أى : الصادر منهم تلك المقالة الباطلة .

[لا يكادون يفقهون حديثاً] أى: لا يفهمون حديثاً بالكلية ، ولا يقربون من فهمه ، أو لا يفهمون منه ، إلا فهما ضعيفا .

وعلى كل ، فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله ، وعن رسوله ، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم .

وفى ضمن ذلك ، مدح من يفهم عن الله وعن رسوله ، والحث على ذلك ، وعلى الأسباب المعينة على ذلك ، من الإقبال على كلامهما وتدبره ، وسلوك الطرق الموصلة إليه .

فلو فقهوا عن الله، لعلموا أن الخير والشر ، والحسنات والسيئات ، كلها بقضاء الله وقدره ، لايخرج منها شىء عن ذلك .

وأن الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، لا يكونون سببا لشر يحدث ، لاهم ، ولا ما جاءوا به ، لأنهم بعثوا بمصالح الدنيا والآخرة والدين .

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

---

* ثم قال تعالى [ما أصابك من حسنة] أى : فى الدين والدنيا [فمن الله] هو الذى منّ بها ويسرها بتيسير أسبابها .

[وما أصابك من سيئة] فى الدين والدنيا (فمن نفسك) أى : بذنوبك وكسبك ، وما يعفو الله عنه أكثر .

فالله تعالى ، قد فتح لعباده أبواب إحسانه ، وأمرهم بالدخول لبره وفضله ، وأخبرهم أن المعاصى مانعة من فضله .

فإذا فعلها العبد ، فلا يلومن إلا نفسه ، فإنه المانع لنفسه ، عن وصول فضل الله وبره .

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال :

[وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً] على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره ، والمعجزات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، فهى أكبر شهادة على الإطلاق .

كما قال تعالى : [قل أى شىء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم] .

فإذا علم أن الله تعالى ، كامل العلم ، وتام القدرة ، عظيم الحكمة ، وقد أيد الله رسوله بما أيده ، ونصره نصراً عظيما ، تيقن بذلك ، أنه رسول الله .

وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل ، لأخذ منه باليمين ، ثم لقطع منه الوتين .

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ

---

* أى : كل من أطاع رسول الله فى أوامره ونواهيه (فقد أطاع الله) تعالى ، لكونه لا يأمر ولا ينهى ، إلا بأمر الله ، وشرعه ، ووحيه وتنزيله.

وفى هذا عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله أمر بطاعته مطلقاً .

فلولا أنه معصوم فى كل ما يبلغ عن الله ، لم يأمر بطاعته مطلقاً ، ويمدح على ذلك .

وهذا من الحقوق المشتركة ، فإن الحقوق ثلاثة :

حق الله تعالى ، لايكون لأحد من الخلق ، وهو عبادة الله ، والرغبة إليه ، وتوابع ذلك .

وقسم مختص بالرسول ، وهو التعزيز ، والتوقير ، والنصرة .

وقسم مشترك ، وهو الإيمان بالله ورسوله ، ومحبتهما وطاعتهما .

كما جمع الله بين هذه الحقوق فى قوله [لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا] .

فمن أطاع الرسول ، فقد أطاع الله ، وله من الثواب والخير ، مارتب على طاعة الله .

[ومن تولى] عن طاعة الله ورسوله ، فإنه لايضر إلا نفسه ، ولايضر الله شيئاً .

[فما أرسلناك عليهم حفيظا] أى : تحفظ أعمالهم ، وأحوالهم ، بل أرسلناك مبلغاً ومبيناً وناصحاً .

بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

وقد أديت وظيفتك ، ووجب أجرك على الله ، سواء اهتـدوا ، أم لم يهتدوا .

كما قال تعالى [فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر] الآية .

ولابد أن تكون طاعة الله ورسوله ، ظاهراً وباطناً ، فى الحضرة والمغيب .

فأما من يظهر فى الحضرة ، الطاعة والالتزام ، فإذا خلا بنفسه ، أو أبناء جنسه ، ترك الطاعة ، وأقبل على ضدها ، فإن الطاعة التى أظهرها ، غير نافعة ولا مفيدة ، وقد أشبه من قال الله فيهم :

[يقولون طاعة] أى : يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك .

[فإذا برزوا من عندك] أى : خرجوا ، وخلوا فى حالة لايطلع فيها عليهم .

[بيت طائفة منهم غير الذى تقول] أى : بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثم إلا المعصية .

وفى قوله [بيت طائفة منهم غير الذى تقول] دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه ، غير الطاعة ، لأن التبييت ، تدبير الأمر ليلا ، على وجه يستقر عليه الرأى .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

[والله يكتب ما يبيتون] أى : يحفظه عليهم ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء ، ففيه وعيد لهم .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

ثم أمر رسوله ، بمقابلتهم بالإعراض ، وعدم التعنيف ، فإنهم لا يضرونه شيئاً ، إذا توكل على الله ، واستعان به ، فى نصر دينه ، وإقامة شرعه .

ولهذا قال [فأعرض عنهم وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا] .

* يأمر تعالى بتدبر كتابه ، وهو : التأمل فى معانيه ، وتحديق الفكر فيه ، وفى مبادئه وعواقبه ، ولوازم ذلك .

فإن فى تدبر كتاب الله مفتاحا للعلوم والمعارف ، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم .

وبه يزداد الإيمان فى القلب ، وترسخ شجرته .

فإنه يعرف بالرب المعبود ، وماله من صفات الكمال ؛ وماينزه عنه من سمات النقص .

ويعرف الطريق الموصلة إليه ، وصفة أهلها ، وما لهم عند القدوم عليه .

ويعرف العدو ، الذى هو العدو على الحقيقة ؛ والطريق الموصلة إلى العذاب ؛ وصفة أهلها ؛ ومالهم عند وجود أسباب العقاب .

وكلما ازداد العبد تأملا فيه ، ازداد علما ، وعملا ، وبصيرة .

ولذلك أمر الله بذلك ، وحث عليه ، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن ، كما قال تعالى :

[كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب] .

۞ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

وقال تعالى [أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها] .

ومن فوائد التدبر لكتاب الله : أنه بذلك ، يصل العبد إلى درجة اليقين ، والعلم بأنه كلام الله ، لأنه يراه ، يصدق بعضه بعضاً ، ويوافق بعضه بعضاً .

فترى الحكم والقصة والأخبار ، تعاد فى القرآن ؛ فى عدة مواضع ، كلها متوافقة متصادقة ، لا ينقض بعضها بعضاً .

فبذلك يعلم كمال القرآن ، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور .

فلذلك قال تعالى [ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً] .

أى : فلما كان من عند الله ؛ لم يكن فيه اختلاف أصلا .

* هذا تأديب من الله لعباده ، عن فعلهم هذا ، غير اللائق .

وأنه ينبغى لهم ، إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة ، والمصالح العامة ، ما يتعلق بالأمن ، وسرور المؤمنين ، أو بالخوف الذى فيه مصيبة عليهم ، أن يتثبتوا ، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر .

بل يردونه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم ، أهل الرأى ، والعلم والنصح ، والعقل ، والرزانة ، الذين يعرفون الأمور ، ويعرفون المصالح وضدها .

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

فإن رأوا فى إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين ، وسرورا لهم ، وتحرزا من أعدائهم ، فعلوا ذلك .

وإن رأوا مافيه مصلحة ، أو فيه مصلحة ، ولكن مضرته تزيد على مصلحته ، لم يذيعوه .

ولهذا قال [لعلمه الذين يستنبطونه منهم] أى : يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة ، وعلومهم الرشيدة .

وفى هذا دليل لقاعدة أدبية ، وهى أنه إذا حصل بحث فى أمر من الأمور ، ينبغى أن يولى من هو أهل لذلك ، ويجعل إلى أهله ، ولا يتقدم بين أيديهم ، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ .

وفيه النهى عن العجلة والتسرع ، لنشر الأمور ، من حين سماعها .

والأمر بالتأمل قبل الكلام ، والنظر فيه ، هل هو مصلحة ، فيقدم عليه الإنسان ، أم لا ؟ فيحجم عنه ؟

ثم قال تعالى : [ولولا فضل الله عليكم ورحمته] أى فى توفيقكم ، وتأديبكم ، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون .

[لاتبعتم الشيطان إلا قليلا] لأن الإنسان بطبعه ، ظالم جاهل ، فلا تأمره نفسه إلا بالشر .

فإذا لجأ إلى ربه ، واعتصم به ، واجتهد فى ذلك ، لطف به ربه ، ووفقه لكل خير ، وعصمه من الشيطان الرجيم .

﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

---

* هذه الحالة، أفضل أحوال العبد، أن يجتهد فى نفسه على امتثال أمر الله، من الجهاد وغيره، ويحرض غيره عليه.

وقد يعدم فى العبد، الأمران أو أحدهما، فلهذا قال لرسوله:

[فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك] أى: ليس لك قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

[وحرض المؤمنين] على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين، وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب.

فهذا وأمثاله، كله يدخل فى التحريض على القتال.

[عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا] أى: بقتالكم فى سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً.

[والله أشد بأساً] أى: قوة وعزة [وأشد تنكيلا] بالمذنب فى نفسه، وتنكيلا لغيره، فلو شاء تعالى، لانتصر من الكفار بقوته، ولم يجعل لهم باقية.

ولكن – من حكمته – يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهر، الذى لا يفيد شيئاً.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

---

* المراد بالشفاعة هنا : المعاونة على أمر من الأمور .

فمن شفع غيره ، وقام معه على أمر من أمور الخير ــ ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم ــ كان له نصيب من شفاعته ، بحسب سعيه وعمله ، ونفعه ، ولا ينقص من أجر الأصيل أو المباشر ، شيء .

ومن عاون غيره على أمر من الشر ، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه .

ففي هذا ، الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى ، ، والزجر العظيم ، عن التعاون على الإثم والعدوان .

وقرر ذلك بقوله :

[وكان الله على كل شيء مقيتاً] أي : شاهداً حفيظاً ، حسيباً على هذه الأعمال ، فيجازى كلا ، ما يستحقه .

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

* التحية هى : اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين ، على وجه الإكرام والدعاء ، وما يقترن بذلك اللفظ ، من البشاشة ونحوها .

وأعلى أنواع التحية ، ما ورد به الشرع ، من السلام ابتداء ورداً .

فأمر تعالى ، المؤمنين أنهم ، إذا حيوا بأى تحية كانت ، أن يردوها بأحسن منها ، لفظاً ، وبشاشة ، أو مثلها فى ذلك .

ومفهوم ذلك ، النهى عن عدم الرد بالكلية ، أو ردها بدونها .

ويؤخذ من الآية الكريمة ، الحث على ابتداء السلام والتحية ، من وجهين :

أحدهما : أن الله أمر بردها ، بأحسن منها ، أو مثلها ، وذلك يستلزم أن التحية ، مطلوبة شرعاً .

والثانى : ما يستفاد من أفعل التفضيل ، وهو « أحسن » الدال على مشاركة التحية وردها ، بالحسن ، كما هو الأصل فى ذلك .

ويستثنى من عموم الآية الكريمة ، من حيا بحال غير مأمور بها ، كـ « على مشتغل بقراءة ، أو استماع خطبة ، أو مصل ونحو ذلك» فإنه لايطلب إجابة تحيته .

وكذلك يستثنى من ذلك ، من أمر الشارع بهجره ، وعدم تحيته ، وهو العاصى غير التائب ، الذى يرتدع بالهجر ، فإنه يهجر ، ولا يحيا ، ولا ترد تحيته ، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

ويدخل فى رد التحية ، كل تحية اعتادها النـاس ، وهى غير محظورة شرعا ، فإنه مأمور بردها وبأحسن منها .

ثم وعد تعالى وتوعد ، على فعل الحسنات والسيئات بقوله [إن الله كان على كل شىء حسيباً] فيحفظ على العباد ، أعمالهم ،حسنها ،وسيئها،صغيرها ، وكبيرها ، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله ، وحكمه المحمود .

* يخبر تعالى ، عن انفراده بالوحدانية ، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو ، لـكماله فى ذاته وأوصافه ، ولـكونه المنفرد بالخلق والتدبير ، والنعم الظاهرة والباطنة .

وذلك يستلزم الأمر بعبادته ، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية .

لـكونه المستحق لذلك وحده، والمجازى للعباد ، بما قاموا به من عبوديته ، أو تركوه منها .

ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء — وهو يوم القيامة — فقال: [ليجمعنكم] أى : أولـكم وآخركم ، فى مقام واحد .

[إلى يوم القيامة لا ريب فيه] أى : لا شك ولا شبهة ، بوجه من الوجوة ، بالدليل العقلى ، والدليل السمعى .

فالدليل العقلى ، ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها ، ومن وجود النشأة الأولى ، التى وقوع الثانية ، أولى منها بالإمكان .

ومن الحـكمة التى يجزم[1] ، بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً ، يحيون ثم يموتون.

---

(١) قوله (ومن الحـكمة التى يجزم الخ) هكذا فى الأصل المطبوع ، والعبارة قلقة والأوضح أن يقال : (ومن الحـكمة التى يجب على الإنسان أن يجزم به ، أن الله لم يخلق خلقه عبثا الخ) .

وأما الدليل السمعى ، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك ، بل إقسامه عليه ، ولهذا قال :

[ومن أصدق من الله حديثاً] .

كذلك أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم عليه فى غير موضع من القرآن ، كقوله تعالى :

[زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير] .

وفى قوله [ومن أصدق من الله حديثاً] ، [ومن أصدق من الله قيلا] إخبار بأن حديثه وأخباره ، وأقواله فى أعلى مراتب الصدق ، بل أعلاها .

فكل ما قيل فى العقائد والعلوم والأعمال ، مما يناقض ما أخبر الله به ، فهو باطل ، لمناقضته للخبر الصادق اليقين ، فلا يمكن أن يكون حقاً .

﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟

---

* المراد بالمنافقين المذكورين فى هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم .

وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم ، فيهم اشتباه .

فبعضهم تحرج عن قتالهم ، وقطع موالاتهم ، بسبب ما أظهروه من الإيمان .

وبعضهم علم أحوالهم ، بقرائن أفعالهم ، فحكم بكفرهم .

فأخبر عنه تعالى ، أنه لا ينبغى لكم ، أن تشتبهوا فيهم ولا تشكوا .

بل أمرهم واضح غير مشكل ، إنهم منافقون ، قد تكرر كفرهم ، وودوا — مع ذلك — كفركم ، وأن تكونوا مثلهم .

فإذا تحققتم ذلك منهم [فلا تتخذوا منهم أولياء].

وهذا يستلزم عدم محبتهم ، لأن الولاية فرع المحبة .

ويستلزم أيضاً ، بغضهم ، وعداوتهم ، لأن النهى عن الشىء ، أمر بضده .

وهذا الأمر موقت ، بهجرتهم .

فإذا هاجروا ، جرى عليهم ، ما جرى على المسلمين ، كما كان النبي

فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ

صلى الله عليه وسلم يجرى أحكام الإسلام على كل[1] من كان معه ، وهاجر إليه ، سواء كان مؤمنا حقيقة ، أو ظاهر الإيمان .

وأنهم إن لم يهاجروا ، وتولوا عنها [فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم] أى : فى أى وقت ، وأى محل كان .

وهذا من جملة الأدلة الدالة ، على نسخ القتال فى الأشهر الحرم ، كما هو قول جمهور العلماء .

والمنازعون يقولون : هذه نصوص مطلقة ، محمولة على تقييد التحريم فى الأشهر الحرم .

ثم إن الله ، استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ، ثلاث فرق :

فرقتين أمر بتركهم ، وحتم على ذلك .

إحداها ، من يصل إلى قوم ، بينهم وبين المسلمين ، عهد وميثاق بترك القتال ، فينضم إليهم ، فيكون له حكمهم ، فى حقن الدم والمال .

---

(١) فى الأصل (فكل من كان معه وهاجر إليه وسواء الخ) والصواب أن يقال (على كل من كان معه وهاجر إليه سواء الخ) فلذلك صححنا مافي الأصل بحذف الفاء من كلمة (فكل) وحذف الواو من (وسواء) كما ترى لينتظم الكلام ، ، ويتضح المعنى .

يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ
إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ

والفرقة الثانية قوم [حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم].
أي : بقوا ، لا تسمح أنفسهم بقتالكم ، ولا بقتال قومهم ، وأحبوا ترك قتال الفريقين .

فهؤلاء أيضاً ، أمر بتركهم ، وذكر الحكمة في ذلك بقوله :
[ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم] فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:
إما أن يكونوا معكم ، ويقاتلوا أعداءكم . وهذا متعذر من هؤلاء .

فدار الأمر ، بين قتالكم مع قومهم ، وبين ترك قتال الفريقين ، وهو أهون الأمرين عليكم ، والله قادر على تسليطهم عليكم .

فاقبلوا العافية ، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم ، مع التمكن من ذلك .

ف[هؤلاء إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا].

الفرقة الثالثة : قوم يريدون مصلحة أنفسهم ، بقطع النظر عن احترامكم .

وهم الذين قال الله فيهم [ستجدون آخرين] أي : من هؤلاء المنافقين.
[يريدون أن يأمنوكم] أي : خوفا منكم [ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها] أي : لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم .

ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن ، أعماهم ، ونكسهم على رءوسهم ، وازداد كفرهم ونفاقهم .

وهؤلاء فى الصورة — كالفرقة الثانية ، وفى الحقيقة ، مخالفة لها .

فإن الفرقة الثانية ، تركوا قتال المؤمنين ، احتراما لهم ، لا خوفا على أنفسهم .

وأما هذه الفرقة ، فتركوه خوفا ، لا احتراما .

بل لو وجدوا فرصة فى قتال المؤمنين ، فإنهم سيقدمون لانتهازها .

فهؤلاء إن لم يتبين منهم ، ويتضح اتضاحا عظيما ، اعتزال المؤمنين وترك قتالهم ، فإنهم يقاتلون .

ولهذا قال [فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم] أى المسالمةوالموادعة .

[ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا] أى : حجة بينة واضحة ، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة ، فلا يلوموا إلا أنفسهم .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن

---

* وهذه الصيغة من صيغ الامتناع .

أي : يمتنع ويستحيل ، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن أى : متعمداً .

وفىهذا ، الإخبار بشدة تحريمه ، وأنه مناف للإيمان ، أشد منافاة .

وإنما يصدر ذلك ، إما من كافر ، أو من فاسق ، قد نقص إيمانه نقصاً عظيما ، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك .

فإن الإيمان الصحيح ، يمنع المؤمن من قتل أخيه، الذى قد عقد الله بينه وبينه ، الأخوة الإيمانية ، التى من مقتضاها ، محبته وموالاته ، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى ، وأي أذى أشد من القتل ؟ .

وهذا يصدق قوله صلى الله عليه وسلم « لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

فعلم أن القتل من الكفر العملى ، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله .

ولما كان قوله [وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً] لفظا عاما ، لجميع الأحوال ، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه ، بوجه من الوجوه ، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال :

[إلا خطأ] فإن المخطىء الذى لا يقصد القتل ، غير آثم ، ولا مجترىء على محارم الله .

ولكنه لما كان قد فعل فعلا شنيعاً ، وصورته كافية فى قبحه ، وإن لم يقصده ـ أمر تعالى بالكفارة والدية فقال [ومن قتل مؤمنا خطأ] سواء

يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ

كان القاتل ذكراً أو أنثى ، حراً أو عبداً ، صغيراً أو كبيراً،عاقلاأو مجنوناً، مسلماً أو كافراً ، كما يفيده لفظ « من » الدالة على العموم ، وهذا من أسرار الإتيان بـ « من » فى هذا الموضع .

فإن سياق الكلام يقتضى أن يقول فإن قتله ،ولكن هذا لفظ، لا يشمل ما شمله « من » .

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى ، صغيراً أو كبيرا ، كما يفيده التنكير فى سياق الشرط .

فإن على القاتل [تحرير رقبة مؤمنة] كفارة لذلك ، تكون فى ماله ، ويشمل ذلك الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والصحيح والمعيب ، فى قول بعض العلماء .

ولكن الحكمة ، تقتضى أن لا يجزىء عتق المعيب فى الكفارة .

لأن المقصود بالعتق ، نفع العتيق ، وملكه منافع نفسه .

فإذا كان يضيع بعتقه ، وبقاؤه فى الرق أنفع له ، فإنه لا يجزىء عتقه .

مع أن فى قوله « تحرير رقبة » ما يدل على ذلك .

فإن التحرير : تخليص من استحقت منافعه لغيره ، أن تكون له .

فإذا لم يكن فيه منافع ، لم يتصور وجود التحرير .

فتأمل ذلك ، فإنه واضح .

أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

وأما الدية ، فإنها تجب على عاقلة القاتل ، فى الخطأ ، وشبه العمد .

[مسلمة إلى أهله] جبراً لقلوبهم .

والمراد بأهله هنا ، هم ورثته ، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت .

فالدية داخلة فيما ترك ، وللدية تفاصيل كثيرة، مذكورة فى كتب الفقه.

وقوله [إلا أن يصدقوا] أى يتصدق ورثة القتيل بالعفو عن الدية ، فإنها تسقط .

وفى ذلك حث لهم على العفو ، لأن الله سماها صدقة ، والصدقة مطلوبة فى كل وقت .

[فإن كان] المقتول [من قوم عدو لكم] أى : من كفار حربيين [وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة] أى : وليس عليكم لأهله دية ، لعدم احترامهم فى دمائهم وأموالهم .

[وإن كان] المقتول [من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة] وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق .

[فمن لم يجد] رقبة ولا ثمنها ، بأن كان معسرا بذلك ، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية ، شىء يفى بالرقبة .

[فصيام شهرين متتابعين] أى : لا يفطر بينهما من غير عذر .

فإن أفطر لعذر ، فإن العذر لا يقطع التتابع ، كالمرض، والحيض ونحوهما.

وإن كان لغير عذر ، انقطع التتابع ، ووجب عليه استئناف الصوم .

. . . .

[توبة من الله] أى هذه الكفارات التى أوجبها الله على القاتل ، توبة من الله على عباده ، ورحمة بهم ، وتكفيراً لما عساه أن يحصل منهم، من تقصير ، وعدم احتراز ، كما هو الواقع كثيراً للقاتل خطأ .

[وكان الله عليما حكيما] أى : كامل العلم ، كامل الحكمة ، لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، فى أى وقت كان ، وأى محل كان .

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع ، شيء .

بل كل ما خلقه وشرعه ، فهو متضمن لغاية الحكمة .

ومن علمه وحكمته ، أن أوجب على القاتل ، كفارة مناسبة لما صدر منه .

فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة ، وأخرجها من الوجود إلى العدم .

فناسب أن يعتق رقبة ، ويخرجها من رق العبودية للخلق ، إلى الحرية التامة.

فإن لم يجد هذه الرقبة ، صام شهرين متتابعين .

فأخرج نفسه من رق الشهوات ، واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية ، إلى التعبد لله تعالى بتركها ، تقرباً إلى الله .

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة فى عددها ، ووجوب التتابع فيها ، ولم يشرع الإطعام ، فى هذه المواضع ، لعدم المناسبة .

بخلاف الظهار ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ومن حكمته ، أن أوجب فى القتل ، الدية ، ولو كان خطأ ، لتكون

. . . .

رادعة ، وكافة عن كثير من القتل ، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك [١]

ومن حكمته أن أوجبت على العاقلة فى قتل الخطأ ، بإجماع العلماء ، لكون القاتل ، لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة .

فناسب أن يقوم بذلك ، من بينه وبينهم، المعاونة،والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح ، وكف المفاسد .

ولعل ذلك من أسباب منعهم ، لمن يعقلون عنه من القتيل،حذار تحميلهم.

ويخف عليهم بسبب توزيعه عليهم ، بقدر أحوالهم وطاقتهم .

وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين .

ومن حكمته وعلمه ، أن جبر أهل القتيل عن مصيبتهم ، بالدية التى أوجبها على أولياء القاتل .

---

(١) وليكون أيضاً سداً لباب الاحتيال والكذب فيدعى القاتل أنه إنما صدر القتل منه خطأ ، وفى الواقع أنه تعمد القتل لحقد فى نفسه على المقتول، ولكن ليست هناك بينة تكشف كذبه .

فمن حكمة الشارع : أن ألزم الدية على من قتل خطأ ،سداً لتلك الذرائع ، وقمعاً للنفوس التى ترتكب الجريمة وتتذرع بأوهى الأسباب خصوصا فى زماننا هذا ، الذى عم فيه الكذب معظم الناس.

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾

* تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن ، وأن القتل من الكفر العملى .

وذكر هنا ، وعيد القاتل عمداً ، وعيداً ترجف له القلوب ، وتنصدع له الأفئدة ، وينزعج منه أولو العقول .

فلم يرد فى أنواع الكبائر ، أعظم من هذا الوعيد ، بل ولا مثله .

ألا : وهو الإخبار ، بأن جزاءه جهنم .

أى : فهذا الذنب العظيم ، قد انتهض وحده ، أن يجازى صاحبه بجهنم ، بما فيها من العذاب العظيم ، والخزى المهين ، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح ، وحصول الخيبة والخسار .

فعياذا بالله ، من كل سبب يبعد عن رحمته .

وهذا الوعيد ، له حكم أمثاله من نصوص الوعيد ، على بعض الكبائر والمعاصى ، بالخلود فى النار ، أو حرمان الجنة .

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله ، فى تأويلها ، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة ، الذين يخلدونهم فى النار ، ولو كانوا موحدين .

والصواب فى تأويلها ، ما قاله الإمام المحقق « شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى «المدارج»[1] فإنه قال ـ بعد ما ذكر تأويلات الأئمة فى ذلك وانتقدها فقال :

---

(١) يعنى كتاب « مدارج السالكين » .

وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

وقالت فرقة : إن هذه النصوص وأمثالها ،مماذكر فيه المقتضى للعقوبة ، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده ، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه .

وغاية هذه النصوص ، الإعلام بأن كذا ، سبب للعقوبة ومقتض لها .

وقد قام الدليل على ذكر الموانع ، فبعضها بالإجماع ، وبعضها بالنص .

فالتوبة ، مانع بالإجماع .

والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة ، التى لا مدفع لها .

والحسنات العظيمة الماحية ، مانعة .

والمصائب الكبار المكفرة ، مانعة .

وإقامة الحدود فى الدنيا ، مانع بالنص .

ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص ، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتباراً لمقتضى العقاب ومانعه ، وإعمالا لأرجحها .

قالوا : وعلى هذا ، بناء مصالح الدارين ومفاسدها .

وعلى هذا ، بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية ، وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود ، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها ، خلقا وأمرا .

وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدا يدافعه ، ويقاومه ، ويكون الحكم للأغلب منهما .

. . . .

فالقوة ، مقتضية للصحة والعافية .

وفساد الأخلاط وبغيها ، مانع من عمل الطبيعة .

وفعل القوة ، والحكم ، للغالب منهما وكذلك قوى الأدوية والأمراض.

والعبد يكون فيه مقتض للصحة ، ومقتض للعطب .

وأحدهما ، يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه .

فإذا ترجح عليه وقهره ، كان التأثير له .

ومن هنا يعلم ، انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ، ولا يدخل النار ، وعكسه .

ومن يدخل النار ثم يخرج منها ، ويكون مكثه فيها ، بحسب ما فيه من مقتضى المكث ، فى سرعة الخروج ، وبطئه .

ومن له بصيرة منورة ، يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه ، من أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى العين .

ويعلم أن هذا مقتضى إلهيته سبحانه ، وربوبيته ، وعزته ، وحكمته ، وأنه مستحيل عليه خلاف ذلك .

ونسبة ذلك إليه ، نسبة ما لا يليق به إليه .

فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته ، كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره .

وهذا يقين الإيمان ، وهو الذى يحرق السيئات ، كما تحرق النار الحطب.

وصاحب هذا المقام من الإيمان ، يستحيل إصراره على السيئات .

وإن وقعت منه وكثرت ، فإن ما معه من نور الإيمان ، يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله فى عدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله.

انتهى كلامه ، قدس الله روحه ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، إذا خرجوا جهادا فى سبيله ، وابتغاء مرضاته ـ أن يتبينوا ، ويتثبتوا فى جميع أمورهم المشتبهة .

فإن الأمور قسمان : واضحة وغير واضحة .

فالواضحة البينة ، لا تحتاج إلى تثبت وتبين ، لأن ذلك ، تحصيل حاصل

وأما الأمور المشكلة غير الواضحة ، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين ، هل يقدم عليها أم لا ؟ .

فإن التثبت فى هذه الأمور ، يحصل فيه من الفوائد الكثيرة ، والكف عن شرور عظيمة ، فإن به يعرف دين العبد ، وعقله ، ورزانته .

بخلاف المستعجل للأمور فى بدايتها ، قبل أن يتبين له حكمها ، فإن ذلك يؤدى إلى ما لا ينبغى .

كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله فى الآية ، لما لم يتثبتوا ، وقتلوا من سلم عليهم ، وكان معه غنيمة له أو مال غيره ، ظنا أنه يستكفى [1] بذلك قتلهم ، وكان هذا خطأ فى نفس الأمر ، فلهذا عاتبهم بقوله :

[ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة] .

أى : فلا يحملنكم العرض الفانى القليل ، على ارتكاب ما لا ينبغى ،

---

(١) يستكفى يعنى : يدفع عند القتل .

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيفوتكم ماعند الله من الثواب الجزيل الباقى ، فما عند الله خير وأبقى .

وفى هذا إشارة إلى أن العبد ينبغى له ، إذا رأى دواعى نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى ، وهى مضرة له ـ أن يذكرها ، ما أعد الله لمن نهى نفسه عن هواها ، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه ، فإن فى ذلك ترغيباً للنفس ، فى امتثال أمر الله ، وإن شق ذلك عليها .

ثم قال تعالى ـ مذكرا لهم بحالهم الأولى ، قبل هدايتهم إلى الإسلام .

[كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم] أى : فكما هداكم بعد ضلالكم ، فكذلك يهدى غيركم .

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئا فشيئا ، فكذلك غيركم .

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة ، ومعاملته لمن كان على مثلها ، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى ، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة ـ من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه .

ولهذا أعاد الأمر بالتبين فقال [فتبينوا] .

فإذا كان من خرج للجهاد فى سبيل الله ، ومجاهدة أعداء الله ، واستعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم ، مأمورا بالتبين لمن ألقى إليه السلام ، وكانت القرينة قوية ، فى أنه إنما سلم تعوذا من القتل ، وخوفا على نفسه — فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت ، فى كل الأحوال التى يقع فيها نوع اشتباه ، فيتثبت فيها العبد ، حتى يتضح له الأمر ، ويتبين الرشد والصواب .

[إن الله كان بما تعملون خبيرا] فيجازى كلا ، ماعمله ونواه ، بحسب ماعلمه من أحوال عباده ونياتهم .

* أى : لا يستوى من جاهد من المؤمنين ، بنفسه وماله ، ومن لم يخرج للجهاد ، ولم يقاتل أعداء الله .

ففيه الحث على الخروج للجهاد ، والترغيب فى ذلك ، والترهيب من التكاسل ، والقعود عنه ، من غير عذر .

وأما أهل الضرر ، كالمريض ، والأعمى ، والأعرج ، والذى لا يجد ما يتجهز به ، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين ، من غير عذر .

فمن كان من أولى الضرر ، راضياً بقعوده ، لاينوى الخروج فى سبيل الله ، لولا وجود المانع ، ولايحدث نفسه بذلك ، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر .

ومن كان عازما على الخروج فى سبيل الله ، لولا وجود المانع ، يتمنى ذلك ، ويحدث به نفسه ، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد .

لأن النية الجازمة ، إذا اقترن بها مقدورها ، من القول ، أو الفعل - ينزل صاحبها منزلة الفاعل .

ثم صرح تعالى ، بتفضيل المجاهدين على القاعدين ، بالدرجة أي : الرفعة ، وهذا تفضيل على وجه الإجمال .

ثم صرح بذلك على وجه التفصيل ، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التى تشتمل على حصول كل خير ، واندفاع كل شر .

والدرجات التى فصلها النبى صلى الله عليه وسلم بالحديث الثابت عنه فى الصحيحين ، أن فى الجنة مائة درجة ، مابين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله .

وهـذا الثواب ، الذى رتبه الله على الجهاد ، نظير الذى فى سورة الصف فى قوله :

[يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم] إلى آخر السورة .

وتأمل حسن هذا الانتقال ، من حالة إلى أعلى منها .

فإنه نفى التسوية أولا ، بين المجاهد وغيره .

ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة .

ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة ، والرحمة ، والدرجات .

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل ، والمدح ، أو النزول من حالة إلى مادونها ، عند القدح والذم ـ أحسن لفظاً ، وأوقع فى النفس .

وكذلك إذا فضل تعالى ، شيئاً على شيء ، وكل منهما له فضل ، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين ، لئلا يتوهم أحد ، ذم المفضل عليه كما

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ
وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ
وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

قال هنا [وكلا وعد الله الحسنى] .

وكما قال تعالى فى الآيات المذكورة فى الصف فى قوله : [وبشر المؤمنين]

وكما فى قوله تعالى [لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل].

أى : ممن لم يكن كذلك .

ثم قال :[وكلا وعد الله الحسنى] .

وكما قال تعالى [ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما] .

فينبغى لمن يبحث فى التفضيل بين الأشخاص ، والطوائف ، والأعمال ، أن يفطن لهذه النكتة .

وكذلك لو تكلم فى ذم الأشخاص والمقالات ، ذكر ما تجتمع فيه ، عند تفضيل بعضها على بعض ، لئلا يتوهم أن المفضل ، قد حصل له الكمال .

كما إذا قيل : النصارى خير من المجوس ، فليقل ـ مع ذلك ـ وكل منهما كافر .

والقتل أشنع من الزنا ، وكل منهما معصية كبيرة ، حرمها الله ورسوله وزجر عنها .

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين [الغفور الرحيم] ختم هذا الآية بهما فقال [وكان الله غفوراً رحيما] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ

---

* هذا الوعيد الشديد ، لمن ترك الهجرة ، مع قدرته عليها ، حتى مات .

فإن الملائكة الذين يقبضون روحه ، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم ، ويقولون لهم [فيم كنتم] أى : على أى حال كنتم ؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين ؟ بل كثرتم سوادهم ، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين ، وفاتكم الخير الكثير ، والجهاد مع رسوله ، والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم .

[قالوا كنا مستضعفين فى الأرض] أى : ضعفاء مقهورين مظلومين ، ليس لنا قدرة على الهجرة .

وهم غير صادقين فى ذلك ، لأن الله وبخهم ، وتوعدهم ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

واستثنى المستضعفين حقيقة ، ولهذا قالت لهم الملائكة [ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها] وهذا استفهام تقرير ، أى : قد تقرر عند كل أحد ، أن أرض الله واسعة .

فحيثما كان العبد فى محل ، لا يتمكن فيه من إظهار دينه ، فإن له متسعا وفسحة من الأرض ، يتمكن فيها من عبادة الله كما قال تعالى :

[ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون] .

قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم [فأولئك مأواهم جهنم وساءت

مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ

مصيرا] وهذا كما تقدم ، فيه ذكر بيان السبب الموجب ، فقد يترتب عليه ، مقتضاه ، مع اجتماع شروطه ، وانتفاء موانعه ، وقد يمنع من ذلك مانع .

وفى الآية دليل على أن الهجرة ، من أكبر الواجبات ، وتركها ، من المحرمات ، بل من أكبر الكبائر .

وفى الآية دليل على أن كل من توفى ، فقد استكمل واستوفى ، ماقدر له من الرزق ، والأجل ، والعمل ، وذلك مأخوذ من لفظ « التوفى » فإنه يدل على ذلك .

لأنه لو بقى عليه شىء من ذلك ، لم يكن متوفيا .

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم ، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم ، على وجه التقرير والاستحسان منهم ، وموافقته لحاله .

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة ، الذين لاقدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه فقال : [ولايهتدون سبيلا] .

فهؤلاء قال الله فيهم :

[فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا] .

و « عسى » ونحوها ، واجب وقوعها من الله تعالى ، بمقتضى كرمه وإحسانه .

وفى الترجية بالثواب ، لمن عمل بعض الأعمال ، فائدة .

وهو أنه قد لايوفيه حق توفيته ، ولا يعمله على الوجه اللائق الذى ينبغى .

لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾

بل يكون مقصرا ، فلا يستحق ذلك الثواب . والله أعلم .

وفى الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور ، من واجب وغيره ، فإنه معذور ، كما قال تعالى فى العاجزين عن الجهاد :

[ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج].

وقال فى عموم الأوامر [فاتقوا الله ما استطعتم] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر ، فأتوا منه ما استطعتم » .

ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده ، وانسدت عليه أبواب الحيل لقوله : [لا يستطيعون حيلة] .

وفى الآية تنبيه على أن الدليل فى الحج والعمرة ، ونحوهما — مما يحتاج إلى سفر - من شروط الاستطاعة .

وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا[1]

* هذا فى بيان الحث على الهجرة ، والترغيب ، وبيان ما فيها من المصالح ، فوعد الصادق فى وعده ، أن من هاجر فى سبيله ، ابتغاء مرضاته ، أنه يجد مراغما فى الأرض وسعة ، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا .

وذلك أن كثيرا من الناس يتوهم أن فى الهجرة شتاتا بعد الألفة ، وفقرا بعد الغنى ، وذلا بعد العز ، وشدة بعد الرخاء .

والأمر ليس كذلك ، فإن المؤمن ، مادام بين أظهر المشركين ، فدينه فى غاية النقص ، لا فى العبادات القاصرة عليه ، كالصلاة ونحوها ، ولا فى العبادات المتعدية ، كالجهاد بالقول والفعل ، وتوابع ذلك ، لعدم تمكنه من من ذلك ، وهو بصدد أن يفتن عن دينه ، خصوصاً ، إن كان مستضعفا .

فإذا هاجر فى سبيل الله ، تمكن من إقامة دين الله ، وجهاد أعداء الله ، ومراغمتهم .

فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله ، من قول وفعل .

وكذلك مايحصل له سعة فى رزقه ، وقد وقع كما أخبر الله تعالى .

واعتبر ذلك بالصحابة رضى الله عنهم ، فإنهم لما هاجروا فى سبيل الله

---

(١) قال فى القاموس : المراغم : المذهب والمهرب والحصن والمضطرب اهـ ومثله فى المختار من الصحاح ، والمعنى : يجد فى الأرض متسعا ومجالات كثيرة واسعة .

كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

وتركوا ديارهم ، وأولادهم ، وأموالهم لله ، كمل بذلك إيمانهم ، وحصل لهم من الإيمـان التام ، والجهاد العظيم ، والنصر لدين الله ، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم .

وكذلك حصل لهم ، مايترتب على ذلك من الفتوحات والغنـائم ، ما كانوا به أغنى الناس .

وهكذا كل من فعل فعلهم ، يحصل له ماحصل لهم ، إلى يوم القيامة .

ثم قال [ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله] أى: قاصداً ربه ، ورضاه، ومحبته لرسوله ، ونصراً لدين الله ، لا لغير ذلك من المقاصد .

[ثم يدركه الموت] بقتل أو غيره .

[فقد وقع أجره على الله] أى : فقد حصل له أجر المهاجر، الذىأدرك مقصوده بضمان الله تعالى .

وذلك ، لأنه نوى وجزم ، وحصل منه ابتداء ، وشروع فى العمل .

فمن رحمة الله به وبأمثاله ، أن أعطاهم أجرهم كاملا، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم ، ما حصل منهم من التقصير فى الهجرة وغيرها .

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الـكريمين فقال :

[وكان الله غفوراً رحيما] يغفر للمؤمنين ، ما اقترفوه من الخطيئات ، خصوصاً ، التائبين المنيبين إلى ربهم .

۞ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ

[رحيما] بجميع الخلق ، رحمة أوجدتهم وعافتهم ، ورزقتهم من المال والبنين والقوة ، وغير ذلك .

رحيما بالمؤمنين ، حيث وفقهم للإيمان ، وعلمهم من العلم ، مايحصل به الإيقان ، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح ، وما به يدركون غاية الأرباح .

وسيرون من رحمته وكرمه ، ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

فنسأل الله ، أن لايحرمنا خيره ، بشر ما عندنا .

* هاتان الآيتان ، أصل فى رخصة القصر ، وصلاة الخوف .

يقول تعالى [وإذا ضربتم فى الأرض] أى : فى السفر ، وظاهر الآية ، أنه يقتضى الترخيص فى أى سفر كان ، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبى حنيفة رحمه الله ، وخالف فى ذلك الجمهور ، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم ، فلم يجوزوا الترخيص فى سفر المعصية ، تخصيصا للآية بالمعنى والمناسبة ، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده ، إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا .

والعاصى بسفره ، لايناسب حاله التخفيف .

وقوله [فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة] أى : لاحرج ولا إثم عليكم فى ذلك .

ولا ينافى ذلك ، كون القصر هو الأفضل ، لأن نفى الحرج ، إزالة لبعض الوهم الواقع فى كثير من النفوس .

بل ولا ينافى الوجوب ، كما تقدم ذلك فى سورة البقرة ، فى قوله [إن الصفا والمروة من شعائر الله] إلى آخر الآية .

وإزالة الوهم فى هذا الموضع ظاهرة ، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين ، وجوبها على هـــذه الصفة التامة ، ولايزيل هذا عن نفوس أ كثرهم ، إلا بذكر ماينافيه .

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران .

أحدهما : ملازمة النبى صلى الله عليه وسلم على القصر فى جميع أسفاره .

والثانى : أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد .

والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته .

وقوله [أن تقصروا من الصلاة] ولم يقل أن تقصروا الصلاة ، فيه فائدتان .

إحداهما : أنه لو قال أن تقصروا الصلاة ، لـكان القصر غير منضبط بحد من الحدود .

فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة ، وجعلها ركعة واحدة ، لأجزأه .

فإتيانه بقوله [من الصلاة] ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط ، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

الثانية أن « من » تفيد التبعيض ، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات ، لا جميعها .

فإن الفجر والمغرب ، لايقصران ، وإنما الذى يقصر ، الصلاة الرباعية من أربع ، إلى ركعتين .

فإذا تقرر أن القصر فى السفر ، رخصة ، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى هذا القيد ، وهو قوله :

[إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا] الذى يدل ظاهره ، أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما ، السفر مع الخوف .

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله [أن تقصروا] قصر العدد فقط ؟ أو قصر العدد والصفة ؟

فالإشكال ، إنما يكون على الوجه الأول .

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى سأل عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا ؟ أى والله يقول [إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا] .

فقال رسول الله صل الله عليه وسلم : « صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته » أو كما قال .

فعلى هذا يكون هذا القيد أتى به ، نظرا لغالب الحال ، التى كان النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه عليها .

فإن غالب أسفاره أسفار ، جهاد .

وفيه فائدة أخرى ، وهى بيان الحكمة والمصلحة ، فى مشروعية رخصة القصر .

فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ

فبين فى هذه الآية أنهى(١) ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة ، وهى اجتماع السفر والخوف .

ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده ، الذى هو مظنة المشقة .

وأما على الوجه الثانى ، وهو أن المراد بالقصر : قصر العدد والصفة ، فإن القيد على بابه .

فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد ، وقصر الصفة .

وإذا وجد السفر وحده ، جاز قصر العدد فقط .

أو الخوف وحده ، جاز قصر الصفة .

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله [وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة] أي : صليت بهم صلاة تقيمها ، وتتم ما يجب فيها ، ويلزم فعلهم ما ينبغى لك ولهم ، فعله .

ثم فسر ذلك بقوله [فلتقم طائفة منهم معك] أى : وطائفة قائمة بإزاء العدو ، كما يدل على ذلك ما يأتى :

[فإذا سجدوا] أى : الذين معك أى : أكملوا صلاتهم ، وعبر عن الصلاة بالسجود ، ليدل على فضل السجود ، وأنه ركن من أركانها ، بل هو أعظم أركانها .

(١) أنهى . أى : غاية ما يتصور الخ .

يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

[فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى ، لم يصلوا] وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو [فليصلوا معك] .

ودل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى ، منتظراً للطائفة الثانية ، فإذا حضروا صلى بهم ما بقى من صلاته ثم جلس ينتظرهم ، حتى يكملوا صلاتهم ، ثم يسلم بهم ، وهذا أحد الوجوه فى صلاة الخوف .

فإنها صحت عن النبى صلى الله عليه من وجوه كثيرة ، كلها جائزة .

وهذه الآية ، تدل على أن صلاة الجماعة ، فرض عين من وجهين :

أحدهما : أن الله تعالى أمر بها فى هذه الحالة الشديدة ، وقت اشتداد الخوف من الأعداء ، وحذر مهاجمتهم .

فإذا أوجبها فى هذه الحالة الشديدة ، فإيجابها فى حالة الطمأنينة والأمن ، من باب أولى وأحرى .

والثانى : أن المصلين صلاة الخوف ، يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم ، ويعفى فيها ، عن كثير من الأفعال المبطلة فى غيرها ، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة ، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب .

فلولا وجوب الجماعة ، لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها .

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل ، أن يصلوا بإمام واحد .

ولو تضمن ذلك الإخلال بشىء ، لا يخل به لو صلوها بعدة أئمة ،وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين ، واتفاقهم ، وعدم تفرق كلمتهم ، وليكون ذلك أوقع هيبة فى قلوب أعدائهم .

لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

وأمر تعالى ، بأخذ السلاح ، والحذر فى صلاة الخوف .

وهذا ، وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة ، فإن فيه مصلحة راجحة ، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد ، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص ، على الإيقاع بالمسلمين ، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى :

[ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة] .

ثم إن الله عذر من له عذر ، من مرض ، أو مطر ، أن يضع سلاحه ، ولكن مع أخذ الحذر فقال :

[ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا] .

ومن العذاب المهين ، ما أمر الله به حزبه المؤمنين ، وأنصار دينه الموحدين ، من قتلهم وقتالهم ، حيثما ثقفوهم ، ويأخذوهم ، ويحصروهم ، ويقعدوا لهم كل مرصد ، ويحذروهم فى جميع الأحوال ، ولا يغفلوا عنهم ، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم .

. . . .

فلله أعظم حمد وثناء ، على ما من به على المؤمنين ، وأيدهم بمعونته وتعاليمه ، التى لو سلكوها على وجه الكمال ، لم تهزم لهم راية ، ولم يظهر عليهم عدو ، فى وقت من الأوقات .

وقوله [فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم] يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين .

وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام ، لأنه أولا ، ذكر أن الطائفة تقوم معه ، فأخبر عن مصاحبتهم له .

ثم أضاف الفعل بعد ، إليهم دون الرسول ، فدل ذلك على ما ذكرناه .

وفى قوله [فلتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك] دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا .

وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة ، فى ركعتهم الأولى ، وحكما فى ركعتهم الأخيرة .

فيستلزم ذلك ، انتظار الإمام إياهم ، حتى يكملوا صلاتهم . ثم يسلم بهم ، وهذا ظاهر للمتأمل .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا

---

* أى : فإذا فرغتم من صلاتكم ، صلاة الخوف وغيرها ، فاذكروا الله فى جميع أحوالكم وهيئاتكم . ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد.

منها : أن القلب صلاحه وفلاحه ، وسعادته ، بالإنابة إلى الله تعالى ، فى المحبة ، وامتلاء القلب من ذكره ، والثناء عليه .

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود ، الصلاة ، التى حقيقتها : أنها صلة بين العبد وبين ربه .

ومنها : أن فيها من حقائق الإيمان ، ومعارف الإيقان ، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة .

ومن المعلوم أن صلاة الخوف ، لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة ، بسبب اشتغال القلب ، والبدن ، والخوف ، فأمر بجبرها بالذكر بعدها .

ومنها : أن الخوف ، يوجب قلق القلب وخوفه ، وهو مظنة لضعفه .

وإذا ضعف القلب ، ضعف البدن عن مقاومة العدو .

والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب .

ومنها: أن الذكر لله تعالى — مع الصبر والثبات — سبب للفلاح والظفر بالأعداء .

كما قال تعالى [يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون] .

فأمر بالإكثار منه فى هذه الحال ، إلى غير ذلك من الحكم .

وقوله [فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة] أى : إذا أمنتم من الخوف ،

وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

واطمأنت قلوبكم وأبدانكم ، فأقيموا صلاتكم على الوجه الأكمل ، ظاهرا وباطنا ، بأركانها وشروطها ، وخشوعها ، وسائر مكملاتها .

[إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا] أى : مفروضا فى وقته .

فدل ذلك على فرضيتها ، وأن لها وقتاً ، لا تصح إلا به ، وهو هذه الأوقات ، التى قد تقررت عند المسلمين ، صغيرهم ، وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

ودل قوله [على المؤمنين] على أن الصلاة ميزان الإيمان ، وعلى حسب إيمان العبد ، تكون صلاته ، وتتم وتكمل .

ويدل ذلك ، على أن الكفار — وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة — أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة ، ولا يؤمرون بها ، بل ولا تصح منهم ، ما داموا على كفرهم ، وإن كانوا يعاقبون عليها ، وعلى سائر الأحكام ، فى الآخرة .

﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

---

* أى : لا تضعفوا ولا تكسلوا ، فى ابتغاء عدوكم من الكفار ، أى: فى جهادهم ، والمرابطة على ذلك فإن وهن القلب ، مستدع لوهن البدن ، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء .

بل كونوا أقوياء ، نشيطين فى قتالهم .

ثم ذكر ما يقوى قلوب المؤمنين ، فذكر شيئين .

الأول : أن ما يصيبكم من الألم ، والتعب ، والجراح ونحو ذلك ، فإنه يصيب أعداءكم .

فليس من المروءة الإنسانية ، والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ، وأنتم وهم ، وقد تساويتم فيما يوجب ذلك .

لأن العادة الجارية ، أن لا يضعف ، إلا من توالت عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام .

لا من يدال له مرة ، ويدال عليه أخرى .

الأمر الثانى : أنكم ترجون من الله مالا يرجون .

فترجون الفوز بثوابه ، والنجاة من عقابه .

بل خواص المؤمنين ، لهم مقاصد عالية ، وآمال رفيعة ، من نصر دين الله ، وإقامة شرعه ، واتساع دائرة الإسلام ، وهداية الضالين ، وقمع أعداء الدين .

فهذه الأمور ، توجب للمؤمن المصدق ، زيادة القوة ، وتضاعف النشاط ، ، والشجاعة التامة .

لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوى ، إن ناله ، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ، والفوز برضوان الله وجنته .

فسبحان من فاوت بين العباد ، وفرق بينهم بعلمه وحكمته .

ولهذا قال : [وكان الله عليما حكيما] كامل العلم ، كامل الحكمة .

* يخبر تعالى ، أنه أنزل على عبده ورسوله ، الكتاب بالحق ، أى : محفوظا فى إنزاله من الشياطين ، أن يتطرق إليه منهم باطل .

بل نزل بالحق ، ومشتملا أيضاً على الحق .

فأخباره صدق ، وأوامره ونواهيه ، عدل [وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا] .

وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس .

وفى الآية الأخرى [وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم] .

فيحتمل أن هذه الآية ، فى الحكم بين الناس ، فى مسائل النزاع والاختلاف .

وتلك فى تبيين جميع الدين ، وأصوله ، وفروعه .

ويحتمل أن الآيتين كلتيهما ، معناهما واحد .

فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم فى الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفى العقائد ، وفى جميع مسائل الأحكام .

بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ

وقوله [بما أراك الله] أى : لا بهواك ، بل بما علمك الله وألهمك .

كقوله تعالى [وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى] .

وفى هذا دليل على عصمته صلى الله عليه وسلم ، فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها .

وأنه يشترط فى الحكم ، العلم والعدل لقوله [بما أراك الله] ولم يقل : بما رأيت .

ورتب أيضاً ، الحكم بين الناس على معرفة الكتاب .

ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط ، نهاه عن الجور والظلم ، الذى هو ضد العدل فقال :

[ولا تكن للخائنين خصيما] أى : لا تخاصم عن من عرفت خيانته ، من مدع ما ليس له ، أو منكر حقاً عليه ، سواء علم ذلك ، أو ظنه .

ففى هذا ، دليل على تحريم الخصومة فى باطل ، والنيابة عن المبطل ، فى الخصومات الدينية ، والحقوق الدنيوية .

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول فى نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم .

[واستغفر الله] مما صدر منك ، إن صدر .

[إن الله كان غفورا رحيما] أى : يغفر الذنب العظيم ، لمن استغفره ، وتاب إليه وأناب ، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك ، الموجب لثوابه ، وزوال عقابه .

أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ

[ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم] .

« الاختيان » و « الخيانة » بمعنى الجناية ، والظلم ، والإثم ، وهذا يشمل النهى عن المجادلة ، عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة ، من حد أو تعزير ، فإنه لايجادل عنه ، بدفع ما صدر منه من الخيانة ، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية .

[إن الله لايحب من كان خوانا أثيما] أى : كثير الخيانة والإثم .

وإذا انتفى الحب ، ثبت ضده ، وهو البغض ، وهـذا كالتعليل ، للنهى المتقدم .

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم [يستخفون من الناس ولايستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول] .

وهذا من ضعف الإيمان ، ونقصان اليقين ، أن تـكون مخافة الخلق عندهم ، أعظم من مخافة الله فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة ، على عدم الفضيحة عند الناس ، وهم — مع ذلك — قد بارزوا الله بالعظائم ، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم .

وهومعهم بالعلم ، فى جميع أحوالهم ، خصوصاً فى حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول ، من تبرئة الجانى ، ورمى البرىء بالجناية ، والسعى فى ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، ليفعل ما بيتوه .

فقد جمعوا بين عدة جنايات ، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات ، المطلع على سرائرهم وضمائرهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله :

مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

[وكان الله بما يعملون محيطا] أى : قد أحاط بذلك علما .

ومع هذا ، لم يعاجلهم بالعقوبة بل استأنى بهم ، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم ، الموجب للعقوبة البليغة .

☆ [ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا] .

أى : هبكم جادلتم عنهم فى هذه الحياة الدنيا ، ودفع عنهم جدالكم بعض ما يحذرون من العار والفضيحة ، عند الخلق .

فماذا يغنى عنهم وينفعهم ؟ ومن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة ، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ؟ « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين » .

فمن يجادل عنهم ، من يعلم السر وأخفى ، ومن أقام عليهم من الشهود مالا يمكن معه الإنكار ؟ .

وفى هذه الآية ، الإرشاد إلى المقابلة ، بين مايتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله ، أو فعل مناهيه .

وبين ما يفوت من ثواب الآخرة ، أو يحصل من عقوباتها .

فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله :

ها أنت ، تركت أمره كسلا وتفريطا ، فما النفع الذى انتفعت به ؟

أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ

وماذا فاتك من ثواب الآخرة ؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران ؟

وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة ، قال لها :

هبك فعلت ما اشتهيت ، فإن لذته تنقضى ، ويعقبها من الهموم ، والغموم ، والحسرات ، وفوات الثواب ، وحصول العقاب — ما بعضه يكفى العاقل فى الإحجام عنها .

وهذا من أعظم ماينفع العبد تدبره ، وهو خاصة ، العقل الحقيقى .

بخلاف من يدعى العقل ، وليس كذلك .

فإنه — بجهله وظلمه — يؤثر اللذة الحاضرة ، والراحة الراهنة ، ولو ترتب عليها ما ترتب . والله المستعان .

ثم قال تعالى: [ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما] .

أى : من تجرأ على المعاصى ، واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارا تاما ، يستلزم الإقرار بالذنب ، والندم عليه ، والإقلاع ، والعزم على أن لايعود .

فهذا[1] قد وعده من لايخلف الميعاد ، بالمغفرة والرحمة .

---

(١) قوله [فهذا الخ] جواب (من) فى قوله (من تجرأ الخ) .

إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن

فيغفر له ماصدر منه من الذنب ، ويزيل عنه ، ماترتب عليه من النقص والعيب ، ويعيد إليه ، ما تقدم من الأعمال الصالحة ، ويوفقه فيما يستقبله من عمره ، ولايجعل ذنبه حائلا عن توفيقه ، لأنه قد غفره ، وإذا غفره ، غفر مايترتب عليه .

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق ، يشمل سائر المعاصى ، الصغيرة ، والكبيرة .

وسمى « سوءا » لكونه يسوء عامله بعقوبته ، ولكونه ـ فى نفسه ـ سيئا ، غير حسن .

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق ، يشمل ظلمها بالشرك ، فما دونه .

ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر ، قد يفسر كل واحد منهما ، بما يناسبه .

فيفسر عمل السوء هنا ، بالظلم الذى يسوء الناس ، وهو ظلمهم ، فى دمائهم ، وأموالهم وأعراضهم .

ويفسر ظلم النفس ، بالظلم والمعاصى ، التى بين الله وبين عبده .

وسمى ظلم النفس « ظلما » لأن نفس العبد ، ليست ملكا له ، يتصرف فيها بما يشاء .

وإنما هى ، ملك لله تعالى ، قد جعلها أمانة عند العبد وأمره أن يقيمها على طريق العدل ، بإلزامها الصراط المستقيم ، علما وعملا ، فيسعى فى تعليمها ما أمر به ، ويسعى فى العمل بما يجب .

فسعيه فى غيرهذا الطريق ، ظلم لنفسه ، وخيانة ، وعدول بها عن العدل ، الذى ضده ، الجور والظلم .

ثم قال : [ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه] وهذا يشمل ، كل مايؤثم ، من صغير وكبير .

فمن كسب سيئة ، فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية ، على نفسه ، لاتتعداها إلى غيرها ، كما قال تعالى : [ولا تزر وازرة وزر أخرى] .

لـكن إذا ظهرت السيئات ، فلم تنـكر ، عمت عقوبتها ، وشمل إثمها ، فلا تخرج أيضاً ، عن حكم هذه الآية الـكريمة ، لأن من ترك الإنكار الواجب ، فقد كسب سيئة .

وفى هذا ، بيان عدل الله وحكمته ، أنه لايعاقب أحداً بذنب أحد ، ولا يعاقب أحداً ، أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه ، ولهذا قال :

[وكان الله عليما حكيما] أى : له العلم الكامل ، والحكمة التامة .

ومن علمه وحكمته ، أنه يعلم الذنب ، ومن صدر منه ، والسبب الداعى لفعله ، والعقوبة المترتبة على فعله .

ويعلم حالة المذنب ، أنه إن صدر منه الذنب ، بغلبة دواعى نفسه الأمارة بالسوء ، مع إنابتـه إلى ربه ، فى كثير من أوقاته ، أنه سيغفر له ، ويوفقه للتوبة .

وإن صدر بتجرؤه على المحارم ، استخفافا بنظر ربه ، وتهاونا بعقابه ، فإن هذا بعيد من المغفرة ، بعيد من التوفيق للتوبة .

ثم قال [ومن يكسب خطيئة] أى : ذنباً كبيراً [أو إثما] مادون ذلك .

وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ

[ثم يرم به] أى : يتهم بذنبه [بريئا] من ذلك الذنب ، وإن كان مذنباً .

[فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا] أى : فقد حمل فوق ظهره ، بهتا للبرىء وإثما ظاهرا بينا .

وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب ، وموبقاتها .

فإنه قد جمع عدة مفاسد : كسب الخطيئة ، والإثم .

ثم رمى من لم يفعلها بفعلها .

ثم الكذب الشنيع ، بتبرئة نفسه ، واتهام البرىء .

ثم مايترتب على ذلك ، من العقوبة الدنيوية ، تندفع عمن وجبت عليه ، وتقام على من لا يستحقها .

ثم مايترتب على ذلك أيضاً ، من كلام الناس فى البرىء ، إلى غير ذلك من المفاسد ، التى نسأل الله العافية منها ، ومن كل شر .

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله فقال :

[ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك] .

وذلك أن هذه الآيات الكريمات ، قد ذكر المفسرون ، أن سبب نزولها ، أن أهل بيت ، سرقوا فى المدينة .

فلما اطلع على سرقتهم ، خافوا الفضيحة ، وأخذوا سرقتهم ، فرموها ببيت من هو برىء من ذلك .

واستعان السارق بقومه ، أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبوا منه أن يبرىء صاحبهم ، على رءوس الناس .

وقالوا : إنه لم يسرق ، وإنما الذى سرق ، من وجدت السرقة ببيته ، وهو البرىء .

فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبرىء صاحبهم .

فأنزل الله هذه الآيات ، تذكيراً ، وتبيينا لتلك الواقعة ، وتحذيرا للرسول صلى الله علية وسلم ، من المخاصمة عن الخائنين ، فإن المخاصمة عن المبطل ، من الضلال ، فإن الضلال نوعان :

ضلال فى العلم ، وهو الجهل بالحق ، وضلال فى العمل ، وهو : العمل بغير مايجب .

فحفظ الله رسوله ، عن هذا النوع من الضلال ، كما حفظه عن الضلال فى الأعمال .

وأخبر أن كيدهم ومكرهم ، يعود على أنفسهم ، كحالة كل ماكر ، فقال :

[وما يضلون إلا أنفسهم] لكون ذلك المكر ، وذلك التحيل ، لم يحصل لهم ، فيه مقصودهم ، ولم يحصل لهم إلا الخيبة والحرمان ، والإثم ، والخسران .

وهذه نعمة كبيرة ، على رسوله صلى الله عليه وسلم ، تتضمن النعمة بالعمل ، وهو : التوفيق لفعل ما يجب ، والعصمة له عن كل محرم .

وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال : [وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة] .

أى : أنزل عليك هذا القرآن العظيم ، والذكر الحكيم ، الذى فيه تبيان كل شىء ، وعلم الأولين والآخرين .

والحكمة : إما السنة ، التى قد قال فيها بعض السلف : إن السنة تنزل عليه ، كما ينزل القرآن .

وإما : معرفة أسرار الشريعة الزائدة ، على معرفة أحكامها ، وتنزيل الأشياء منازلها ، وترتيب كل شىء بحسبه .

[وعلمك ما لم تكن تعلم] وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى .

فإنه صلى الله عليه وسلم ، كما وصفه الله قبل النبوة بقوله [ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان] ، [ووجدك ضالا فهدى] .

ثم لم يزل يوحى الله إليه ، ويعلمه ، ويكمله ، حتى ارتقى مقاما من العلم ، يتعذر وصوله على الأولين والآخرين .

فكان أعلم الخلق على الإطلاق ، وأجمعهم لصفات الكمال ، وأكملهم فيها .

ولهذا قال [وكان فضل الله عليك عظيما] ففضله على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، أعظم من فضله على كل الخلق .

وأجناس الفضل التى قد فضله الله به ، لا يمكن استقصاؤها ولا يتيسر إحصاؤها .

لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ

☆ أي : لا خير فى كثير ، مما يتناجى به الناس ويتخاطبون .

وإذا لم يكن فيه خير ، فإما لا فائدة فيه ، كفضول الكلام المباح .

وإما شر ، ومضرة محضة ، كالكلام المحرم بجميع أنواعه .

ثم استثنى تعالى فقال : [إلا من أمر بصدقة] من مال ، أو علم ، أو أى نفع كان .

بل لعله ، يدخل فيه العبادات القاصرة ، كالتسبيح ، والتحميد، ونحوه .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة » الحديث .

[أو معروف] وهو الإحسان والطاعة ، وكل ما عرف فى الشرع والعقل حسنه .

وإذا أطلق الأمر بالمعروف ، من غير أن يقرن بالنهى عن المنكر ، دخل فيه النهى عن المنكر .

وذلك لأن ترك المنهيات ، من المعروف .

وأيضاً لا يتم فعل الخير ، إلا بترك الشر .

وأما عند الاقتران ، فيفسر المعروف ، بفعل المأمور ، والمنكر ، بترك المنهى .

[أو إصلاح بين الناس] والإصلاح ، لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين .

أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

والنزاع ، والخصام ، والتغاضب ، يوجب من الشر والفرقة ، ما لا يمكن حصره .

فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس ، فى الدماء ، والأموال والأعراض .

بل وفى الأديان ، كما قال تعالى :

[واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا] .

وقال تعالى:[وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله] الآية .

وقال تعالى : « والصلح خير » .

والساعى فى الإصلاح بين الناس ، أفضل من القانت بالصلاة ، والصيام ، والصدقة .

والمصلح ، لابد أن يصلح الله سعيه وعمله .

كما أن الساعى فى الإفساد ، لا يصلح الله عمله ، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى :

[إن الله لا يصلح عمل المفسدين] .

فهذه الأشياء ، حيثما فعلت ، فهى خير ، كما دل على ذلك ، الاستثناء .

ولكن كمال الأجر وتمامه ، بحسب النية والإخلاص ، ولهذا قال :

[ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما] .

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ

فلهذا ينبغى للعبد ، أن يقصد وجه الله تعالى ، ويخلص العمل لله ، فى كل وقت ، وفى كل جزء من أجزاء الخير ، ليحصل له بذلك ، الأجر العظيم ، وليتعود الإخلاص ، فيكون من المخلصين ، وليتم له الأجر ، سواء تم مقصوده أم لا ، لأن النية حصلت ، واقترن بها ، ما يمكن من العمل .

* أى : ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعانده فيما جاء به [من بعد ما تبين له الهدى] بالدلائل القرآنية ، والبراهين النبوية .

[ويتبع غير سبيل المؤمنين] وسبيلهم هو : طريقهم فى عقائدهم وأعمالهم .

[نوله ما تولى] أى : نتركه وما اختاره لنفسه ، ونخذله ، فلا نوفقه للخير ، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه .

فجزاؤه من الله عدلا ، أن يبقيه فى ضلاله حائراً ، ويزداد ضلالا إلى ضلاله. كما قال تعالى [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم] وقال تعالى [ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] .

ويدل مفهومها ، على أن من لم يشاقق الرسول ، ويتبع سبيل المؤمنين ، بأن كان قصده وجه الله ، واتباع رسوله ، ولزوم جماعة المسلمين ، ثم صدر منه ، من الذنوب أو الهم بها ، ما هو من مقتضيات النفوس ، وغلبات الطباع ، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه ، بل يتداركه بلطفه ، ويمن عليه ، بحفظه ، ويعصمه من السوء كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام :

[كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين] .

مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

أى : بسبب إخلاصه ، صرفنا عنه السوء ، وكذلك كل مخلص ، كما يدل عليه ، عموم التعليل .

وقوله [ونصله جهنم] أى : نعذبه فيها عذاباً عظيما .

[وساءت مصيراً] أى : مرجعاً له ومآلا .

وهذا الوعيد ، المترتب على الشقاق ، ومخالفة المؤمنين ، مراتب ، لا يحصيها إلا الله ، بحسب حالة الذنب ، صغراً وكبراً .

فمنه ما يخلد فى النار ، ويوجب جميع الخذلان .

ومنه ، ما هو دون ذلك ، فلعل الآية الثانية ، كالتفصيل لهذا المطلق .

وهو : أن الشرك ، لا يغفره الله تعالى ، لتضمنه القدح فى رب العالمين ، ووحدانيته ، وتسوية المخلوق ، الذى لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بمن هو مالك النفع والضر ، الذى ما من نعمة إلا منه ، ولا يدفع النقم إلاهو ، الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات .

فمن أعظم الظلم ، وأبعد الضلال ، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته ، وصرف شىء منها للمخلوق ، الذى ليس له من صفات الكمال شىء ، ولا له من صفات الغنى شىء ، بل ليس له إلا العدم .

عدم الوجود ، وعدم الكمال ، وعدم الغنى من جميع الوجوه .

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصى ، فهو تحت المشيئة .

إن شاء الله غفره برحمته وحكمته .

لِمَن يَشَآءِ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

وإن شاء عذب عليه ، وعاقب بعدله وحكمته .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة ، على أن إجماع هذه الأمة ، حجة ، وأنها معصومة من الخطأ .

ووجه ذلك : أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين ، بالخذلان والنار.

وسبيل المؤمنين مفرد مضاف ، يشمل سائرما المؤمنون عليه، من العقائد والأعمال .

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء ، أو استحبابه ، أو تحريمه ، أو كراهته ، أو إباحته — فهذا سبيلهم .

فمن خالفهم فى شيء من ذلك ، بعد انعقاد إجماعهم عليه ، فقد اتبع غير سبيلهم .

ويدل على ذلك قوله تعالى :

[كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر].

ووجه الدلالة منها ، أن الله تعالى ، أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة ، لا يأمرون إلا بالمعروف .

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء ، أو استحبابه ، فهو مما أمروا به .

فيتعين ـ بنص الآية ـ أن يكون معروفاً ، ولا شيء بعد المعروف ، غير المنكر .

وكذلك إذا اتفقوا على النهى عن شيء ، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً .

. . . .

ومثل ذلك ، قوله تعالى [وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس] .

فأخبر تعالى ، أن هذه الأمة ، جعلها الله وسطاً أى : عدلا خياراً ، ليكونوا شهداء على الناس ، أى : فى كل شىء .

فإذا شهدوا على حكم ، بأن الله أمر به ، أو نهى عنه ، أو أباحه ، فإن شهادتهم معصومة ، لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين فى شهادتهم . فلو كان الأمر بخلاف ذلك ، لم يكونوا عادلين فى شهادتهم ، ولا عالمين بها .

ومثل ذلك قوله تعالى [فإن تنازعتم فى شىء ، فردوه إلى الله والرسول] .

يفهم منها ، أن مالم يتنازعوا فيه ، بل اتفقوا عليه ، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة .

وذلك لا يكون إلا موافقا للكتاب والسنة ، فلا يكون مخالفاً .

فهذه الأدلة ونحوها ، تفيد القطع ، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة .

ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله : إن يدعون من دونه إلى (محيصا) .

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا ﴾

أى : ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثاً ، أى : أوثاناً وأصناما ، مسميات بأسماء الإناث ، كـ « العزى » و« مناة » ونحوها .

ومن المعلوم ، أن الاسم دال على المسمى .

فإذا كانت أسماؤها ، أسماء مؤنثة ناقصة ، دل ذلك ، على نقص المسميات بتلك الأسماء ، وفقدها لصفات الكمال .

كما أخبر الله تعالى ، فى غير موضع من كتابه ، أنها لا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تدفع عن عابديها ، بل ولا عن نفسها ؛ نفعاً ولا ضراً ، ولا تنصر أنفسها ممن يريدها بسوء ، وليس لها أسماع ، ولا أبصار ، ولا أفئدة .

فكيف يعبد ، من هذا وصفه ، ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا والحمد والكمال ، والمجد ، والجلال ، والعز ، والجمال ، والرحمة ، والبر ، والإحسان ، والانفراد بالخلق والتدبير ، والحكمة العظيمة فى الأمر والتقدير ؟!!

هل هذا إلا من أقبح القبيح ، الدال على نقص صاحبه ، وبلوغه من الخسة والدناءة ، أدنى ما يتصوره متصور ، أو يصفه واصف ؟ ! !.

ومع هذا فعبادتهم ، إنما صورتها فقط ، لهذه الأوثان الناقصة .

وبالحقيقة ، ما عبدوا غير الشيطان ، الذي هو عدوهم ، الذى يريد إهلاكهم ، ويسعى فى ذلك بكل ما يقدر عليه ، الذى هو فى غاية البعد من الله ، لعنه الله وأبعده عن رحمته .

فكما أبعده الله من رحمته ، يسعى فى إبعاد العباد عن رحمة الله .

شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ

[إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير] .

ولهذا أخبر الله عن سعيه ، فى إغواء العباد ، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسما .

[لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً] أى : مقدراً .

علم اللعين ، أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله ، وأن عباد الله المخلصين ، ليس له عليهم سلطان .

وإنما سلطانه ، على من تولاه ، وآثر طاعته على طاعة مولاه .

وأقسم فى موضع آخر ليغوينهم فقال: [لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين] .

فهذا الذى ظنه الخبيث وجزم به ، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله :

[ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ، فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين] .

وهذا النصيب المفروض ، الذى أقسم ليتخذنه منهم ، ذكر ما يريده بهم ، وما يقصده لهم بقوله :

[ولأضلنهم] أى : عن الصراط المستقيم ، ضلالا فى العلم ، وضلالا فى العمل .

[ولأمنينهم] أى : مع الإضلال ، لأمنينهم أن ينالوا ، ما ناله المهتدون .

وهذا هو الغرور بعينه .

ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا

فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ، ما هم فيه من الضلال .

وهذا زيادة شر إلى شرهم ، حيث عملوا أعمال أهل النار ، الموجبة للعقوبة ، وحسبوا أنها موجبة للجنة .

واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم ، فإنهم كما حكى الله عنهم .

[وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيهم وكذلك زينا لكل أمة عملهم] ، [قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً] الآيات :

وقال تعالى عن المنافقين أنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين :

[ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور] .

وقوله [ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام] أى : بتقطيع آذانها ، وذلك كالبحيرة ، والسائبة والوصيلة ، والحام ، فنبه ببعض ذلك على جميعه .

وهذا نوع من الإضلال ، يقتضى تحريم ما أحل الله ، أو تحليل ما حرم الله .

ويلتحق بذلك ، من الاعتقادات الفاسدة ، والأحكام الجائرة ، ماهو من أكبر الإضلال .

[ولآمرنهم فليغيرن خلق الله] وهذا يتناول الخلقة الظاهرة ، بالوشم ، والوشر ، والنمص ، والتفليج للحسن ، ونحو ذلك ، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن .

مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ

وذلك يتضمن التسخط من خلقته ، والقدح فى حكمته ، واعتقاد أن مايصنعونه بأيديهم ، أحسن من خلقة الرحمن ، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره .

ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة .

فإن الله تعالى خلق عباده ، حنفاء مفطورين ، على قبول الحق ، وإيثاره فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل ، وزينت لهم [illegible] والشرك ، والكفر ، والفسوق ، والعصيان .

فإن كل مولود يولد على الفطرة ، ولكن أبواه ، يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه ، ونحو ذلك ، مما يغيرون به ، ما فطر الله عليه العباد ، من توحيده ، وحبه ومعرفته .

فافترستهم الشياطين فى هذا الموضع ، افتراس السبع والذئاب ، للغنم المنفردة .

ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين ، لجرى عليهم ، ما جرى على هؤلاء المفتونين ، فخسروا الدنيا والآخرة ، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة

وهذا الذى جرى عليهم ، من توليهم عن ربهم وفاطرهم ، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر ، من كل وجه .

ولهذا قال [ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فقد خسر خسراناً مبيناً] .

وأى خسار أبين وأعظم ، ممن خسر دينه ودنياه ، وأوبقته معاصيه وخطاياه ؟ ! !

وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

فحصل له الشقاء الأبدى ، وفاته النعيم السرمدى .

كما أن من تولى مولاه ، وآثر رضاه ، ربح كل الربح ، وأفلح كل الفلاح ، وفاز بسعادة الدارين ، وأصبح قرير العين .

اللهم ، فلا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت .

اللهم تولنا فيمن توليت ، وعافنا فيمن عافيت .

ثم قال [يعدهم ويمنيهم] أى : يعد الشيطان من يسعى فى إضلالهم .

والوعد ، يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى [الشيطان يعدكم الفقر] .

فإنه يعدهم — إذا أنفقوا فى سبيل الله ، افتقروا .

ويخوفهم إذا جاهدوا ، بالقتل وغيره كما قال تعالى :

[إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه] الآية .

ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله ، بكل ما يمكن ، وما لا يمكن ، مما يدخله فى عقولهم ، حتى يكسلوا عن فعل الخير .

وكذلك يمنيهم الأمانى الباطلة ، التى هى — عند التحقيق — كالسراب الذى لا حقيقة له .

ولهذا قال [وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . أولئك مأواهم جهنم] أى : من انقاد للشيطان ، وأعرض عن ربه ، وصار من أتباع إبليس وحزبه ، مستقرهم النار .

[ولا يجدون عنها محيصا] أى : مخلصاً ولا ملجأ ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ

ولما بين مآل الأشقياء، أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال : والذين آمنوا : الآية .

* أى : [آمنوا] بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، خيره وشره، على الوجه الذى أمروا به، علماً، وتصديقاً، وإقراراً .

[وعملوا الصالحات] الناشئة عن الإيمان .

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب، ومستحب، الذى على القلب، والذى على اللسان، والذى على بقية الجوارح .

كل له، من الثواب المرتب على ذلك، بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح .

ويقويه، ما رتب على ذلك، بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل .

وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته .

وكذلك وعده الصادق، الذى يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله .

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله :

[سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار] فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المآكل، والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابغة

تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

وتزاور الإخوان ، وتذكرهم ما كان منهم ، فى رياض الجنات .

وأعلى من ذلك وأجل ، رضوان الله عليهم ، وتمتع الأرواح بقربه ، والعيون برؤيته ، والأسماع بخطابه ، الذى ينسيهم كل نعيم وسرور .

ولولا الثبات من الله لهم ، لطاروا ، وماتوا من الفرح والحبور .

فلله ما أحلى ذلك النعيم ، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم ، وماحصل لهم ، من كل خير وبهجة ، لا يصفه الواصفون .

وتمام ذلك وكماله ، الخلود الدائم ، فى تلك المنازل العاليات ، ولهذا قال :

[خالدين فيها أبدا . وعد الله حقاً ، ومن أصدق من الله قيلا].

فصدق الله العظيم ، الذى بلغ قوله وحديثه فى الصدق ، أعلى مايكون .

ولهذا لما كان كلامه صدقا ، وخبره صدقا — كان مايدل عليه ، مطابقة ، وتضمناً ، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه .

وكذلك كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكونه لايخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه .

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

---

* أى : [ليس] الأمر والنجاة والتزكية [بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب] .

والأمانى : أحاديث النفس المجردة عن العمل ، المقترن بها ، دعوى مجردة ، لو عورضت بمثلها ، لكانت من جنسها .

وهذا عام فى كل أمر .

فكيف بأمر الإيمان ، والسعادة الأبدية ؟ !.

فإن أمانى أهل الكتاب ، قد أخبر الله بها ، أنهم قالوا :

[لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم]

وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ، ولا رسول ، من باب أولى وأحرى .

وكذلك أدخل الله فى ذلك من ينتسب إلى الإسلام ، لكمال العدل والإنصاف .

فإن مجرد الانتساب إلى أى دين كان ، لا يفيد شيئاً ، إن لم يأت الإنسان ببرهان ، على صحة دعواه .

فالأعمال تصدق الدعوى ، أو تكذبها ، ولهذا قال تعالى : [من يعمل سوءا يجز به] وهذا شامل لجميع العاملين .

لأن السوء شامل ، لأى ذنب كان ، من صغائر الذنوب ، وكبائرها .

وشامل أيضاً ، لكل جزاء ، قليل ، أو كثير ، دنيوى ، أوأخروى.

والناس فى هذا المقام درجات ، لايعلمها إلا الله ، فمستقل ومستكثر .

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

فمن كان عمله كله سوءا ، وذلك لايكون إلا كافراً .

فإذا مات من دون توبة ، جوزى بالخلود فى العذاب الأليم .

ومن كان عمله صالحاً ، وهو مستقيم فى غالب أحواله ، وإنما يصدر منه أحيانا بعض الذنوب الصغار ، فما يصيبه من الهم ، والغم ، والأذى ، وبعض الآلام ، فى بدنه ، أو قلبه ، أو حبيبه ، أو ماله ، ونحو ذلك — فإنها مكفرات للذنوب ، لطفا من الله بعباده .

وبين هذين الحالين مراتب كثيرة .

وهذا الجزاء ، على عمل السوء العام ، مخصوص فى غير التائبين .

فإن التائب من الذنب ، كمن لاذنب له ، كما دلت على ذلك النصوص .

وقوله [ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً] لإزالة بعض ما لعله يتوهم ، أن من استحق المجازاة على عمله ، قد يكون له ولى ، أو ناصر ، أو شافع ، يدفع عنه ما استحقه .

فأخبر تعالى ، بانتفاء ذلك ، فليس له ولى ، يحصل له المطلوب ، ولا نصير يدفع عنه المرهوب ، إلا ربه ومليكه .

[ومن يعمل من الصالحات] دخل فى ذلك ، سائر الأعمال القلبية والبدنية .

. . . .

ودخل أيضا ، كل عامل ، من إنس ، أو جن ، صغير ، أو كبير ، ذكر ، أو أنثى .

ولهذا قال [من ذكر أو أنثى وهو مؤمن] وهذا شرط لجميع الأعمال لاتكون صالحة ، ولا تقبل ، ولايترتب عليها الثواب ، ولايندفع بها العقاب ، إلا بالإيمان .

فالأعمال بدون الإيمان ، كأغصان شجرة ، قطع أصلها ، وكبناء ، بني على موج الماء .

فالإيمان ، هو الأصل والأساس ، والقاعدة ، التي يبنى عليها كل شيء .

وهذا القيد ، ينبغي التفطن له ، في كل عمل مطلق ، فإنه مقيد به .

[فأولئك] أي : الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح .

[يدخلون الجنة] المشتملة على ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين .

[ولا يظلمون نقيرا] أي : لا قليلا ولا كثيراً ، مما عملوه من الخير .

بل يجدونه كاملا موفرا ، مضاعفاً أضعافاً كثيرة .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾

☆ أى : لا أحد أحسن من دين ، من جمع بين الإخلاص للمعبود ،وهو : إسلام الوجه لله ، الدال على استسلام القلب وتوجهه ، وإنابته ، وإخلاصه وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله .

[وهو] مع هذا الإخلاص والاستسلام[محسن] أى : متبع لشريعة الله ، التى أرسل الله بها رسله ، وأنزل كتبه ، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم .

[واتبع ملة إبراهيم] أى : دينه وشرعه [حنيفاً] أى : مائلا عن الشرك إلى التوحيد ، وعن التوجه للخلق ، إلى الإقبال على الخالق .

[واتخذ الله إبراهيم خليلا] والخلة أعلى أنواع المحبة .

وهذه المرتبة ، حصلت للخليلين ،محمد ،وإبراهيم،عليهما الصلاة والسلام.

وأما المحبة من الله ، فهى لعموم المؤمنين .

وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلا ، لأنه وفى بما أمر به ، وقام بما ابتلى به .

فجعله الله إماما للناس ، واتخذه خليلا ، ونوه بذكره فى العالمين .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

---

* وهذه الآية الكريمة ، فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء .

فأخبر أنه له [ما فى السموات وما فى الأرض]

أى : الجميع ملكه وعبيده .

فهم المملوكون ، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم .

وقد أحاط علمه بجميع المعلومات ، وبصره بجميع المبصرات ، وسمعه بجميع المسموعات ، ونفذت مشيئته وقدرته ، بجميع الموجودات ، ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات ، وقهر بعزه وقهره ، كل مخلوق ، ودانت له جميع الأشياء .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ

---

* الاستفتاء : طلب السائل من المسئول ، بيان الحكم الشرعى فى ذلك المسئول عنه .

فأخبر عن المؤمنين ، أنهم يستفتون الرسول صلى الله عليه وسلم ،فى حكم النساء المتعلق بهم فتولى الله هذه الفتوى بنفسه فقال :

[قل الله يفتيكم فيهن] فاعملوا على ما أفتاكم به ، فى جميع شئون النساء ، من القيام بحقوقهن ، وترك ظلمهن ،عموما وخصوصا .

وهذا أمر عام ،يشمل جميع ما شرع الله ، أمراً ، ونهياً ،فى حق النساء ، الزوجات وغيرهن ، الصغار والكبار .

ثم خص — بعد التعميم — الوصية بالضعاف ، من اليتامى ، والولدان، اهتماماً بهم ، وزجراً عن التفريط فى حقوقهم فقال :

[وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء] أى : ويفتيكم أيضاً ، بما يتلى عليكم فى الكتاب ، فى شأن اليتامى من النساء .

[اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن] .

وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة فى ذلك الوقت .

فإن اليتيمة ، إذا كانت تحت ولاية الرجل ، بخسها حقها ، وظلمها ، إما بأكل مالها الذى لها ، أو بعضه ، أو منعها من التزوج ، لينتفع بما لها ، خوفا من استخراجه من يده ، إن زوجها ، أو يأخذ من صهرها، الذى تتزوج به ، بشرط أو غيره ، هذا إذا كان راغباً عنها .

لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

أو يرغب فيها وهى ذات جمال ومال ، ولا يقسط فى مهرها ، بل يعطيها دون ما تستحق .

فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص ، ولهذا قال : [وترغبون أن تنكحوهن] أى : ترغبون عن نكاحهن ، أو فى نكاحهن كما ذكرنا تمثيله .

[والمستضعفين من الولدان] أى : ويفتيكم فى المستضعفين من الولدان الصغار ، أن تعطوهم حقهم ، من الميراث ، وغيره ، وأن لا تستولوا على أموالهم ، على وجه الظلم والاستبداد .

[وأن تقوموا لليتامى بالقسط] أى : بالعدل التام .

وهذا يشمل القيام عليهم ، بإلزامهم أمر الله ، وما أوجبه على عباده ، فيكون الأولياء ، مكلفين بذلك ، يلزمونهم بما أوجبه الله .

ويشمل القيام عليهم ، فى مصالحهم الدنيوية ، بتنمية أموالهم ، وطلب الأحظ لهم فيها ، وأن لا يقربوها إلا بالتى هى أحسن .

وكذلك لا يحابون فيهم ، صديقا ولا غيره ، فى تزوج وغيره ، على وجه الهضم لحقوقهم

وهذا من رحمته تعالى بعباده ، حيث حث غاية الحث ، على القيام بمصالح ، من لا يقوم بمصلحة نفسه ، لضعفه ، وفقد أبيه .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ

ثم حث على الإحسان عموماً ، فقال :

[وما تفعلوا من خير] لليتامى ولغيرهم ، سواء كان الخير متعديا ، أو لازماً .

[فإن الله كان به عليما] أى : قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير ، قلة وكثرة ، حسنا وضده ، فيجازى كلا بحسب عمله .

* أى : إذا خافت المرأة نشوز زوجها ، أى ترفعه عنها ، وعدم رغبته فيها ، وإعراضه عنها ، فالأحسن فى هذه الحالة ، أن يصلحا بينهما صلحاً ، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها ، على وجه تبقى مع زوجها.

إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة ،أو الكسوة،أو المسكن، أو القسم ، بأن تسقط حقها منه .

أو تهب يومها وليلتها ، لزوجها ، أو لضرتها .

فإذا اتفقا على هذه الحالة ، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها ، لا عليها ، ولا على الزوج .

فيجوز حينئذ لزوجها ، البقاء معها على هذه الحال ، وهى خير من الفرقة.

ولهذا قال : [والصلح خير] .

ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى ، أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة فى جميع الأشياء ، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه ، لما فيه من الإصلاح ، وبقاء الألفة ، والاتصاف بصفة السماح .

ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

وهو جائز فى جميع الأشياء ، إلا إذا أحل حراماً ، أو حرم حلالا ، فإنه لا يكون صلحاً ، وإنما يكون جوراً .

واعلم أن كل حكم من الأحكام ، لا يتم ، ولا يكمل ، إلا بوجود مقتضيه ، وانتفاء موانعه .

فمن ذلك ، هذا الحكم الكبير ، الذى هو الصلح .

فذكر تعالى المقتضى لذلك ، ونبه على أنه خير ، والخير كل عامل يطلبه ، ويرغب فيه .

فإن كان — مع ذلك — قد أمر الله به ، وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ، ورغبة فيه .

وذكر المانع بقوله [وأحضرت الأنفس الشح] أى : جبلت النفوس على الشح ، وهو : عدم الرغبة فى بذل ما على الإنسان ، والحرص على الحق الذى له .

فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً .

أى ينبغى لكم ، أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنىء ، من نفوسكم ، وتستبدلوا به ، ضده وهو : السماحة ، وهو بذل الحق الذى عليك ، والاقتناع ببعض الحق الذى لك .

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن ، سهل — حينئذ — عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله ، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب .

بخلاف من لم يجتهد فى إزالة الشح من نفسه ، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة ، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله ، ولا يرضى أن يؤدى ما عليه .

فإن كان خصمه مثله ، اشتد الأمر .

ثم قال: [وإن تحسنوا وتتقوا] أى : تحسنوا فى عبادة الخالق ، بأن يعبد العبد ربه ، كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه .

وتحسنوا إلى المخلوقين ، بجميع طرق الإحسان ، من نفع بمال ، أو علم ، أو جاه ، أو غير ذلك .

[وتتقوا] الله ، بفعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات .

أو تحسنوا بفعل المأمور ، وتتقوا بترك المحظور .

[فإن الله كان بما تعملون خبيراً] قد أحاط به ، علما وخبرا ، بظاهره وباطنه ، فيحفظه لكم ، ويجازيكم عليه ، أتم الجزاء .

* يخبر تعالى : أن الأزواج لا يستطيعون ، وليس فى قدرتهم العدل التام بين النساء .

وذلك ، لأن العدل : يستلزم وجود المحبة على السواء ، والداعى على السواء ، والميل فى القلب إليهن على السواء ، ثم العمل بمقتضى ذلك .

وهذا متعذر غير ممكن ، فلذلك عفا الله ، عما لا يستطاع[1] ونهى عما هو ممكن بقوله :

---

(١) فى الأصل (لا يستطيع) وهو خطأ ، فأصلحناه كما ترى لينتظم الكلام .

فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

[فلا تميلو كل الميل فتذروها كالمعلقة] أى : لا تميلوا ميلا كثيراً ، بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة .

بل افعلوا ما هو باستطاعتكم فى العدل .

فالنفقة والكسوة ، والقسم ونحوها ، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها .

بخلاف الحب ، والوطء ونحو ذلك ، فإن الزوجة ، إذا ترك زوجها ، ما يجب لها ، صارت كالمعلقة ، التى لا زوج لها فتستريح وتستعد للتزوج ، ولا ذات زوج ، يقوم بحقوقها .

[وإن تصلحوا] ما بينكم وبين زوجاتكم .

وبإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس ، احتساباً وقياماً بحق الزوجة .

وتصلحوا أيضا ، فيما بينكم وبين الناس .

وتصلحوا أيضا بين الناس ، فيما تنازعوا فيه .

وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقا كما تقدم .

[وتتقوا] الله بفعل المأمور وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

[فإن الله كان غفورا رحيما] يغفر ما صدر منكم ، من الذنوب ، والتقصير فى الحق الواجب ، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن .

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

---

* هذه الحالة الثالثة بين الزوجين ، إذا تعذر الاتفاق ، فإنه لا بأس بالفراق.

فقال[1] [وإن يتفرقا] أى: بطلاق ، أو فسخ ، أو خلع ، أو غير ذلك.
[يغن الله كلا] من الزوجين [من سعته] أى : من فضله ، وإحسانه الواسع الشامل .

فيغنى الزوج بزوجة ، خير له منها ، ويغنيها من فضله .

وإن انقطع نصيبها من زوجها ، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق ، القائم بمصالحهم ، ولعل الله يرزقها ، زوجا خيرا منه .

[وكان الله واسعاً] أى : كثير الفضل ، واسع الرحمة .

وصلت رحمته وإحسانه ، إلى حيث وصل إليه علمه .

وكان — مع ذلك — [حكيما] أى : يعطى بحكمته ، ويمنع لحكمته .

[فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده ، من إحسانه ، بسبب في العبد ، لا يستحق معه الإحسان — حرمه ، عدلا وحكمة .

---

(١) قوله (فقال) الأحسن أن يقال (ولذا قال) لأن المقام مقام تعليل.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَإِن

---

* يخبر تعالى ، عن عموم ملكه العظيم الواسع ، المستلزم تدبيره ، بجميع أنواع التدبير ، وتصرفه بأنواع التصريف ، قدرا ، وشرعا .

فتصرفه الشرعى ، أن وصى الأولين والآخرين ، أهل الكتب السابقة واللاحقة ـ بالتقوى المتضمنة للأمر والنهى ، وتشريع الأحكام ، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية ، بالثواب ، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها ، بأليم العذاب .

ولهذا **قال** [وإن تكفروا] بأن تتركوا تقوى الله ، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فإنكم لا تضرون بذلك ، إلا أنفسكم ، ولا تضرون الله شيئاً ، ولاتنقصون ملكه .

وله عبيد خيرمنكم ، وأعظم ، وأكثر ، مطيعون له ، خاضعون لأمره .

ولهذا رتب على ذلك قوله [وإن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً] له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته ، التى لا ينقصها الإنفاق ، ولا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار .

لو اجتمع أهل السماوات ، وأهل الأرض ، أولهم وآخرهم ، فسأل كل واحد منهم ، ما بلغت أمانيه ، ما نقص من ملكه شيئاً .

ذلك بأنه جواد واجد ماجد ، عطاؤه كلام ، وعذابه كلام .

إنما أمره لشىء إذا أراد شيئاً ، أن يقول له كن فيكون .

ومن تمام غناه ، أنه كامل الأوصاف .

إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه ، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال .

بل ، له كل صفة كمال ، ومن تلك الصفة كمالها .

ومن تمام غناه ، أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولا شريكا فى ملكه ، ولا ظهيراً ، ولا معاوناً له على شيء ، من تدابير ملكه .

ومن كمال غناه ، افتقار العالم العلوى والسفلى ، فى جميع أحوالهم وشئونهم ، إليه ، وسؤالهم إياه ، جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة .

فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة ، وأغناهم وأقناهم ، ومن عليهم بلطفه ، وهداهم .

وأما الحميد ، فهو من أسماء الله تعالى الجليلة ، الدال على أنه هو المستحق لكل حمد ، ومحبة ، وثناء وإكرام .

وذلك لما اتصف به من صفات الحمد ، التى هى صفة الجمال والجلال ، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال ، فهو المحمود على كل حال .

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين [الغنى الحميد] ! !

فإنه غنى محمود ، فله كمال من غناه ، وكمال من حمده ، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر .

ثم كرر إحاطة ملكه ، لما فى السموات والأرض ، وأنه على كل شيء وكيل .

حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴿١٣٢﴾

أى : عالم قائم بتدبير الأشياء ، على وجه الحكمة ، فإن ذلك ، من تمام الوكالة .

فإن الوكالة تستلزم العلم ، بما هو وكيل عليه ، والقوة ، والقدرة على تنفيذه وتدبيره وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة .

فما نقص من ذلك ، فهو لنقص بالوكيل .

والله تعالى منزه عن كل نقص .

أى : هو الغنى الحميد الذى له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم .

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

☆ [إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين] غيركم ، هم أطوع لله منكم وخير منكم .

وفى هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم ، وإعراضهم عن ربهم ، فإن الله لا يعبأ بهم شيئاً ، إن لم يطيعوه ، ولكنه يمهل ، ويملى ، ولا يهمل.

ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية ، غير متجاوزة ثواب الدنيا ، وليس له إرادة فى الآخرة ، فإنه قد قصر سعيه ونظره ، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا ، سوى ما كتب الله له منها .

فإنه تعالى ، هو المالك لكل شيء ، الذى عنده ثواب الدنيا والآخرة ، فليطلبا منه ، وليستعن به عليهما .

فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به ، والافتقار إليه على الدوام .

وله الحكمة تعالى ، فى توفيق من يوفقه ، وخذلان من يخذله ، وفى إعطائه ومنعه .

ولهذا قال [وكان الله سميعاً بصيرا] .

ثم قال تعالى [يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين] الآيتين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا [قوامين بالقسط شهداء لله] .

والقوام ، صيغة مبالغة ، أى : كونوا فى كل أحوالكم ، قائمين بالقسط ، الذى هو العدل فى حقوق الله ، وحقوق عباده .

فالقسط فى حقوق الله ، أن لا يستعان بنعمه على معصيته ، بل تصرف فى طاعته .

والقسط فى حقوق الآدميين ، أن تؤدى جميع الحقوق التى عليك ، كما تطلب حقوقك .

فتؤدى النفقات الواجبة ، والديون ، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، من الأخلاق والمكافأة ، وغير ذلك .

ومن أعظم أنواع القسط ، القسط فى المقالات والقائلين .

فلا يحكم لأحد القولين ، أو أحد المتنازعين ، لانتسابه أو ميله لأحدهما .

بل يجعل وجهته ، العدل بينهما .

ومن القسط أداء الشهادة ، التى عندك على أى وجه كان ، حتى على الأحباب ، بل على النفس ، ولهذا قال : [شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما] .

أي : فلا تراعوا الغنى لغناه ، ولا الفقير — بزعمكم — رحمة له .

بل اشهدوا بالحق ، على من كان .

والقيام بالقسط ، من أعظم الأمور ، وأدلها على دين القائم به ، وورعه ومقامه فى الإسلام .

فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

فيتعين على من نصح نفسه ، وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام ، وأن يجعله نصب عينيه ، ومحل إرادته ، وأن يزيل عن نفسه ، كل مانع وعائق يعوقه ، عن إرادة القسط ، أو العمل به .

وأعظم عائق لذلك ، اتباع الهوى ، ولهذا ، نبه تعالى ، على إزالة هذا المانع بقوله :

[فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا] أى : فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق .

فإنكم — إن اتبعتموها ، عدلتم عن الصواب ، ولم توفقوا للعدل .

فإن الهوى ، إما أن يعمى بصيرة صاحبه ، حتى يرى الحق باطلا ، والباطل حقاً .

وإما أن يعرف الحق ويتركه ، لأجل هواه .

فمن سلم من هوى نفسه ، وفق للحق ، وهدى إلى الصراط المستقيم .

ولما بين أن الواجب ، القيام بالقسط ، نهى عن ما يضاد ذلك ، وهو لي اللسان عن الحق ، فى الشهادات وغيرها ، وتحريف النطق ، عن الصواب المقصود من كل وجه ، أو من بعض الوجوه .

ويدخل فى ذلك ، تحريف الشهادة ، وعدم تكميلها ، أو تأويل الشاهد على أمر آخر .

فإن هذا ، من اللى ، لأنه الانحراف عن الحق .

[أو تعرضوا] أى : تتركوا القسط المنوط بكم ، كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه ، الذى يجب عليه القيام به .

[فإن الله كان بما تعملون خبيراً] أى : محيطاً بما فعلتم ، يعلم أعمالكم، خفيها وجليها .

وفى هذا تهديد شديد ، للذى يلوى أو يعرض .

ومن باب أولى ، الذى يحكم بالباطل ، أو يشهد بالزور ، لأنه أعظم جرماً .

لأن الأولين ، تركا الحق ، وقام هو بالباطل .

* اعلم أن الأمر ، إما أن يوجه إلى من لم يدخل فى الشىء ولم يتصف بشىء منه . فهذا يكون أمراً له ، فى الدخول فيه .

وذلك كأمر من ليس بمؤمن بالإيمان كقوله تعالى :

[يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم] الآية .

وإما أن يوجه إلى من دخل فى الشىء ، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد .

ومنه ماذكره الله فى هذه الآية ، من أمر المؤمنين بالإيمان .

فإن ذلك يقتضى أمرهم بما يصحح إيمانهم ، من الإخلاص والصدق ، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات .

ويقتضى أيضاً ، الأمر بما لم يوجد من المؤمن ، من علوم الإيمان وأعماله.

فإنه كلما وصل إليه نص ، وفهم معناه ، واعتقده ، فإن ذلك من المأمور به .

ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

وكذلك سائر الأعمال الظاهرة ، والباطنة ، كلها من الإيمان ، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة ، وأجمع عليه سلف الأمة .

ثم الاستمرار على ذلك ، والثبات عليه إلى الممات كما قال تعالى :

[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون] .

وأمر هنا بالإيمان به ، وبرسله ، وبالقرآن ، وبالكتب المتقدمة .

فهذا كله من الإيمان الواجب ، الذى لايكون العبد مؤمنا إلا به .

إجمالا فيما لم يصل إليه تفصيله ، وتفصيلا فيما علم من ذلك بالتفصيل .

فمن آمن هذا الإيمان المأمور به ، فقد اهتدى وأنجح .

[ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً] .

وأى ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم ، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم ؟ ! !

واعلم أن الكفر بشىء من هذه الأمور المذكورة ، كالكفر بجميعها ، لتلازمها ، وامتناع وجود الإيمان ببعضها ، دون بعض .

ثم قال [إن الذين آمنوا ثم كفروا] الآية .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾

☆ أى : من تكرر منه الكفر بعد الإيمان ، فاهتدى ، ثم ضل وأبصر ، ثم عمى وآمن ، ثم كفر واستمر على كفره ، وازداد منه ، فإنه بعيد من التوفيق والهداية ، لأقوم الطريق ، وبعيد عن المغفرة ، لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها .

فإن كفره ، يكون عقوبة وطبعاً ، لايزول كما قال تعالى [فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم] .

[ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة] .

ودلت الآية : أنهم ، إن لم يزدادوا كفرا ، بل رجعوا إلى الإيمان ، وتركوا ما هم عليه من الكفران ، فإن الله يغفر لهم ، ولو تكررت منهم الردة .

وإذ كان هذا الحكم فى الكفر ، فغيره — من المعاصى التى دونه — من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ، ثم عاد إلى التوبة ، عاد الله له بالمغفرة .

۞ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ

---

* البشارة ، تستعمل فى الخير[1] ، وتستعمل فى الشر بقيد ، كما فى هذه الآية .

يقول تعالى [بشر المنافقين] أى : الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، بأقبح بشارة وأسوإها ، وهو العذاب الأليم .

---

(١) قوله (وتستعمل البشارة فى الخير ، وتستعمل فى الشر بقيد) أي : لنكتة بلاغية وهى إرادة السخرية بهؤلاء المجرمين على حد قوله تعالى (هذا نزلهم يوم الدين).

ومعلوم أن النزل هو البيت الذى يكرم فيه الأضياف كالفنادق ونحوها ولاشك أن تسمية (جهنم) التى هى مأوى العصاة — نزلا لتزيد حسراتهم ويتضاعف عذابهم ، لأنهم لم يسلكوا سبيل المؤمنين .

ومراد القول فى استقصاء الكلام فى هذا الموضوع ، وإيراد الشواهد من القرآن وكلام العرب — فسيح ، ومجاله واسع ، لا تتسع له هذه العجالة .

ومن أراد الاستقصاء ، فليرجع إلى تفسير الزمخشرى المعروف بالكشاف وإلى تفسير الآلوسى .

والمقصود أن استعمال البشارة فى الشر استعمال مجازى بدليل القيد المشروط فيه ، والقيود لا يفتقر إليها إلا المجاز .

قال فى الصحاح : البشارة المطلقة لا تكون إلا بخير ، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة ، كقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) اهـ .

يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

وذلك بسبب محبتهم الكفار ، وموالاتهم ، ونصرتهم ، وتركهم لموالاة المؤمنين .

فأى شيء حملهم على ذلك ؟ أيبتغون عندهم العزة ؟ .

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين .

ساء ظنهم بالله ، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين .

ولحظوا بعض الأسباب ، التى عند الكافرين ، وقصر نظرهم عما وراء ذلك .

فاتخذوا الكافرين أولياء ، يتعززون بهم ، ويستنصرون .

والحال أن العزة لله جميعاً ، فإن نواصى العباد بيده ، ومشيئته نافذة فيهم .

وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين ، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين .

وإدالة العدو عليهم ، إدالة ، غير مستمرة ، فإن العاقبة والاستقرار ، للمؤمنين .

وفى هذه الآية ، الترهيب العظيم من موالاة الكافرين ؛ وترك موالاة المؤمنين ، وأن ذلك ، من صفات المنافقين .

وأن الإيمان يقتضى محبة المؤمنين وموالاتهم ، وبغض الكافرين وعداوتهم .

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ

---

* أى : وقد بين الله لكم — فيما أنزل عليكم — حكمه الشرعى عند حضور مجالس الكفر والمعاصى [أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها] أى : يستهان بها .

وذلك أن الواجب على كل مكلف فى آيات الله ، الإيمان بها ، وتعظيمها وإجلالها ، وتفخيمها .

وهذا هو المقصود بإنزالها ، وهو الذى خلق الله الخلق لأجله .

فضد الإيمان ، الكفر بها ، وضد تعظيمها ؛ الاستهزاء بها واحتقارها.

ويدخل فى ذلك ، مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم .

وكذلك المبتدعون ، على اختلاف أنواعهم .

فإن احتجاجهم على باطلهم ، يتضمن الاستهانة بآيات الله ، لأنها لا تدل إلا على الحق ، ولا تستلزم إلا صدقا .

بل وكذلك يدخل فيه ، حضور مجالس المعاصى والفسوق ، التى يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه ، وتقتحم حدوده التى حدها لعباده .

ومنتهى هذا النهى عن القعود معهم [حتى يخوضوا فى حديث غيره] أى : غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها .

فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ

[إنكم إذا] أى : إن قعدتم معهم فى الحال المذكور [مثلهم] لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم ، والراضى بالمعصية ، كالفاعل لها .

والحاصل أن من حضر مجلساً ، يعصى الله به[1] ، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم ، مع القدرة ، أو القيام مع عدمها .

[إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً] كما اجتمعوا على الكفر والموالاة .

ولا ينفع المنافقين مجرد كونهم — فى الظاهر — مع المؤمنين كما قال تعالى :

[يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ، انظرونا نقتبس من نوركم] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر تحقيق موالاة المنافقين للكافرين ، ومعاداتهم للمؤمنين فقال:

[الذين يتربصون بكم] أى : ينتظرون الحالة التى تصيرون عليها ، وتنتهون إليها ، من خير أو شر ، قد أعدوا لكل حالة جوابا بحسب نفاقهم.

[فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم] .

فيظهرون أنهم مع المؤمنين ، ظاهرا وباطنا ، ليسلموا من القدح والطعن عليهم ، وليشركوهم فى الغنيمة والفىء ، ولينتصروا بهم .

---

(١) لعل الصواب فيه .

بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

[وان كان للكافرين نصيب] ولم يقل فتح ، لأنه لايحصل لهم فتح ، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة .

بل غاية ما يكون ، أن يكون لهم نصيب غير مستقر ، حكمة من الله .

فإذا كان ذلك [قالوا ألم نستحوذ عليكم] أى : نستولى عليكم [ونمنعكم من المؤمنين] .

أى : يتصنعون عندهم ، بكف أيديهم عنهم ، مع القدرة ، ومنعهم من المؤمنين ، بجميع وجوه المنع فى تنفيرهم ، وتزهيدهم فى القتال ، ومظاهرة الأعداء عليهم ، وغير ذلك ، مما هو معروف منهم .

[فالله يحكم بينكم يوم القيمة] فيجازى المؤمنين ، ظاهراً وباطنا ، بالجنة ، ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات .

[ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا] أى : تسلطا واستيلاء عليهم .

بل لاتزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة ، لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم .

ولايزال الله ، يحدث من أسباب النصر للمؤمنين ، ودفع تسليط الكافرين ، ماهو مشهود بالعيان .

حتى إن بعض المسلمين ، الذين تحكمهم الطوائف الكافرة ، قد بقوا محترمين لايتعرضون لأديانهم ، ولا يكونون مستصغرين عندهم .

بل لهم العز التام من الله ، فلله الحمد ، أولا وآخراً ، وظاهراً وباطناً .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا

☆ يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه ، من قبيح الصفات ، وشنائع السمات .

وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى ، أى : بما أظهروه من الإيمان ، وأبطنوه من الكفران .

ظنوا أنه يروج على الله ، ولا يعلمه ، ولا يبديه لعباده ، والحال أن الله خادعهم .

فمجرد وجود هذه الحال منهم ، ومشيهم عليها ، خداع لأنفسهم .

وأى خداع أعظم ، ممن يسعى سعيا ، يعود عليه بالهوان والذل والحرمان ؟!! .

ويدل — بمجرده — على نقص عقل صاحبه ، حيث جمع بين المعصية ، ورآها حسنة ، وظنها من العقل والمكر .

فلله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه !! .

ومن خداعه لهم يوم القيامة ، ما ذكره الله فى قوله :

[يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم] إلى آخر الآيات .

ومن صفاتهم أنهم [إذا قاموا إلى الصلاة] التى هى أكبر الطاعات العملية ، إن قاموا [قاموا كسالى] متثاقلين لها ، متبرمين من فعلها .

قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿١٤٣﴾

والكسل ، لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم .

فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله، وإلى ما عنده، عادمة للإيمان ، لم يصدر منهم الكسل .

[يراءون الناس] أى : هذا الذى انطوت عليه سرائرهم ، وهذا مصدر أعمالهم ، مراءاة الناس .

يقصدون رؤية الناس ، وتعظيمهم ، واحترامهم ، ولا يخلصون لله .

فلهذا [لا يذكرون الله إلا قليلا] لامتلاء قلوبهم من الرياء .

فإن ذكر الله تعالى ، وملازمته ، لا يكون إلا من مؤمن ، ممتلىء قلبه ، بمحبة الله وعظمته .

[مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء] .

أى : مترددين ، بين فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين .

فلا من المؤمنين ظاهرا وباطنا ، ولا من الكافرين ظاهرا وباطنا .

أعطوا باطنهم للكافرين ، وظاهرهم للمؤمنين ، وهذا أعظم ضلال يقدر.

ولهذا قال [ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا] أى : لن تجد طريقاً لهدايته ، ولا وسيلة لترك غوايته ، لأنه انغلق عنه باب الرحمة ، وصار بدله، كل نقمة .

فهذه الأوصاف المذمومة ، تدل — بتنبيهها — على أن المؤمنين ، متصفون بضدها ، من الصدق والإخلاص ، ظاهراً وباطناً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾

وأنهم لايجهل ما عندهم ، من النشاط [1] فى صلاتهم ، وعباداتهم ، وكثرة ذكرهم لله تعالى .

وأنهم قد هداهم الله ، ووفقهم للصراط المستقيم .

فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين ، وليختر أيهما أولى به ، والله المستعان .

* لما ذكر أن من صفات المنافقين ، اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة ، وأن يشابهوا المنافقين ، فإن ذلك موجب لأن [تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً) أى : حجة واضحة على عقوبتكم .

فإنه قد أنذرنا وحذرنا منها ، وأخبرنا بما فيها من المفاسد .

فسلوكها — بعد هذا — موجب للعقاب .

وهذه الآية ، دليل على كمال عدل الله ، وأن الله لا يعذب أحدا ؛ قبل قيام الحجة عليه .

وفيه التحذير من المعاصى ؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً .

---

(١) فى الأصل المطبوع « نشاطهم » وهو خطأ نحوى فلذلك أصلحناها بـ « من النشاط » لأن « ما » تحتاج إلى بيان ، و « من » بيان لها .

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ

---

* يخبر تعالى ، عن مآل المنافقين ، أنهم فى أسفل الدركات من العذاب ، وأشر الحالات من العقاب .

فهم تحت سائر الكفار ، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ، ومعاداة رسله.

وزادوا عليهم ، المكر والخديعة ، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين ، على وجه لا يشعر به ولا يحس .

ورتبوا على ذلك ، جريان أحكام الإسلام عليهم ، واستحقاق ما لا يستحقونه .

فبذلك ونحوه ، استحقوا أشد العذاب .

وليس لهم منقذ من عذابه ، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه .

وهذا عام لكل منافق ، إلا من من الله عليهم بالتوبة من السيئات .

[وأصلحوا] له الظواهر والبواطن [واعتصموا بالله] والتجأوا إليه ، فى جلب منافعهم ، ودفع المضار عنهم .

[وأخلصوا دينهم] الذى هو الإسلام ، والإيمان والإحسان [لله] .

فقصدوا وجه الله ، بأعمالهم الظاهرة والباطنة ، وسلموا من الرياء والنفاق.

فمن اتصف بهذه الصفات [فأولئك مع المؤمنين] أى : فى الدنيا ، والبرزخ ، ويوم القيامة .

[وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما] لا يعلم كنهه إلا الله ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص ، بالذكر ، مع دخولهما فى قوله :

[وأصلحوا] لأن الاعتصام والإخلاص ، من جملة الإصلاح ، لشدة الحاجة إليهما ، خصوصا فى هذا المقام الحرج ، الذى تمكن فيه النفاق من القلوب .

فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله ، ودوام اللجأ والافتقار إليه ، فى دفعه ، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق .

فذكرهما لفضلهما ، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما ، ولشدة الحاجة فى هذا المقام إليهما .

وتأمل كيف — لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين — لم يقل (وسوف يؤتيهم أجرا عظيما ، مع أن السيئات فيهم .

بل قال [وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما] .

لأن هذه القاعدة الشريفة — لم يزل الله يبدىء فيها ويعيد ، إذا كان السياق فى بعض الجزئيات ، وأراد أن يرتب عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركا بينه وبين الجنس الداخل فيه .

رتب[1] الثواب ، فى مقابلة الحكم العام ، الذى تندرج تحته ، تلك القضية وغيرها .

---

(١) قوله (رتب إلخ) جواب (إذا) فى قوله المتقدم (إذا كان السياق . إلخ) .

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

ولئلا يتوهم اختصاص الحكم، بالأمر الجزئى، فهذا من أسرار القرآن البديعة.

فالتائب من المنافقين، مع المؤمنين، وله ثوابهم.

* ثم أخبر تعالى، عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته؛ وإحسانه فقال:

[ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم] والحال أن الله شاكر عليم.

يعطى المتحملين لأجله؛ الأثقال، الدائبين فى الأعمال؛ جزيل الثواب وواسع الإحسان.

ومن ترك شيئاً لله، أعطاه الله خيرا منه.

ومع هذا، يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم، وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك.

وهو يريد التوبة والإنابة منكم والرجوع إليه.

فإذا أنبتم إليه، فأى شىء يفعل بعذابكم؟

فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم.

بل العاصى لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع، لنفسه.

والشكر هو: خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور.

وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، أى : يبغض ذلك ويمقته ، ويعاقب عليه .

ويشمل ذلك ، جميع الأقوال السيئة ، التى تسوء وتحزن ، كالشتم ، والقذف ، والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله ، من المنهي عنه ، الذى يبغضه الله .

ويدل مفهومها ، أنه يحب الحسن من القول ، كالذكر ، والكلام الطيب اللين .

وقوله [إلا من ظلم] أى : فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه ، ويشتكى منه ، ويجهر بالسوء لمن جهر له به ، من غير أن يكذب عليه ، ولا يزيد على مظلمته ، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه .

ومع ذلك ، فعفوه ، وعدم مقابلته ، أولى كما قال تعالى : [فمن عفا وأصلح فأجره على الله] .

[وكان الله سميعاً عليما] ولما كانت الآية ، قد اشتملت على الكلام السيء ، والحسن ، والمباح ، أخبر تعالى ، أنه سميع ، فيسمع أقوالكم ، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم .

* وفيه أيضا ترغيب على القول الحسن [عليم] بنياتكم ومصدر أقوالكم .

ثم قال تعالى [إن تبدوا خيرا أو تخفوه] وهذا يشمل كل خير ، قولى ، وفعلى ، ظاهر ، وباطن ، من واجب ، ومستحب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

[أو تعفوا عن سوء] أى : عمن أساء إليكم[1] فى أبدانكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، فتسمحوا عنه ، فإن الجزاء من جنس العمل .

فمن عفا لله ، عفا الله عنه ، ومن أحسن ، أحسن الله إليه ، فلهذا قال :

[فإن الله كان عفوا قديراً] أى : يعفو عن زلات عباده ، وذنوبهم العظيمة ، فيسدل عليهم ستره ، ثم يعاملهم بعفوه التام ، الصادر عن قدرته .

وفى هذه الآية ، إرشاد إلى التدبر[2] فى معانى أسماء الله وصفاته ، وأن الخلق والأمر ، صادر عنها ، وهى مقتضية له ، ولهذا يعلل الأحكام ، بالأسماء الحسنى ، كما فى هذه الآية .

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسىء ، رتب على ذلك ، بأن أحالنا على معرفة أسمائه ، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص قال [إن الذين يكفرون] إلى [وكان الله غفوراً رحيما] .

* هنا قسمان ، قد وضحا لكل أحد : مؤمن بالله ، وبرسله كلهم ، وكتبه ، وكافر بذلك كله .

وبقى قسم ثالث : وهو : الذى يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل ، دون بعض ، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب الله ، إن هذا إلا مجرد أمانى .

فإن هؤلاء ، يريدون التفريق بين الله وبين رسله .

فإن من تولى الله حقيقة ، تولى جميع رسله ، لأن ذلك من تمام توليه .

ومن عادى أحدا من رسله ، فقد عادى الله ، وعادى جميع رسله كما قال تعالى :

---

(١) فى الأصل المطبوع « ساءكم » وهو خطأ لغوى .

(٢) فى الأصل « التفقد » وهو خطأ .

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

[من كان عدوا لله] الآيات .

وكذلك من كفر برسول ، فقد كفر بجميع الرسل ، بل بالرسول ، الذى يزعم أنه به مؤمن ، ولهذا قال : [أولئك هم الكافرون حقا] .

وذلك لئلا يتوهم أن مرتبتهم متوسطة ، بين الإيمان والكفر .

ووجه كونهم كافرين — حتى بمن زعموا الإيمان به — أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به ، موجود هو أومثله ، أو ما هو فوقه للنبي الذى كفروا به .

وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها فى النبي الذى كفروا به، موجود مثلها ، أو أعظم منها ، فيمن آمنوا به .

فلم يبق بعد ذلك ، إلا التشهى والهوى ، ومجرد الدعوى ، التى يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها .

ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقا ، ذكر عقاباشاملا لهم، ولكل كافر فقال :

[وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا] كما تكبروا عن الإيمان بالله ، أهانهم بالعذاب الأليم المخزى .

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا

[والذين آمنوا بالله ورسله] وهذا يتضمن الإيمان ، بكل ما أخبر الله به عن نفسه ، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام .

[ولم يفرقوا بين أحد منهم] بل آمنوا بهم كلهم .

فهذا هو الإيمان الحقيق ، واليقين المبنى على البرهان .

[أولئك سوف يؤتيهم أجورهم] أى : جزاء إيمانهم ، وماترتب عليه ، من عمل صالح ، وقول حسن ، وخلق جميل ، كل على حسب حاله .

ولعل هذا ، هو السر فى إضافة الأجور إليهم .

[وكان الله غفوراً رحيما] يغفر السيئات ويتقبل الحسنات .

* هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب ، للرسول محمدصلى الله عليه وسلم ، على وجه العناد والاقتراح ، وجعلهم هذا السؤال . يتوقف عليه تصديقهم ، أو تكذيبهم .

وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة ، كما نزلت التوراة والإنجيل .

وهذا غاية الظلم منهم ، فإن الرسول ، بشر عبد ، مدبر ، ليس فى يده من الأمر شىء ، بل الأمر كله لله .

فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ

وهو الذى يرسل وينزل ما يشاء على عباده ، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التى فيها اقتراح المشركين عليه صلى الله عليه وسلم .

[قل سبحان ربى هل كنت إلا بشر رسولا] .

وكذلك جعلهم الفارق ، بين الحق والباطل ، مجرد إنزال الكتاب جملة ، أو مفرقاً ، مجرد دعوى ، لا دليل عليها ، ولا مناسبة، بل ولا شبهة .

فمن أين يوجد فى نبوة أحد من الأنبياء ، أن الرسول الذى يأتيكم بكتاب ، نزل مفرقا ، فلا تؤمنوا به ، ولا تصدقوه ؟

بل نزول القرآن مفرقاً بحسب الأحوال ، مما يدل على عظمته، واعتناء الله بمن أنزل عليه كما قال تعالى :

[وقالوا لولا نزل هذا القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا] .

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد ، أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم .

بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ، ما هو أعظم مما سلكوا مع الرسول، الذى يزعمون أنهم آمنوا به ، من سؤالهم له ، رؤية الله عياناً ، واتخاذهم العجل إلها يعبدونه ، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ، مالم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم ، وهو التوراة ، حتى رفع الطور من فوق رءوسهم ، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا ، أسقط عليهم ،

قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن

فقبلوا ذلك على وجه الإغماض ، والإيمان الشبيه بالإيمان الضرورى .

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية ، التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين ، فخالفوا القول والفعل .

ومن اعتداء من اعتدى منهم فى السبت ، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة .

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم ، فنبذوه وراء ظهورهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا رسله بغير حق .

ومن قولهم : إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه .

والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه ، بل شبه لهم غيره ، فقتلوا غيره وصلبوه .

وادعائهم أن قلوبهم غلف ، لا تفقه ما تقول لهم ، ولا تفهمه .

وبصدهم الناس عن سبيل الله ، فصدوهم عن الحق ، ودعوتهم إلى ماهم عليه من الضلال والغى .

وبأخذهم السحت ، والربا ، مع نهى الله لهم عنه ، والتشديد فيه .

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل ، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً ، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء .

وهذه الطريقة ، من أحسن الطرق ، لمحاجة الخصم المبطل .

شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ

وهو : أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ، ما جعله شبهة له ولغيره ، فى رد الحق ، أن يبين من حاله الخبيثة ، وأفعاله الشنيعة ، ما هو من أقبح ما صدر منه ، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادى الخسيس ، وأن له مقدمات يجعل هذا معها .

وكذلك كل اعتراض يعترضون به ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، يمكن أن يقابل بمثله ، أو ما هو أقوى منه ، فى نبوة من يدعون إيمانهم به ، ليكتفى بذلك شرهم ، وينقمع باطلهم .

وكل حجة سلكوها ، فى تقريرهم لنبوة من آمنوا به ، فإنها ونظيرها ، وما هو أقوى منها ، دالة ومقررة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة ، لم يبسطها فى هذا الموضع ، بل أشار إليها ، وأحال على مواضعها ، وقد بسطها فى غير هذا الموضع فى المحل اللائق ببسطها .

وقوله [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته] .

يحتمل أن الضمير هنا فى قوله [قبل موته] يعود إلى أهل الكتاب .

فيكون — على هذا — كل كتابى يحضره الموت ، ويعاين الأمر حقيقة ، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام ، ولكنه إيمان لا ينفع ، لأنه إيمان اضطرار .

مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ، أن لا يستمروا على هذه الحال ، التى سيندمون عليها قبل مماتهم فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم ؟ !!

ويحتمل أن الضمير فى قوله [قبل موته] راجع إلى عيسى عليه السلام .

فيكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب ، إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح ، وذلك يكون عند اقتراب الساعة ، وظهور علاماتها الكبار .

فإنها تكاثرت الأحاديث فى نزوله عليه السلام فى آخر هذه الأمة .

يقتل الدجال ، ويضع الجزية ، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين .

ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً ، يشهد عليهم بأعمالهم ، وهل هى موافقة لشرع الله أم لا ؟ .

وحينئذ لا يشهد إلا ببطلان كل ما هم عليه ، مما هو مخالف لشريعة القرآن .

ولما دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم علمنا بذلك ، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام ، وصدقه ، وأنه لا يشهد إلا بالحق .

إلا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الحق ، وما عداه ، فهو ضلال وباطل .

كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب ، كثيراً من الطيبات ، التى كانت حلالا عليهم .

وهذا تحريم عقوبة ، بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصدهم الناس عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا ، وقد نهوا عنه .

فمنعوا المحتاجين ، ممن يبايعونه عن العدل .

فعاقبهم الله من جنس فعلهم ، فمنعهم من كثير من الطيبات ، التى كانوا بصدد حلها ، لكونها طيبة .

وأما التحريم الذى على هذه الأمة ، فإنه تحريم ، تنزيها لهم عن الخبائث التى تضرهم ، فى دينهم ودنياهم .

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

---

* لما ذكر معايب أهل الكتاب ، ذكر الممدوحين منهم فقال :

[لكن الراسخون فى العلم] أى : الذين ثبت العلم فى قلوبهم ، ورسخ الإيقان فى أفئدتهم ، فأثمر لهم الإيمان التام العام [بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك] .

وأثمر لهم الأعمال الصالحة ، من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، اللذين هما أفضل الأعمال .

وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود ، والإحسان إلى العبيد .

وآمنوا باليوم الآخر ، فخافوا الوعيد ، ورجو الوعد .

[أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما] لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان ، والعمل الصالح ، والإيمان بالكتب ، والرسل السابقة واللاحقة .

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ

---

* يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله ، من الشرع العظيم ، والأخبار الصادقة ، ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وفى هذا عدة فوائد :

منها أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، ليس ببدع من الرسل ، بل أرسل الله قبله من المرسلين ، العدد الكثير ، والجم الغفير ، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد .

ومنها : أنه أوحى إليه ، كما أوحى إليهم ، فى الأصول ، والعدل الذى اتفقوا عليه ، وأن بعضهم يصدق بعضاً ، ويوافق بعضهم بعضاً .

ومنها : أنه من جنس هؤلاء الرسل ، فليعتبره المعتبر ، بإخوانه المرسلين.

فدعوته ، دعوتهم ؛ وأخلاقهم : متفقة ؛ ومصدرهم واحد ؛ وغايتهم واحدة .

فلم يقرنه بالمجهولين ؛ ولا بالكذابين ، ولا بالملوك الظالمين .

ومنها : أن فى ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم ، من التنويه بهم ، والثناء الصادق عليهم ، وشرح أحوالهم ، مما يزداد به المؤمن ، إيمانا بهم ، ومحبة لهم ، واقتداء بهديهم ، واستنانا بسنتهم ، ومعرفة بحقوقهم ، ويكون ذلك مصداقا لقوله .

نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

[سلام على نوح فى العالمين — سلام على إبراهيم — سلام على موسى وهرون — سلام على إلياسين . إنا كذلك نجزى المحسنين] .

فكل محسن ، له من الثناء الحسن بين الأنام ، بحسب إحسانه .

والرسل — خصوصاً هؤلاء المسمون — فى المرتبة العليا من الإحسان .

ولما ذكر اشتراكهم بوحيه ، ذكر تخصيص بعضهم .

فذكر أنه : آتى داود الزبور ، وهو الكتاب المعروف ، المزبور الذى خص الله به داود عليه السلام ، لفضله وشرفه .

وأنه كلم موسى تكليما ، أى : مشافهة منه إليه ، لا بواسطة ، حتى اشتهر بهذا عند العالمين ، فيقال « موسى كليم الرحمن » .

وذكر أن الرسل ، منهم من قصه الله على رسوله ، ومنهم من لم يقصصه عليه .

وهذا يدل على كثرتهم ، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم ، بالسعادة الدنيوية والأخروية ، ومنذرين من عصى الله ، وخالفهم بشقاوة الدارين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا :

[ما جاءنا من بشير ولا نذير . قد جاءكم بشير ونذير] .

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى ، يبينون لهم أمر دينهم ، ومراضى ربهم ومساخطه ، وطرق الجنة وطرق النار .

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وهذا من كمال عزته تعالى ، وحكمته ، أن أرسل إليهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب .

وذلك أيضاً من فضله وإحسانه ، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء ، أعظم ضرورة تقدر ، فأزال هذا الاضطرار ، فله الحمد والشكر .

ونسأله ، كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم ، أن يتمها بالتوفيق ، لسلوك طريقهم . إنه جواد كريم .

* لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين ، أخبر هنا ، بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به .

و [أنزل بعلمه] يحتمل أن يكون المراد ، أنزله مشتملا على علمه ، أى : فيه من العلوم الإلهية ، والأحكام الشرعية ، والأخبار الغيبية ، ما هو من علم الله تعالى ، الذى علم به عباده .

ويحتمل أن يكون المراد : أنزله ، صادرا عن علمه .

ويكون فى ذلك إشارة وتنبيه ، على وجه شهادته .

وأن المعنى : إذا كان تعالى ، أنزل هذا القرآن ، المشتمل على الأوامر والنواهى ، وهو يعلم ذلك ، ويعلم حالة الذى أنزله عليه ، وأنه دعا الناس إليه ، فمن أجابه وصدقه ، كان وليه ، ومن كذبه وعاداه ، كان عدوه ،

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ

واستباح ماله ودمه ، والله تعالى يمكنه ، ويوالى نصره ، ويجيب دعواته ، ويخذل أعداءه ، وينصر أولياءه .

فهل[1] توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر ؟ !!

ولا يمكن القدح فى هذه الشهادة ، إلا بعد القدح بعلم الله ، وقدرته ، وحكمته ، وإخباره تعالى ، بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله ، لكمال إيمانهم ، ولجلالة هذا المشهود عليه .

فإن الأمور العظيمة ، لايستشهد عليها ، إلا الخواص ، كما قال تعالى فى الشهادة على التوحيد : [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم] وكفى بالله شهيداً .

* لما أخبر عن رسالة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وأخبر برسالة خاتمهم محمد ، وشهد بها ، وشهدت ملائكته — لزم من ذلك ، ثبوت الأمر المقرر ، والمشهود به ، فوجب تصديقهم ، والإيمان بهم واتباعهم .

ثم توعد من كفر بهم فقال : [إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله] .

أى جمعوا بين الكفر بأنفسهم ، وصدهم الناس عن سبيل الله .

وهؤلاء أئمة الكفر ، ودعاة الضلال [قد ضلوا ضلالا بعيداً] .

---

(١) قوله (فهل) الخ جواب (إذا) فى قوله المتقدم [وأن المعنى إذا كان] .

لهم ولا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ﴿١٦٨﴾ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

وأى : ضلال ، أعظم من ضلال من ضل بنفسه ، وأضل غيره ، فباء بالإثمين ، ورجع بالخسارتين ، وفاتته الهدايتان ، ولهذا قال :

[إن الذين كفروا وظلموا] وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم ، وإلا فالكفر — عند إطلاق الظلم ـ يدخل فيه .

والمراد بالظلم هنا ، أعمال الكفر والاستغراق فيه .

فهؤلاء بعيدون من المغفرة ، والهداية للصراط المستقيم .

ولهذا قال: [لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلاطريق جهنم] .

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية ، لأنهم استمروا فى طغيانهم ، وازدادوا فى كفرهم ، فطبع على قلوبهم ، وانسدت عليهم طرق الهداية ، بما كسبوا .

[وما ربك بظلام للعبيد] .

[وكان ذلك على الله يسيرا] أى : لايبالى الله بهم ، ولا يعبأ ، لأنهم لايصلحون للخير ، ولايليق بهم ، إلا الحالة التى اختاروها لأنفسهم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى جميع الناس ، أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وذكر السبب الموجب للإيمان به ، والفائدة فى الإيمان والمضرة ، فى عدم الإيمان به .

فالسبب الموجب ، هو : إخباره بأنه جاءهم بالحق .

فمجيئه نفسه حق ، وما جاء به من الشرع حق .

فإن العاقل ، يعرف أن بقاء الخلق فى جهلهم يعمهون ، وفى كفرهم يترددون ، والرسالة قد انقطعت عنهم ، غير لائق بحكمة الله ورحمته .

فمن حكمته ورحمته العظيمة ، نفس إرسال الرسول إليهم ، ليعرفهم الهدى من الضلال ، والغى من الرشد .

فمجرد النظر فى رسالته ، دليل قاطع على صحة نبوته .

وكذلك النظر إلى ماجاء به ، من الشرع العظيم ، والصراط المستقيم .

فإنه فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة ، والخبر عن الله ، وعن اليوم الآخر ـ مالا يعرفه أحد إلا بالوحى والرسالة .

وما فيه من الأمر ، بكل خير وصلاح ، ورشد ، وعدل ، وإحسان ،

. . . .

وصدق ، وبر ، وصلة ، وحسن خلق ، ومن النهى عن الشر والفساد ، والبغى والظلم ، وسوء الخلق ، والكذب والعقوق ، مما [١] يقطع به أنه من عند الله .

وكلما ازداد به العبد بصيرة ، ازداد إيمانه ويقينه ، فهذا السبب الداعى للإيمان .

وأما الفائدة فى الإيمان ، فأخبر أنه [خيرا لكم] والخير ، ضد الشر .

فالإيمان ، خير للمؤمنين ، فى أبدانهم ، وقلوبهم ، وأرواحهم ، ودنياهم ، وأخراهم .

وذلك لما يترتب عليه ، من المصالح والفوائد .

فكل ثواب ، عاجل وآجل ، فمن ثمرات الإيمان .

فالنصر ، والهدى ، والعلم ، والعمل الصالح ، والسرور ، والأفراح ، والجنة ، وما اشتملت عليه ، من النعيم ـ كل ذلك ، سبب عن الإيمان .

كما أن الشقاء الدنيوى ، والأخروى ، من عدم الإيمان ، أو نقصه .

وأما مضرة عدم الإيمان به صلى الله عليه وسلم ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان .

---

(١) قوله (مما يقطع) جملة فعليه واقعة فى محل رفع خبر عن المبتدأ الذى هو قوله (وما فيه أخ) .

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ

وأن العبد لايضر إلا نفسه ، والله تعالى ، غنى عنه ، لاتضره معصية العاصين .

ولهذا قال : [فإن لله مافى السموات والأرض] أى : الجميع خلقه وملكه ، وتحت تدبيره وتصريفه [وكان الله عليما] بكل شىء [حكيما] فى خلقه وأمره .

فهو العليم بمن يستحق الهداية والغواية ، الحكيم فى وضع الهداية والغواية ، موضعهما .

* ينهى تعالى ، أهل الكتاب عن الغلو فى الدين ، وهو : مجاوزة الحد ، والقدر المشروع ، إلى ما ليس بمشروع .

وذلك كقول النصارى ، فى غلوهم بعيسى عليه السلام ، ورفعه عن مقام النبوة ، والرسالة إلى مقام الربوبية الذى لايليق بغير الله

فكما أن التقصير والتفريط ، من المنهيات ، فالغلو كذلك .

ولهذا قال [ولاتقولوا على الله إلا الحق] وهذا الكلام ، يتضمن ثلاثة أشياء .

أمرين منهى عنهما ، وهما قول الكذب على الله ، والقول بلا علم ، فى أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وشرعه ، ورسله .

والثالث : مأمور وهو : قول الحق فى هذه الأمور .

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية ، وكان السياق فى شأن عيسى عليه

أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ

السلام ، نصا على قول الحق فيه ، المخالف للطريقة اليهودية والنصرانية قال:

[إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله] أى: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى مايصل إليه من مراتب الكمال ، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهى درجة الرسالة ، التى هى أعلى الدرجات ، وأجل المثوبات .

وأنه [كلمته ألقاها إلى مريم] أى: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة ، وإنما كان بها ، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم .

وكذلك قوله [وروح منه] أى : من الأرواح التى خلقها ، وكملها بالصفات الفاضلة ، والأخلاق الكاملة .

أرسل الله روحه ، جبريل عليه السلام ، فنفخ فى فرج مريم عليهما السلام .

فحملت بإذن الله ، بعيسى عليه السلام .

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام ، أمر أهل الكتاب بالإيمان به ، وبرسله ، ونهاهم أن يجعلوا الله ، ثالث ثلاثة ، أحدهم عيسى ، والثانى مريم فهذه مقالة النصارى ، قبحهم الله .

فأمرهم أن ينتهوا ، وأخبر أن ذلك ، خير لهم ، لأنه الذى يتعين ، أنه سبيل النجاة ، وما سواه ، فهو طرق الهلاك .

ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

ثم نزه نفسه عن الشريك والولد فقال :

[إنما الله إله واحد] أى : هو المنفرد بالألوهية ، الذى لاتنبغى العبادة إلا له .

[سبحانه] أى : تنزه وتقدس [أن يكون له ولد] لأن : [له مافى السموات وما فى الأرض] فالكل مملوكون له ، مفتقرون إليه ، فمحال أن يكون له شريك منهم ، أو ولد .

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوى والسفلى ، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها ، ومجازيها فقال تعالى : [لن يستنكف المسيح] إلى قوله [ولياً ولا نصيراً] .

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

☆ لما ذكر تعالى غلو النصارى فى عيسى عليه السلام ، وذكر أنه عبده ورسوله ، ذكر هنا ، أنه لايستنكف عن عبادة ربه ، أى : لايمتنع عنها رغبة عنها لا هو [ولا الملائكة المقربون] .

فنزههم عن الاستنكاف ، وتنزيههم عن الاستكبار ، من باب أولى. ونفى الشيء فيه إثبات ضده .

أى : فعيسى والملائكة المقربون ، قد رغبوا فى عبادة ربهم ، وأحبوها وسعوا فيها ، بما يليق بأحوالهم ، فأوجب لهم ذلك ، الشرف العظيم ، والفوز العظيم .

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لربوبيته ، ولا لإلهيته ، بل يرون افتقارهم لذلك ، فوق كل افتقار .

ولا يظن أن رفع عيسى ، أو غيره من الخلق ، فوق مرتبته ، التى أنزله الله فيها ، وترفعه عن العبادة كمالا ، بل هو النقص بعينه ، وهو محل الذم والعقاب ، ولهذا قال :

[ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً]

أى : فسيحشر الخلق كلهم إليه ، المستنكفين ، والمستكبرين وعباده المؤمنين ، فيحكم بينهم ، بحكمه العدل ، وجزائه الفصل .

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

ثم فصل حكمه فيهم فقال : [فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أى : جمعوا بين الإيمان المأمور به ، وعمل الصالحات ، من واجبات ، ومستحبات ، فى حقوق الله ، وحقوق عباده .

[فيوفيهم أجورهم] أى : الأجور التى رتبها على الأعمال ، كل بحسب إيمانه وعمله .

[ويزيدهم من فضله] من الثواب ، الذى لم تنله أعمالهم ، ولم تصل إليه أفعالهم ، ولم يخطر على قلوبهم .

ودخل فى ذلك ، كل ما فى الجنة ، من المآكل ، والمشارب ، والمناكح والمناظر ، والسرور ، ونعيم القلب والروح ، ونعيم البدن .

بل يدخل فى ذلك ، كل خير ، دينى ، ودنيوى ، رتب على الإيمان ، والعمل الصالح .

[وأما الذين استنكفوا واستكبروا] أى عن عبادة الله تعالى [فيعذبهم عذاباً أليما] وهو سخط الله وغضبه ، والنار الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة .

[ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً] أى : لا يجدون أحدا من الخلق ، يتولاهم ، فيحصل لهم المطلوب ، ولا من ينصرهم ، فيدفع عنهم المرهوب .

بل قد تخلى عنهم ، أرحم الراحمين ، وتركهم فى عذابهم خالدين .

وما حكم به تعالى ، فلا راد لحكمه ، ولا مغير لقضائه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟

---

* يمتن تعالى ، على سائر الناس ، بما أوصل إليهم ، من البراهين القاطعة ، والأنوار الساطعة ، ويقيم عليهم الحجة ، ويوضح لهم المحجة فقال :

[يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم] أى حجج قاطعة على الحق ، تبينه وتوضحه ، وتبين ضده

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية الآيات الأفقية ، والنفسية [سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق] .

وفى قوله [من ربكم] ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته ، حيث كان من ربكم ، الذى رباكم التربية الدينية والدنيوية .

فمن تربيته لكم ، التى يحمد عليها ويشكر ، أن أوصل إليكم البينات ، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم ، والوصول إلى جنات النعيم .

[وأنزلنا إليكم نورا مبيناً] وهو هذا القرآن العظيم ، الذى قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين ، والأخبار الصادقة النافعة ، والأمر بكل عدل وإحسان وخير ، والنهى عن كل ظلم وشر .

فالناس فى ظلمة ، إن لم يستضيئوا بأنواره ، وفى شقاء عظيم ، إن لم يقتبسوا من خيره .

ولكن انقسم الناس — بحسب الإيمان بالقرآن ، والانتفاع به — قسمين.

[فأما الذين آمنوا بالله] أى : اعترفوا بوجوده ، واتصافه بكل

بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

وصف كامل ، وتنزيهه من كل نقص وعيب .

[واعتصموا به] أى : لجأوا إلى الله ، واعتمدوا عليه ، وتبرأوا من حولهم وقوتهم ، واستعانوا بربهم .

[فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل] أى : فسيتغمدهم بالرحمة الخاصة ، فيوفقهم للخيرات ، ويجزل لهم المثوبات ، ويدفع عنهم البليات .

[ويهديهم إليه صراطاً مستقيما] أى: يوفقهم للعلم والعمل ومعرفة الحق والعمل به .

أى: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به، ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته ، وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم ، فلم يهتدوا ، بل ضلوا ضلالا مبيناً ، عقوبة لهم على تركهم الإيمان ، فحصلت لهم الخيبة والحرمان .

نسأله تعالى ، العفو ، والعافية ، والمعافاة .

۞ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا

---

* أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله صلى الله عليه وسلم أى: فى الكلالة بدليل قوله :

[قل الله يفتيكم فى الكلالة] وهى: الميت يموت ، وليس له ولد صلب ، ولا ولد ابن ، ولا أب ، ولا جد ، ولهذا قال :

[إن امرؤ هلك ليس ولد] أى : لا ذكر ولا أنثى ، لا ولد صلب ، ولا ولد ابن .

وكذلك ، ليس له والد ، بدليل أنه ورث فيه الإخوة والإخوة[1] بالإجماع ، لا يرثون مع الوالد .

فإذا هلك ، وليس له ولد ، ولا والد [وله أخت] أى:شقيقة،أو لأب ، لا لأم ، فإنه قد تقدم حكمها .

---

(١) فى الأصل (والإخوان) أصلحناها بكلمة (الإخوة) لأنها خاصة بالنسب والولادة وأما [الإخوان] فعامة تطلق على ما كان أخاً فى النسب وعلى ما كان فى الصداقة غالباً، والمقام هنا يقتضى أن يكون الأخ فى الولادة.

قال فى الصحاح : وأكثر ما يستعمل (الإخوان) فى الأصدقاء والإخوة فى الولادة . اهـ .

إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

[فلها نصف ما ترك] أى نصف متروكات أخيها ، من نقود ، وعقار ، وأثاث ، وغير ذلك ، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم .

[وهو] أى : أخوها الشقيق ، أو الذى للأب [يرثها ، إن لم يكن لها ولد] ولم يقدر له إرث ، لأنه عاصب فيأخذ مالها كله ، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه ، أو ما أبقت الفروض .

[فإن كانتا] أى الأختان [اثنتين] أى : فما فوق [فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخوة رجالا ونساء] أى : اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم ، مع الإناث (فللذكر مثل حظ الأنثيين] فيسقط فرض الإناث ، ويعصبهن إخوتهن .

[يبين الله لكم أن تضلوا] أى : يبين لكم أحكامه التى تحتاجونها ، ويوضحها ، ويشرحها لكم ، فضلا منه وإحسانا ، لكى تهتدوا ببيانه ، وتعملوا بأحكامه ، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم ، بسبب جهلكم ، وعدم علمكم .

[والله بكل شىء عليم] أى : عالم بالغيب والشهادة ، والأمور الماضية والمستقبلة ويعلم حاجتكم إلى بيانه ، وتعليمه ، فيعلمكم من علمه الذى ينفعكم على الدوام ، فى جميع الأزمنة والأمكنة .

آخر تفسير سورة النساء . فلله الحمد والشكر

تفسير

سُورَةُ المَائِدَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم

---

* هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، بالوفاء بالعقود أى : بإكمالها ، وإتمامها ، وعدم نقضها ونقصها .

وهذا شامل للعقود ، التى بين العبد وبين ربه ، من التزام عبوديته ، والقيام بها أتم قيام ، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا ، والتى بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه ، والتى بينه وبين الوالدين ، والأقارب ، ببرهم ، وصلتهم ، وعدم قطيعتهم .

والتى بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة فى الغنى والفقر ، واليسر والعسر ، والتى بينه وبين الخلق من عقود المعاملات ، كالبيع ، والإجارة ، ونحوهما ، وعقود التبرعات ، كالهبة ونحوها ، والقيام بحقوق المسلمين ، التى عقدها الله ، بينهم فى قوله : [إنما المؤمنون إخوة] بل التناصر على الحق ، والتعاون عليه ، والتآلف بين المسلمين ، وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه ، فكلها داخلة فى العقود التى أمر الله بالقيام بها .

بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

ثم قال — ممتناً على عباده — [أحلت لكم] أى لأجلكم ، رحمة بكم [بهيمة الأنعام] من الإبل ، والبقر والغنم .

بل ربما دخل فى ذلك، الوحش منها ، والظباء ، وحمر الوحش ونحوها ، من الصيود .

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية ، على إباحة الجنين ، الذى يموت فى بطن أمه ، بعد ما تذبح .

[إلا ما يتلى عليكم] تحريمه منها فى قوله [حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير] إلى آخر الآية .

فإن هذه المذكورات ، وإن كانت من بهيمة الأنعام ، فإنها محرمة .

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة فى جميع الأحوال والأوقات ، استثنى منها الصيد فى حال الإحرام فقال :

[غير محلى الصيد وأنتم حرم] أى : أحلت لكم بهيمة الأنعام فى كل حال ، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم ، غير محلى الصيد ، وأنتم حرم ، أى : متجرئون على قتله فى حال الإحرام ، فإن ذلك لا يحل لكم ، إذا كان صيدا ، كالظباء ونحوه .

والصيد . هو : الحيوان المأكول المتوحش .

[إن الله يحكم ما يريد] أى : فمهما أراده تعالى ، حكم به حكما موافقا لحكمته ، كما أمركم بالوفاء بالعقود ، لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم .

وأحل لكم بهيمة الأنعام ، رحمة بكم ، وحرم عليكم ما استثنى منها ،

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ

من ذوات العوارض ، من الميتة ونحوها ، صوناً لكم ،واحتراما ، ومن صيد الإحرام ، احتراماً للإحرام ، وإعظاما .

* يقول تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله] أى : محرماته ، التى أمركم بتعظيمها ، وعدم فعلها .

فالنهى يشمل النهى عن فعلها ، والنهى عن اعتقاد حلها ، فهو يشمل النهى ، عن فعل القبيح ، وعن اعتقاده .

ويدخل فى ذلك ، النهى عن محرمات الإحرام ، ومحرمات الحرم .

ويدخل فى ذلك ما نص عليه بقوله[ولا الشهر الحرام]أى:لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره ، من أنواع الظلم كما قال تعالى :

[إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم].

والجمهور من العلماء ، على أن القتال فى الأشهر الحرم ، منسوخ بقوله تعالى: [فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم] وغير ذلك من العمومات ، التى فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً ، والوعيد فى التخلف عن قتالهم مطلقاً .

وبأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قاتل أهل الطائف ، فى ذى القعدة ، وهو من الأشهر الحرم .

وقال آخرون : إن النهى عن القتال فى الأشهر الحرم ، غير منسوخ لهذه الآية وغيرها ، مما فيه النهى عن ذلك بخصوصه .

وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك ، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال : لا يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم ، وأما استدامته ، وتكميله ، إذا كان أوله فى غيرها ، فإنه يجوز .

وحملوا قتال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأهل الطائف على ذلك ، لأن أول قتالهم فى « حنين » فى « شوال » .

وكل هذا فى القتال الذى ليس المقصود منه الدفع .

فأما قتال الدفع — إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال — فإنه يجوز للمسلمين القتال ، دفعا عن أنفسهم ، فى الشهر الحرام وغيره ، بإجماع العلماء.

وقوله [ولا الهدى ولا القلائد] أى : ولا تحلوا الهدى الذى يهدى إلى بيت الله ، فى حج ، أو عمرة ، أو غيرها ، من نعم وغيرها ، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله ، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها ، ولا تقصروا به ، أو تحملوه ما لا يطيق ، خوفا من تلفه ، قبل وصوله إلى محله ، بل عظموه ، وعظموا من جاء به .

[ولا القلائد] هذا نوع خاص من أنواع الهدى ، وهو الهدى الذى يفتل له قلائد أو عرى ، فيجعل فى أعناقه، إظهاراً لشعائر الله ، وحملا للناس على الاقتداء ، وتعليما لهم للسنة ، وليعرف أنه هدى ، فيحترم ، ولهذا كان تقليد الهدى من السنة والسعائر المسنونة .

[ولا آمين البيت الحرام] أى : قاصدين له [يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا] .

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن

أى : من قصد هذا البيت الحرام ، وقصده فضل الله بالتجارة ، والمكاسب المباحة ، أو قصده رضوان الله ، بحجه وعمرته ، والطواف به ، والصلاة ، وغيرها من أنواع العبادات ، فلاتتعرضوا له بسوء ، ولا تهينوه ، بل أكرموه ، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم .

ودخل فى هذا ، الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله ، وجعل القاصدين له ، مطمئنين مستريحين ، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه ، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك .

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى [ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] .

فالمشرك ، لا يمكن من الدخول إلى الحرم .

والتخصيص فى هذه الآية ، بالنهى عن التعرض لمن قصد البيت ، ابتغاء فضل الله أو رضوانه — يدل[1] على أن من قصده ، ليلحد فيه بالمعاصى ، فإن من تمام احترام الحرم ، صد من هذه حاله ، عن الإفساد ببيت الله ، كما قال تعالى : [ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم] .

ولما نهاهم عن الصيد فى حال الإحرام قال :

[وإذا حللتم فاصطادوا] أى : إذا حللتم من الإحرام ، بالحج والعمرة ، حل لكم الاصطياد ، وزال ذلك التحريم .

---

(١) قوله (يدل الخ) جملة فعلية فى محل رفع خبر عن المبتدأ السابق فى قوله (والتخصيص الخ) .

تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

والأمر بعد التحريم ، يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل .

[ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا] أى : لايحملنكم بغض قوم ، وعداوتهم ، واعتداؤهم عليكم ، حيث صدوكم عن المسجد ، على الاعتداء عليهم ، طلبا للاشتفاء[1] منهم ، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله ، ويسلك طريق العدل ، ولو جنى عليه ، أو ظلم ، واعتدى عليه .

فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه ، أو يخون من خانه .

[وتعاونوا على البر والتقوى] أى : ليعن بعضكم بعضاً على البر .

وهو : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال الظاهرة والباطنة ، من حقوق الله ، وحقوق الآدميين .

والتقوى فى هذا الموضع : اسم جامع ، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة .

وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها ، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها ، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه ، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين ، بكل قول يبعث عليها ، وينشط لها ، وبكل فعل كذلك.

---

(١) قوله « للاشتفاء » يعنى شفاء غيظهم بالانتقام من الذين أساءوا إليهم ولو عبر « بالتشفى » لكان أولى وأوضح .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ

[ولا تعاونوا على الإثم] وهو التجرى على المعاصى ، التى يأثم صاحبها ، ويحرج .

[والعدوان] وهو : التعدى على الخلق ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فكل معصية وظلم ، يجب على العبد ، كف نفسه عنه ، ثم إعانة غيره على تركه .

[واتقوا الله إن الله شديد العقاب] على من عصاه ، وتجرأ على محارمه. فاحذروا المحارم ، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل .

☆ هذا الذى حولنا الله عليه فى قوله [إلا ما يتلى عليكم] .

واعلم أن الله تبارك وتعالى ، لا يحرم ما يحرم ، إلا صيانة لعباده ، وحماية لهم من الضرر الموجود فى المحرمات ، وقد يبين للعباد ذلك ، وقد لا يبين .

فأخبر أنه حرم [الميتة] ، والمراد بالميتة : ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية ، فإنها تحرم ، لضررها ، وهو احتقان الدم فى جوفها ولحمها ، المضر بآكلها .

وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهلاكها ، فتضر بالآكل .

ويستثنى من ذلك ، ميتة الجراد ، والسمك فإنه حلال .

[والدم] أى : المسفوح ، كما قيد فى الآية الأخرى .

[ولحم الخنزير] وذلك شامل لجميع أجزائه .

ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴿﴾

وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع ، لأن طائفة من أهل الكتاب ، من النصارى ، يزعمون أن الله أحله لهم .

أي : فلا تغتروا بهم ، بل هو محرم من جملة الخبائث .

[وما أهل لغير الله به] أي ذكر عليه اسم غير الله ، من الأصنام ، والأولياء ، والكواكب ، وغير ذلك من المخلوقين .

فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة ، فذكر اسم غيره عليها ، يفيدها خبثاً معنوياً ، لأنه شرك بالله تعالى .

[والمنخنقة] أي : الميتة بخنق ، بيد ، أو حبل ، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق ، فتعجز عن إخراجه ، حتى تموت .

[والموقوذة] أي : الميتة بسبب الضرب ، بعصاً ، أو حصى ، أو خشبة ، أو هدم شيء عليها ، بقصد ، أو بغير قصد .

[والمتردية] أي : الساقطة من علو ، كجبل ، أو جدار ، أو سطح ونحوه ، فتموت بذلك .

[والنطيحة] وهي التي تنطحها غيرها فتموت .

[وما أكل السبع] من ذئب ، أو أسد ، أو نمر ، أو من الطيور التي تفترس الصيود ، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع ، فإنها لا تحل .

وقوله [إلا ما ذكيتم] راجع لهذه المسائل ، من منخنقة ، وموقوذة ،

. . . .

ومتردية ، ونطيحة ، وأكيلة سبع ، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها .

ولهذا قال الفقهاء : « لو أبان السبع أو غيره ، حشوتها ، أو قطع حلقومها ، كان وجود حياتها ، كعدمها ، لعدم فائدة الذكاة فيها » .

وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة ، فإذا ذكاها وفيها حياة، حلت، ولو كانت مبانة الحشوة ، وهو ظاهر الآية الكريمة .

[وأن تستقسموا بالأزلام] أى : وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام .

ومعنى الاستقسام : طلب ما يقسم لكم ، ويقدر بها .

وهى قداح ثلاثة ، كانت تستعمل فى الجاهلية ، مكتوب على أحدها « افعل » وعلى الثانى « لا تفعل » والثالث «غفل» لا كتابة فيه .

فإذا هم أحدهم بسفر ، أو عرس أو نحوهما ، أجال تلك القداح المتساوية فى الجرم ، ثم أخرج واحداً منها .

فإن خرج المكتوب عليه « افعل » مضى فى أمره .

وإن ظهر المكتوب عليه « لا تفعل » لم يفعل ولم يمض فى شأنه .

وإن ظهر الآخر ، الذى لاشىء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدحين ، فيعمل به .

فحرم الله عليهم الذى فى هذه الصورة ، وما يشبهها ، وعوضهم عنه ، بالاستخارة لربهم ، فى جميع أمورهم .

[ذلكم فسق] الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات ، التى حرمها الله، صيانة لعباده ، وأنها فسق ، أى : خروج عن طاعته ، إلى طاعة الشيطان .

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

ثم امتن على عباده بقوله :

[اليوم يئس الذين كفروا من دينكم] الآية .

* واليوم المشار إليه ، يوم عرفة ، إذ أتم الله دينه ، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالا بليغاً ، بعد ما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم ، طامعين فى ذلك .

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يئسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم ، وصاروا يخافون منهم ويخشون .

ولهذا فى هذه السنة ، التى حج فيها النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع — لم يحجج فيها مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

ولهذا قال [فلا تخشوهم واخشون] أى : فلا تخشوا المشركين ، واخشوا الله ، الذى نصركم عليهم ، وخذلهم ، ورد كيدهم فى نحورهم .

[اليوم أكملت لكم دينكم] بتمام النصر ، وتكميل الشرائع ، الظاهرة والباطنة ، الأصول والفروع .

ولهذا كان الكتاب والسنة ، كافيين كل الكفاية ، فى أحكام الدين ، وأصوله وفروعه .

فكل متكلف يزعم ، أنه لابد للناس فى معرفة عقائدهم وأحكامهم ، إلى علوم ، غير علم الكتاب والسنة ، من علم الكلام وغيره ، فهو جاهل ، مبطل فى دعواه ، قد زعم أن الدين لا يكمل ، إلا بما قاله ، ودعا إليه .

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله .

[وأتممت عليكم نعمتى] الظاهرة والباطنة [ورضيت لكم الإسلام دينا] أي : اخترته واصطفيته لكم دينا ، كما ارتضيتكم له .

فقوموا به ، شكراً لربكم ، واحمدوا الذي من عليكم ، بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها .

[فمن اضطر] أي : ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة ، فى قوله [حرمت عليكم الميتة] [فى مخمصة] أى : مجاعة [غير متجانف] أى : مائل [لإثم] بأن لا يأكل حتى يضطر ، ولا يزيد فى الأكل على كفايته .

[فإن الله غفور رحيم] حيث أباح له الأكل فى هذه الحال .

ورحمه ، بما يقيم به بنيته ، من غير نقص يلحقه فى دينه .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [يسألونك ماذا أحل لهم] . من الأطعمة ؟ .

[قل أحل لكم الطيبات] وهى كل ما فيه نفع أو لذة ، من غير ضرر بالبدن ، ولا بالعقل .

فدخل فى ذلك ، جميع الحبوب ، والثمار ، التى فى القرى والبرارى .

ودخل فى ذلك ، جميع حيوانات البر ، إلا ما استثناه الشارع ، كالسباع ، والخبائث منها .

ولهذا دلت الآية بمفهومها ، على تحريم الخبائث ، كما صرح به فى قوله تعالى :

[ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث] .

[وما علمتم من الجوارح] .

أى : أحل لكم ماعلمتم من الجوارح إلى آخر الآية .

دلت هذه الآية على أمور :

أحدها : لطف الله بعباده ، ورحمته لهم ، حيث وسع عليهم طرق الحلال ، وأباح لهم ، ما لم يذكوه ، مما صادته الجوارح .

والمراد بالجوارح : الكلاب ، والفهود ، والصقر ، ونحو ذلك ، مما يصيد بنابه ، أو بمخلبه .

فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

الثانى: أنه يشترط ، أن تكون معلمة ، بما يعد فى العرف تعليما ، بأن يسترسل ، إذا أرسل ، وينزجر إذا زجر ، وإذا أمسك ، لم يأكل ، ولهذا قال :

[تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم] أى : أمسكن من الصيد لأجلكم .

وما أكل منه الجارح فإنه لايعلم أنه أمسكه على صاحبه ، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه .

الثالث : اشتراط أن يجرحه الكلب ، أو الطير ونحوها ، لقوله [من الجوارح] مع ماتقدم من تحريم المنخنقة .

فلو خنقه الكلب أو غيره ، أو قتله بثقله ، لم يبح .

هذا بناء على أن الجوارح اللاتى يجرحن الصيد ، بأنيابها ، أو مخالبها .

والمشهور أن الجوارح ، بمعنى الكواسب أى : المحصلات للصيد ، والمدركات له .

فلا يكون فيها ـ على هذا ـ دلالة . والله أعلم .

الرابع : جواز اقتناء كلب الصيد ، كما ورد فى الحديث الصحيح ، مع أن اقتناء الكلب محرم لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه ، جواز اقتنائه .

. . . .

الخامس : طهارة ما أصابه فم الكلب ، من الصيد ، لأن الله أباحه ، ولم يذكر له غسلا ، فدل على طهارته .

السادس : فيه فضيلة العلم ، وأن الجارح المعلم – بسبب العلم – يباح صيده ، والجاهل بالتعليم ، لا يباح صيده .

السابع : أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموماً، وليس من العبث والباطل .

بل هو أمر مقصود ، لأنه وسيلة لحل صيده ، والانتفاع به .

الثامن : فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد ، قال : لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك .

التاسع : فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح ، وأنه إن لم يسم الله متعمداً ، لم يبح ماقتل الجارح .

العاشر : أنه يجوز أكل ما صاده الجارح ، سواء قتله الجارح ، أم لا .

وأنه إن أدركه صاحبه ، وفيه حياة مستقرة ، فإنه لا يباح إلا بها .

ثم حث تعالى على تقواه ، وحذر من إتيان الحساب فى يوم القيامة ، وأن ذلك ، أمر قد دنا ، واقترب فقال :

[واتقوا الله إن الله سريع الحساب] .

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ

---

* كرر تعالى إحلال الطيبات ، لبيان الامتنان ، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره ، حيث أباح لهم ماتدعوهم الحاجة إليه ، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات .

[وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم] أى : ذبائح اليهود والنصارى ، حلال لكم ـ يامعشر المسلمين ـ دون باقى الكفار، فإن ذبائحهم لاتحل للمسلمين .

وذلك لأن أهل الكتاب ، ينتسبون إلى الأنبياء والكتب .

وقد اتفق الرسل كلهم ، على تحريم الذبح لغير الله ، لأنه شرك .

فاليهود والنصارى ، يتدينون بتحريم الذبح لغير الله ، فلذلك أبيحت ذبائحهم ، دون غيرهم .

والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم ، أن الطعام الذى ليس من الذبائح ، كالحبوب ، والثمار ، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية ، بل يباح ذلك ، ولو كان من طعام غيرهم .

وأيضاً ، فإنه أضاف الطعام إليهم .

فدل ذلك ، على أنه كان طعاماً ، بسبب ذبحهم .

ولا يقال : إن ذلك للتمليك ، وأن المراد : الطعام الذى يملكون .

لأن هذا ، لايباح على وجه الغصب ، ولا من المسلمين .

ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ

[وطعامكم] أيها المسلمون [حل لهم] أى : يحل لكم أن تطعموهم إياه .

[و] أحل لكم [المحصنات] أى : الحرائر العفيفات [من المؤمنات] والحرائر العفيفات [من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم] أى: من اليهود والنصارى .

وهذا مخصص لقوله تعالى [ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن] .

ومفهوم الآية ، أن الأرقاء من المؤمنات ، لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك .

وأما الكتابيات ، فعلى كل حال ، لا يبحن ، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً ، لقوله تعالى : [من فتياتكم المؤمنات] .

وأما المسلمات ــ إذا كن رقيقات ــ فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين ، عدم الطول ، وخوف العنت .

وأما الفاجرات ، غير العفيفات عن الزنا ، فلا يباح نكاحهن ، سواء كن مسلمات ، أو كتابيات ، حتى يتبن لقوله تعالى :

[الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة] الآية .

وقوله [إذا آتيتموهن أجورهن] أى : أبحنا لكم نكاحهن ، إذا أعطيتموهن مهورهن .

فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها ، فإنها لا تحل له .

أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

وأمر بإيتائها ، إذا كانت رشيدة ، تصلح للإيتاء ، وإلا أعطاه الزوج لوليها .

وإضافة الأجور إليهن ، دليل على أن المرأة ، تملك جميع مهرها ، وليس لأحد منه شيء ، إلا ماسمحت به لزوجها ، أو وليها أو غيرها .

[محصنين غير مسافحين] أى : حالة كونكم ـ أيها الأزواج ـ محصنين لنسائكم ، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن .

[غير مسافحين] أى : زانين مع كل أحد [ولامتخذى أخدان] .

وهو : الزنا مع العشيقات لأن الزناة فى الجاهلية ، منهم من يزنى مع من كان ، فهذا هو المسافح .

ومنهم من يزنى مع خدنه ومحبه .

فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ، ينافى العفة .

وأن شروط التزوج ، أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا .

وقوله تعالى : [ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله] أى : ومن كفر بالله تعالى ، ومايجب الإيمان به ، من كتبه ورسله ، أو شيء من الشرائع ، فقد حبط عمله ، بشرط أن يموت على كفره كما قال تعالى :

« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » [وهو فى الآخرة من الخاسرين] أى : الذين خسروا أنفسهم ، وأموالهم ، وأهليهم يوم القيامة وحصلوا على الشقاوة الأبدية .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ ﴾

* هذه آية عظيمة ، قد اشتملت على أحكام كثيرة ، نذكر منها ، مايسره الله وسهله .

أحدها : أن هذه المذكورات . فيها[1] امتثالها . والعمل بها من لوازم الإيمان ، الذى لايتم إلا به ، لأنه صدرها بقوله « يا أيها الذين آمنوا » إلى آخرها .

أى: يا أيها الذين آمنوا ، اعملوا بمقتضى إيمانكم ، بما شرعناه لكم .

والثانى : الأمر بالقيام بالصلاة لقوله [إذا قمتم إلى الصلاة] .

والثالث : الأمر بالنية للصلاة ، لقوله : [إذا قمتم إلى الصلاة] أى : بقصدها ونيتها .

الرابع : اشتراط الطهارة ، لصحة الصلاة ، لأن الله أمر بها عند القيام إليها ، والأصل فى الأمر ، الوجوب .

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت ، وإنما عند إرادة الصلاة .

السادس : أن كل مايطلق عليه اسم الصلاة ، فى الفرض ، والنفل ، وفرض الكفاية ، وصلاة الجنازة ، تشترط له الطهارة ، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء ، كسجود التلاوة ، والشكر .

السابع : الأمر بغسل الوجه ، وهو : ما تحصل به المواجهة ، من منابت شعر الرأس المعتاد ، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن ، طولا .

ومن الأذن إلى الأذن ، عرضا .

---

(١) هكذا في الأصل . لعل الصواب أن (فيها) زائدة .

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق ، بالسنة .

ويدخل فيه ، الشعور التى فيه .

لكن إن كانت خفيفة ، فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة .

وإن كانت كثيفة ، اكتفى بظاهرها .

الثامن : الأمر بغسل اليدين ، وأن حدهما إلى المرفقين .

و « إلى » كما قال جمهور المفسرين ، بمعنى « مع » كقوله تعالى [ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم] .

ولأن الواجب لايتم إلا بغسل جميع المرفق .

التاسع : الأمر بمسح الرأس .

العاشر : أنه يجب مسح جميعه ، لأن الباء ليست للتبعيض ، وإنما هى للملاصقة[1] وأنه يعم المسح بجميع الرأس .

الحادى عشر : أنه يكفى المسح كيفما كان — بيديه ، أو إحداهما ، أو خرقة ، أو خشبة ، أو نحوهما ، لأن الله أطلق المسح ، ولم يقيده بصفة ، فدل ذلك ، على إطلاقه .

الثانى عشر : أن الواجب ، المسح .

فلو غسل رأسه ، ولم يمر يده عليه ، لم يكف ، لأنه لم يأت بما أمر الله به .

---

(١) قوله [للملاصقة] يريد : للإلصاق ، ولو عبر به لكان أولى موافقة لجمهور علماء اللغة فكلهم يقول [الباء للإلصاق] ولم يقل أحد للملاصقة .

إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ

الثالث عشر : الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين ، ويقال فيهما ما يقال فى اليدين .

الرابع عشر : فيها الرد على الرافضة ، على قراءة الجمهور بالنصب .

وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين .

الخامس عشر : فيه الإشارة إلى مسح الخفين ، على قراءة الجر فى « وأرجلكم » .

وتكون كل من القراءتين ، محمولة على معنى .

فعلى قراءة النصب فيها ، غسلهما ، إن كانتا مكشوفتين .

وعلى قراءة الجر فيها ، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف .

السادس عشر : الأمر بالترتيب فى الوضوء ، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة .

ولأنه أدخل ممسوحاً — وهو الرأس — بين مغسولين ، ولا يعلم لذلك فائدة ، غير الترتيب .

السابع عشر : أن الترتيب ، مخصوص بالأعضاء الأربعة ، المسميات فى هذه الآية .

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه ، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين ، فإن ذلك غير واجب .

بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق ، على غسل الوجه .

وتقديم اليمنى ، على اليسرى من اليدين والرجلين .

وتقديم مسح الرأس ، على مسح الأذنين .

سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟

الثامن عشر : الأمر بتجديد الوضوء ، عند كل صلاة ، لتوجد صورة المأمور به .

التاسع عشر : الأمر بالغسل من الجنابة .

العشرون : أنه يجب تعميم الغسل للبدن ، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء .

الحادى والعشرون : الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه فى الجنابة .

الثانى والعشرون : أنه يندرج الحدث الأصغر ، فى الحدث الأكبر ، ويكفى من هما عليه ، أن ينوى ، ثم يعمم بدنه ، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء .

الثالث والعشرون : أن الجنب يصدق على من أنزل المنى ، يقظة أو مناما ، أو جامع ولو لم ينزل .

الرابع والعشرون : أن من ذكر أنه احتلم ، ولم يجد بللا ، فإنه لاغسل عليه ، لأنه لم تتحقق منه الجنابة .

الخامس والعشرون : ذكر منة الله تعالى على العباد، بمشروعيته التيمم.

السادس والعشرون : أن من أسباب جواز التيمم ، وجود المرض ، الذى يضره غسله بالماء ، فيجوز له التيمم .

السادس والعشرون : أن من جملة أسباب جوازه ، السفر والإتيان من البول والغائط ، إذا عدم الماء .

فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء ، لحصول التضرر به .

وباقيها يجوزه ، العدم للماء ، ولو كان فى الحضر .

السابع والعشرون : أن الخارج من السبيلين ، من بول وغائط ، ينقض الوضوء .

الثامن والعشرون : استدل بها من قال : لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران .

فلا ينتقض بلمس الفرج ، ولا بغيره .

التاسع والعشرون : استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ ، لقوله تعالى: [أو جاء أحد منكم من الغائط] .

الثلاثون : أن لمس المرأة بلذة وشهوة ، ناقض للوضوء .

الحادى والثلاثون : اشتراط عدم الماء ، لصحة التيمم .

الثانى والثلاثون : أن مع وجود الماء ، ولو فى الصلاة ، يبطل التيمم ، لأن الله إنما أباحه ، مع عدم الماء .

الثالث والثلاثون : أنه إذا دخل الوقت ، وليس معه ماء ، فإنه يلزمه طلبه فى رحله ، وفيما قرب منه ، لأنه لا يقال « لم يجد » ، لمن لم يطلب .

الرابع والثلاثون : أن من وجد ماء لا يكفى بعض طهارته ، فإنه يلزمه استعماله ، ثم يتيمم بعد ذلك .

الخامس والثلاثون : أن الماء المتغير بالطاهرات ، مقدم على التيمم ، أى يكون طهوراً ، لأن الماء المتغير ماء ، فيدخل فى قوله [فلم تجدوا ماء] .

السادس والثلاثون : أنه لا بد من نية التيمم لقوله [فتيمموا] أى : اقصدوا .

السابع والثلاثون : أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض ، من تراب وغيره .

فيكون على هذا ، قوله [فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه] إما من باب التغليب ، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه، ويعلق بالوجه واليدين.

وإما أن يكون إرشادا للأفضل ، وأنه إذا أمكن التراب الذى فيه غبار فيه[1] ، فهو أولى .

الثامن والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيباً ، بل خبيثاً .

التاسع والثلاثون : أنه يمسح فى التيمم ، الوجه واليدان فقط ، دون بقية الأعضاء .

الأربعون: أن قوله [بوجوهكم] شامل لجميع الوجه وأن يعمه بالمسح ، إلا أنه معفو عن إدخال التراب فى الفم والأنف ، وفيما تحت الشعور ، ولو خفيفة .

الحادى والأربعون : أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط ، لأن اليدين عند الإطلاق ، كذلك .

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين ، لقيده الله بذلك ، كما قيده فى الوضوء.

الثانى والأربعون : أن الآية عامة فى جواز التيمم ، لجميع الأحداث

(١) فيه : هكذا في الأصل . لعل الصواب أن (فيه) زائدة .

نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

كلها ، الحدث الأكبر ، والأصغر ، بل ونجاسة البدن ، لأن الله جعلها [١] بدلا عن طهارة الماء ، وأطلق فى الآية ، فلم يقيد .

وقد يقال : إن نجاسة البدن ، لا تدخل فى حكم التيمم ، لأن السياق فى الأحداث ، وهو قول جمهور العلماء .

الثالث والأربعون : أن محل التيمم فى الحدث الأصغر والأكبر ، واحد ، وهو الوجه واليدان .

الرابع والأربعون : أنه لو نوى من عليه حدثان ، التيمم عنهما ، فإنه يجزىء ، أخذاً من عموم الآية وإطلاقها .

الخامس والأربعون : أنه يكفى المسح بأى شىء كان ، بيده أو غيرها ، لأن الله قال « فامسحوا » ولم يذكر الممسوح به ، فدل على جوازه بكل شىء .

السادس والأربعون : اشتراط الترتيب فى طهارة التيمم ، كما يشترط ذلك فى الوضوء .

ولأن الله بدأ بمسح الوجه ، قبل مسح اليدين .

السابع والأربعون : أن الله تعالى — فيما شرعه لنا من الأحكام — لم يجعل علينا فى ذلك من حرج ولا مشقة ، ولا عسر .

وإنما هو رحمة منه بعباده ، ليطهرهم ، وليتم نعمته عليهم .

وهذا هو الثامن والأربعون : أن طهارة الظاهر بالماء والتراب ، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد ، والتوبة النصوح .

---

(١) قوله (جعلها) أى : جعل الطهارة بالتيمم .

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

التاسع والأربعون : أن طهارة التيمم — وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة ، تدرك بالحس والمشاهدة ، فإن فيها طهارة معنوية ، ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى

والخمسون: أنه ينبغى للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار، فى شرائع الله، فى الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً ، ويزداد شكراً لله ومحبة له ، على ما شرع من الأحكام التى توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة .

* يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية ، بقلوبهم وألسنتهم .

فإن فى استدامة ذكرها ، داعياً لشكر الله تعالى ، ومحبته ، وامتلاء القلب من إحسانه .

وفيه زوال للعجب ، من النفس ، بالنعم الدينية ، وزيادة لفضل الله وإحسانه .

و[ميثاقه] أى : واذكروا ميثاقه [الذى واثقكم به] أى : عهده الذى أخذه عليكم .

وليس المراد بذلك ، أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق .

وإنما المراد بذلك ، أنهم — بإيمانهم بالله ورسوله — قد التزموا طاعتهما .

ولهذا قال [إذ قلتم سمعنا وأطعنا] أى : سمعنا ما دعوتنا به ، من آياتك القرآنية والكونية ، سمع فهم ، وإذعان ، وانقياد .

وأطعنا ما أمرتنا به ، بالامتثال ، وما نهيتنا عنه بالاجتناب .

وهذا شامل لجميع شرائع الدين ، الظاهرة والباطنة .

وأن المؤمنين يذكرون فى ذلك ، عهد الله وميثاقه عليهم ، وتكون منهم على بال ، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملا غير ناقص .

[واتقوا الله] فى جميع أحوالكم [إن الله عليم بذات الصدور] أى : ما تنطوى عليه ، من الأفكار ، والأسرار ، والخواطر .

فاحذروا أن يطلع ، من قلوبكم ، على أمر لا يرضاه ، أو يصدر منكم ما يكرهه ، واعمروا قلوبكم ، بمعرفته ، ومحبته ، والنصح لعباده .

فإنكم — إن كنتم كذلك — غفر لكم السيئات ، وضاعف لكم الحسنات ، لعلمه بصلاح قلوبكم .

* أى [يا أيها الذين آمنوا] بما أمروا بالإيمان به ،قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا [قوامين لله شهداء بالقسط] ، بأن تنشط للقيام بالقسط ، حركاتكم الظاهرة والباطنة .

وأن يكون ذلك القيام ، لله وحده ، لا لغرض من الأغراض الدنيوية.

وأن تكونوا قاصدين للقسط ، الذى هو العدل ، لا الإفراط ولا التفريط ، فى أقوالكم ولا فى أفعالكم .

وقوموا بذلك ، على القريب ، والبعيد ، والصديق والعدو .

بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

[ولا يجرمنكم] أى لا يحملنكم [شنآن قوم] أى : بغضهم .

[على أن لا تعدلوا] كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط .

بل كما تشهدون لوليكم ، فاشهدوا عليه ، وكما تشهدون على عدوكم ، فاشهدوا له ، فلو كان كافراً أو مبتدعاً .

فإنه يجب العدل فيه ، وقبول ما يأتى به من الحق ، لا لأنه قاله .

ولا يرد الحق لأجل قوله ، فإن هذا ظلم للحق .

[اعدلوا هو أقرب للتقوى] أى : كلما حرصتم على العدل ، واجتهدتم فى العمل به ، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم ، فإن تم العدل ، كملت التقوى .

[إن الله خبير بما تعملون] فمجازيكم بأعمالكم ، خيرها ، وشرها ، صغيرها ، وكبيرها ، جزاء عاجلا ، وآجلا .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾

---

* أى [وعد الله] الذى لا يخلف الميعاد ، وهو أصدق القائلين ـ المؤمنين به ، وبكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

[وعملوا الصالحات] من واجبات ، ومستحبات ـ بالمغفرة لذنوبهم ، بالعفو عنها ، وعن عواقبها ، وبالأجر العظيم الذى لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

[فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون] .

[والذين كفروا وكذبوا بآياتنا] الدالة على الحق المبين ، فكذبوا بها ، بعد ما أبانت الحقائق .

[أولئك أصحاب الجحيم] الملازمون لها ، ملازمة الصاحب لصاحبه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى عباده المؤمنين ، بنعمه العظيمة ، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان .

وأنهم — كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم ، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة — فليعدوا أيضاً ، إنعامه عليهم ، بكف أيديهم عنهم ، ورد كيدهم فى نحورهم ، نعمة .

فإن الأعداء ، قد هموا بأمر ، وظنوا أنهم قادرون عليه .

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم ، فهو نصر من الله ، لعباده المؤمنين ينبغى لهم أن يشكروا الله على ذلك ، ويعبدوه ويذكروه .

وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر ، من كافر ، ومنافق ، وباغ ، كف الله شره عن المسلمين ، فإنه داخل فى هذه الآية .

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم ، وعلى جميع أمورهم فقال :

[وعلى الله فليتوكل المؤمنون] أى : يعتمدوا عليه فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ، ويتبرأوا من حولهم وقوتهم ، ويثقوا بالله تعالى ، فى حصول ما يحبون .

وعلى حسب إيمان العبد ، يكون توكله ، وهو من واجبات القلب المتفق عليها .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ

---

* يخبر تعالى أنه أخذ على بنى إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد .

وذكر صفة الميثاق وأجرهم ، إن قاموا به ، وإثمهم ، إن لم يقوموا به .

ثم ذكر أنهم ما قاموا به ، وذكر ما عاقبهم به فقال :

[ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل] أى : عهدهم المؤكد الغليظ .

[وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً] أى : رئيساً وعريفاً على ما تحته ، ليكون ناظراً عليهم ، حاثا لهم على القيام بما أمروا به ، مطالباً يدعوهم .

[وقال الله] للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا :

[إنى معكم] أى : بالعون والنصر ، فإن المعونة ، بقدر المؤنة .

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال :

[لئن أقمتم الصلاة] ظاهراً ، وباطناً ، بالإتيان بما يلزم وينبغى فيها ، والمداومة على ذلك .

[وآتيتم الزكاة] لمستحقيها [وآمنتم برسلى] جميعهم ، الذين أفضلهم وأكملهم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

[وعزرتموهم] أى : عظمتموهم ، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة .

[وأقرضتم الله قرضاً حسناً] وهو الصدقة والإحسان ، الصادر عن الصدق والإخلاص ، وطيب المكسب .

ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

فإذا قمتم بذلك [لأ كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار] .

فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم ، واندفاع المكروه بتكفير السيئات ، ودفع مايترتب عليها من العقوبات .

[فمن كفر بعد ذلك] العهد والميثاق المؤكد بالإيمان ، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه .

[فقد ضل سواء السبيل] أى : عن عمد وعلم ، فيستحق ما يستحقه الضالون ، من حرمان الثواب ، وحصول العقاب .

فكأنه قيل : ليت شعرى ، ماذا فعلوا ؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه ، أم نكثوا ؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال :

[فبما نقضهم ميثاقهم] أى : بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات .

الأولى : أن [لعناهم] أى : طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة ، ولم يقوموا بالعهد الذى أخذ عليهم ، الذى هو سببها الأعظم .

الثانية : قوله [وجعلنا قلوبهم قاسية] أى : غليظة لا تجدى فيها المواعظ ، ولا تنفعها الآيات والنذر ، فلا يرغبهم تشويق ، ولا يزعجهم تخويف .

ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ

وهذا من أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون قلبه بهذه الصفة ، التى لا يفيده معها ، الهدى ، والخير إلا شراً .

الثالثة : أنهم [يحرفون الكلم عن مواضعه] أى : ابتلوا بالتغيير والتبديل ، فيجعلون الكلام الذى أراد الله له معنى ، غير ما أراد الله ، ولا رسوله .

الرابعة : أنهم [نسوا حظا مما ذكروا به] .

فإنهم ذكروا بالتوراة ، وبما أنزل الله على موسى ، فنسوا حظا منه .

وهذا شامل ، لنسيان علمه ، وأنهم نسوه ، وضاع عنهم ، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه ، عقوبة منه لهم .

وشامل لنسيان العمل ، الذى هو الترك ، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به .
ويستدل بهذا على أهل الكتاب ، بإنكارهم بعض الذى قد ذكر فى كتابهم ، أو وقع فى زمانهم ، أنه مما نسوه .

الخامسة : الخيانة المستمرة التى [لا تزال تطلع على خائنة منهم] أى خيانتهم لله ، ولعباده المؤمنين .

ومن أعظم الخيانة منهم ، كتمهم الحق ، عن من يعظهم ، ويحسن فيهم الظن ، وإبقاؤهم على كفرهم ، فهذه خيانة عظيمة .

وهذه الخصال الذميمة ، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم .

فكل من لم يقم بما أمر الله به ، وأخذ به عليه الالتزام ، كان له نصيب

عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

من اللعنة وقسوة القلب ، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب ونسيان حظ مما ذكر به .

وأنه لابد أن يبتلى بالخيانة . نسأل الله العافية .

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظا ، لأنه هو أعظم الحظوظ ، وما عداه فإنما هى حظوظ دنيوية .

كما قال تعالى [فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم] .

وقال فى الحظ النافع [وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم] .

وقوله [إلا قليلا منهم] أى: فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليه فوفقهم، وهداهم للصراط المستقيم .

[فاعف عنهم واصفح] أي : لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى، الذى يقتضى أن يعفى عنهم .

واصفح ، فإن ذلك من الإحسان [والله يحب المحسنين] .

والإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

وفى حق المخلوقين : بذل النفع الدينى والدنيوى لهم .

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

* أى : وكما أخذنا من اليهود العهد والميثاق ، فكذلك أخذنا [من الذين قالوا إنا نصارى] لعيسى بن مريم ، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله ، وما جاءوا به ، ونقضوا العهد .

[فنسوا حظا مما ذكروا به] نسيانا علمياً ، ونسياناً عمليا .

[فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة] أى: سلطنا بعضهم على بعض ، وصار بينهم من الشرور والإحن ، ما يقتضى بغض بعضهم بعضا ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة .

وهذا أمر مشاهد ، فإن النصارى لم يزالوا فى بغض وعداوة وشقاق .

[وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون] فيعاقبهم عليه .

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ

---

* لما ذكر تعالى، ما أخذه الله على أهل الكتاب، من اليهود والنصارى وأنهم نقضوا ذلك، إلا قليلا، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، واحتج عليهم بآية قاطعة دالة على صحة نبوته.

وهى : أنه يبين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم.

فإذا كانوا هم المشار إليهم فى العلم ولا عند أحد فى ذلك الوقت إلا ما عندهم، فالحريص على العلم، لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم.

فإتيان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن العظيم، الذى بين به ما كانوا يتكاتمون بينهم، وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب — من أدل الدلائل على القطع برسالته.

وذلك مثل صفة محمد فى كتبهم، ووجود البشائر به فى كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك.

[ويعفو عن كثير] أى : يترك بيان مالا تقتضيه الحكمة.

[قد جاءكم من الله نور] وهو القرآن، يستضاء به فى ظلمات الجهالة، وعماية الضلالة.

[وكتاب مبين] بكل ما يحتاج الخلق إليه، من أمور دينهم ودنياهم،

رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

من العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومن العلم بأحكامة الشرعية وأحكامه الجزائية.

ثم ذكر من الذى يهتدى بهذا القرآن؟ وما هو السبب الذى من العبد لحصول ذلك فقال:

[يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام] أى: يهدى من اجتهد وحرص، على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً ـ سبل السلام، التى يسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالا وتفصيلا.

[ويخرجهم من الظلمات] ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة.

[إلى النور] نور الإيمان والسنة، والطاعة، والعلم، والذكر.

وكل هذه من الهداية بإذن الله، الذى ماشاء كان، ومالم يشأ، لم يكن.

[ويهديهم إلى صراط مستقيم].

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

☆ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين ، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه ــ ذكر أقوالهم الشنيعة .

فذكر قول النصارى ، القول الذى ما قاله أحد غيرهم ، بأن الله هو المسيح بن مريم .

ووجه شبهتهم ، أنه ولد من غير أب ، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل .

مع أن حواء نظيره ، خلقت بلا أم .

وآدم أولى منه ، خلق بلا أب ولا أم .

فهلا ادعوا فيهما الإلهية ، كما ادعوها فى المسيح ؟ .

فدل على أن قولهم ، اتباع هوى من غير برهان ولاشبهة .

فرد الله عليهم ، بأدلة عقلية واضحة فقال : [قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً] .

فإذا كان المذكورون ، لا امتناع عندهم ، يمنعهم لو أراد الله أن يهلكهم ، ولا قدرة لهم على ذلك ــ دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك ، ولا فى قوته شىء من الفكاك .

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ

ومن الأدلة أن [لله] وحده [ملك السموات والأرض وما بينهما] يتصرف فيهم بحكمه الكونى والشرعى والجزائى ، وهم مملوكون مدبرون .

فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير ، إلها معبوداً ، غنيا من كل وجه ؟ هذا من أعظم المحال .

ولا وجه لاستغرابهم ، لخلق المسيح عيسى بن مريم ، من غير أب فإن الله [يخلق مايشاء] إن شاء من أب وأم ، كسائر بنى آدم ، وإن شاء من أب بلا أم ، كحواء

وإن شاء من أم بلا أب ، كعيسى .

وإن شاء من غير أب ولا أم ، كآدم .

فنوع خليقته تعالى ، بمشيئته النافذة ، التى لا يستعصي عليها شيء ولهذا قال : [والله على كل شيء قدير] .

ومن مقالات اليهود والنصارى ، أن كلا منهما ، ادعى دعوى باطلة ، يزكون بها أنفسهم بأن قال كل منهما : [نحن أبناء الله وأحباؤه] .

والابن فى لغتهم هو الحبيب ، ولم يريدوا البنوة الحقيقية ، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى فى المسيح .

﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

قال الله رداً عليهم ، حيث ادعوا بلا برهان : [قل فلم يعذبكم بذنوبكم] ؟ .

فلو كنتم أحبابه ، ما عذبكم ، لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه .

[بل أنتم بشر ممن خلق] تجرى عليكم أحكام العدل والفضل .

[يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء] إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب .

[ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير] أى : فأى شىء خصكم بهذه الفضيلة ، وأنتم من جملة المماليك ، ومن جملة من يرجع إلى الله فى الدار الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

---

* يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب ـ بسبب مامن عليهم من كتابه ـ أن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ويشكروا الله تعالى ، الذى أرسله إليهم [على فترة من الرسل] وشدة حاجة إليه .

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به ، وأن يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية .

وقد قطع الله بذلك حجتهم ، لئلا يقولوا :

[ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير] .

يبشر بالثواب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها .

وينذر بالعقاب العاجل والآجل ، وبالأعمال الموجبة لذلك ، وصفة العاملين بها .

[والله على كل شيء قدير] انقادت الأشياء طوعاً وإذعانا ، لقدرته ، فلا يستعصي عليه شيء منها .

ومن قدرته أن أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ

---

* لما امتن الله على موسى وقومه، بنجاتهم من فرعون وقومه، وأسرهم واستبعادهم، ذهبوا قاصدين، لأوطانهم ومساكنهم، وهى بيت المقدس، وما حواليه وقاربوا وصول بيت المقدس.

وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم، ليخرجوه من ديارهم.

فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم، ليقروا على الجهاد فقال:

[واذكروا نعمة الله عليكم] بقلوبكم وألسنتكم.

فإن ذكرها، داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة.

[إذ جعل فيكم أنبياء] يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون.

[وجعلكم ملوكا] تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

[وآتاكم] من النعم الدينية والدنيوية [ما لم يؤت أحداً من العالمين].

فإنهم - فى ذلك الزمان - خيرة الخلق، وأكرمهم على الله.

وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعى ذلك لإيمانهم، وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه ولهذا قال:

أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾

[ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة] أي : المطهرة [التى كتب الله لكم] .

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم ، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله .

وأنه قد كتب الله لهم دخولها ، وانتصارهم على عدوهم .

[ولا ترتدوا] أي : ترجعوا [على أدباركم ، فتنقلبوا خاسرين] قد خسرتم دنياكم ، بما فاتكم من النصر على الأعداء ، وفتح بلادكم .

وآخرتكم ، بما فاتكم من الثواب ، وما استحققتم - بمعصيتكم - من العقاب .

فقالوا قولا ، يدل على ضعف قلوبهم ،وخور نفوسهم ، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله .

[ياموسى إن فيها قوماً جبارين] شديدى القوة والشجاعة ، أي : فلهذا من الموانع لنا من دخولها .

[وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون] .

وهذا من الجبن وقلة اليقين .

وإلا ، فلو كان معهم رشدهم ، لعلموا أنهم كلهم من بنى آدم ، وأن القوي ، من أعانه الله بقوة من عنده ، فإنه لاحول ولا قوة إلا بالله .

ولعلموا أنهم سينصرون عليهم ، إذ وعدهم الله بذلك ، وعدا خاصاً .

قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَـٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ

[قال رجلان من الذين يخافون] الله تعالى، مشجعين لقومهم ، منهضين لهم على قتال عدوهم ، واحتلال بلادهم .

[أنعم الله عليهما] بالتوفيق ، وكلمة الحق ، فى هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم ، وأنعم عليهم بالصبر واليقين .

[ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه ، فإنكم غالبون] أى : ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم ، وتدخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه عليهم ، فإنهم سينهزمون .

ثم أمرهم بعدة هى أقوى العدد فقال :

[وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين] .

فإن فى التوكل على الله ـ وخصوصاً فى هذا الموطن ـ تيسيراً للأمر ، ونصرا على الأعداء .

ودل هذا على وجوب التوكل ، وعلى أنه بحسب إيمان العبد ، يكون توكله .

فلم ينجع فيهم هـذا الكلام ، ولا نفع فيهم الملام ، فقالوا قول الأذلين :

[ياموسى ، إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون] .

يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ

فما أشنع هذا الكلام منهم ، ومواجهتهم به لنبيهم فى هذا المقام الحرج الضيق ، الذى قد دعت الحاجة والضرورة فيه إلى نصرة نبيهم ، وإعزاز أنفسهم .

وبهذا وأمثاله ، يظهر التفاوت بين سائر الأمم ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث قال الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم – حين شاورهم فى القتال يوم « بدر » مع أنه لم يحتم عليهم :

يارسول الله ، لوخضت بنا هذا البحر ، لخضناه معك ، ولو بلغت بنا برك الغماد[1] ، ما تخلف عنك أحد .

ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى [اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون] .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، من بين يديك ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن يسارك .

فلما رأى موسى عليه السلام ، عتوهم عليه [قال : رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى] أى : فلا يدان لنا بقتالهم ، ولست بجبار على هؤلاء .

[فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين] أى : احكم بيننا وبينهم ، بأن تنزل فيهم من العقوبة ، ما اقتضته حكمتك .

---

(١) قال فى القاموس «برك الغماد» بكسر الباء وبفتحها وسكون الراء فيهما ، موضع باليمن، أو وراء مكة بخمس ليال، أو أقصى معمور الأرض اهـ .

إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ

ودل ذلك ، على أن قولهم وفعلهم ، من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق .

[قال] الله مجيبا لدعوة موسى : [فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض] أى : إن من عقوبتهم ، أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التى كتبهم الله لها ، مدة أربعين سنة .

وتلك المدة أيضاً ، يتيهون فى الأرض ، لايهتدون إلى طريق ، ولا يبقون مطمئنين .

وهذه عقوبة دنيوية ، لعل الله تعالى ، كفر بها عنهم ، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها .

وفى هذا ، دليل على أن العقوبة على الذنب : قد تكون بزوال نعمة موجودة ، أو دفع نقمة ، قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها ، إلى وقت آخر .

ولعل الحكمة فى هذه المدة ، أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ، الصادرة عن قلوب لاصبر فيها ولاثبات .

بل قد ألفت الاستعباد لعدوها ، ولم تكن لها هم ترقيها إلى مافيه ارتقاؤها وعلوها .

ولتظهر ناشئة جديدة ، تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء ، وعدم الاستعباد ، والذل المانع من السعادة .

بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ

ولما علم الله تعالى ، أن عبده موسى ، فى غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً قومه ، وأنه ربما رق لهم ، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم فى هـذه العقوبة ، أو الدعاء لهم بزوالها ، مع أن الله قد حتمها ، قال :

[فلا تأس على القوم الفاسقين] أى: لاتأسف عليهم ولاتحزن ، فإنهم قد فسقوا ، وفسقهم اقتضى وقوع مانزل بهم ، لاظلماً منا .

☆ أى : قص على الناس ، وأخبرهم بالقضية التى جرت على ابنىآدم بالحق ، تلاوة يعتبر بها المعتبرون ، صدقاً ، لا كذبا ، وجداً ، لا لعباً .

والظاهر أن ابنى آدم ، هما : ابناه لصلبه ، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق ، وهو قول جمهور المفسرين .

أى : اتل عليهم نبأهما ، فى حال تقريبهما للقربان ، الذى أداهما إلى الحال المذكورة .

[إذ قربا قرباناً] أى : أخرج كل منهما شيئاً من ماله ، لقصد التقرب إلى الله .

[فتقبل من أحدها ولم يتقبل من الآخر] بأن علم ذلك بخبرمن السماء ، أو بالعادة السابقة فى الأمم ، أن علامة تقبل الله للقربان ، أن تنزل نار من السماء فتحرقه .

مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

[قال] الابن ، الذى لم يتقبل منه للآخر ، حسداً وبغيا [لأقتلنك] .

فقال له الآخر — مترفقاً له فى ذلك — [إنما يتقبل الله من المتقين] فأى : ذنب لى وجناية ، توجب لك أن تقتلنى ؟ إلا أنى اتقيت الله تعالى ، الذى تقواه واجبة على وعليك ، وعلى كل أحد ؟ .

وأصح الأقوال فى تفسير المتقين هنا ، أى : المتقين لله فى ذلك العمل ، بأن يكون عملهم خالصا لوجه الله ، متبعين فيه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال له ـ مخبرا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله ، لا ابتداء ، ولا مدافعة فقال :

[لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك .

وليس ذلك جبنا منى ولا عجزاً .

وإنما ذلك لأنى [أخاف الله رب العالمين] والخائف لله ، لا يقدم على الذنوب ، خصوصا ، الذنوب الكبار .

وفى هذا ، تخويف لمن يريد القتل ، وأنه ينبغى لك أن تتقى الله وتخافه .

[إنى أريد أن تبوء] أى : ترجع [بإثمى وإثمك] .

أى : إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلا أو تقتلنى ، فإنى أوثر أن تقتلنى ، فتبوء بالوزرين [فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين] .

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

دل هذا ، على أن القتل من كبائر الذنوب ، وأنه موجب لدخول النار.

فلم يرتدع ذلك الجانى ، ولم ينزجر ، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها ، حتى طوعت له قتل أخيه ، الذى يقتضى الشرع والطبع ، احترامه .

[فقتله فأصبح من الخاسرين] دنياهم وآخرتهم ، وأصبح قد سن هذه السنة ، لكل قاتل .

« ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ولهذا ورد فى الحديث الصحيح أنه « ما من نفس تقتل ، إلا كان على ابن آدم الأول ، شطر من دمها ، لأنه أول من سن القتل » .

فلما قتل أخاه ، لم يدر كيف يصنع به ، لأنه أول ميت مات من بنى آدم ، [فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض] أى : يثيرها ليدفن غرابا آخر ميتاً .

[ليريه] بذلك [كيف يواري سوءة أخيه] أى : بدنه ، لأن بدن الميت يكون عورة [فأصبح من النادمين] .

وهكذا عاقبة المعاصى ، الندامة والخسارة .

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

---

* يقول تعالى [من أجل ذلك] الذى ذكرناه فى قصة ابني آدم ، وقتل أحدهما أخاه ، وسنه القتل لمن بعده ، وأن القتل ، عاقبته وخيمة وخسارة فى الدنيا والآخرة .

[كتبنا على بنى إسرائيل] أهل الكتب السماوية [أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض] أى: بغير حق [فكأنما قتل الناس جميعا] .

لأنه ليس معه داع يدعوه إلى التبيين ، و أنه لا يقدم على القتل ، إلا بحق .

فلما تجرأ على قتل النفس ، التى لم تستحق القتل ، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره .

وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء .

فتجرؤه على قتله ، كأنه قتل الناس جميعاً .

وكذلك من أحيا نفسا أى : استبقى أحداً ، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله ، فمنعه خوف الله تعالى من قتله ، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً .

لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل .

ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين .

إما أن يقتل نفسا بغير حق ، متعمدا فى ذلك ، فإنه يحل قتله ، إن كان مكلفا مكافئا ، ليس بوالد للمقتول .

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ

وإما أن يكون مفسدا فى الأرض ، بإفساده لأديان الناس، أو أبدانهم، أو أموالهم ، كالكفار المرتدين ، والمحاربين ، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل .

وكذلك قطاع الطريق ونحوهم ، ممن يصول على الناس لقتلهم ، أو أخذ أموالهم .

[ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات] التى لا يبقى معها حجة لأحد .

[ثم إن كثيرا منهم] أى : من الناس [بعد ذلك] البيان القاطع للحجة ، الموجب للاستقامة فى الأرض [لمسرفون] فى العمل بالمعاصى ، ومخالفة الرسل ، الذين جاءوا بالبينات والحجج .

* المحاربون لله ولرسوله ، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا فى الأرض، بالكفر ، والقتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة السبل .

والمشهور أن هذه الآية الكريمة ، فى أحكام قطاع الطريق ، الذين يعرضون للناس ، فى القرى والبوادى ، فيغصبونهم أموالهم ، ويقتلونهم ، ويخيفونهم ، فيمتنع الناس من سلوك الطريق ، التى هم بها ، فتنقطع بذلك .

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم — عند إقامة الحد عليهم — أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور .

فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ

واختلف المفسرون : هل ذلك على التخيير ، وأن كل قاطع طريق ، يفعل به الإمام أو نائبه ، ما رآه المصلحة من هذه الأمور المذكورة ؟ وهذا ظاهر اللفظ .

أو أن عقوبتهم ، تكون بحسب جرائمهم ، فكل جريمة لها قسط يقابلها ، كما تدل عليه الآية ، بحكمها وموافقتها لحكمة الله تعالى .

وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم ، حتى يشتهروا ويختزوا ، ويرتدع غيرهم .

وإن قتلوا ، ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط .

وإن أخذوا مالا ، ولم يقتلوا ، تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، اليد اليمنى ، والرجل اليسرى .

وإن أخافوا الناس ، ولم يقتلوا ، ولا أخذوا مالا ، نفوا من الأرض ، فلا يتركون يأوون فى بلد ، حتى تظهر توبتهم .

وهذا قول ابن عباس رضى الله عنه ، وكثير من الأئمة ، على اختلاف فى بعض التفاصيل .

[ذلك] النكال [لهم خزى فى الدنيا] أى : فضيحة وعار [ولهم فى الآخرة عذاب عظيم] .

فدل هذا ، أن قطع الطريق ، من أعظم الذنوب ، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة .

فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

وأن فاعله ، محارب لله ولرسوله .

وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة ، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق ، عن القتل ، وأخذ الأموال ، وإخافة الناس ، من أعظم الحسنات ، وأجل الطاعات ، وأنه إصلاح فى الأرض ، كما أن ضده إفساد فى الأرض .

[إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم] أى : من هؤلاء المحاربين .

[فاعلموا أن الله غفور رحيم] أى : فيسقط عنه ، ما كان لله ، من تحتم القتل ، والصلب ، والقطع ، والنفى .

ومن حق الآدمى أيضاً ، إن كان المحارب كافراً ثم أسلم .

فإن كان المحارب مسلماً ، فإن حق الآدمى ، لا يسقط عنه من القتل ، وأخذ المال .

ودل مفهوم الآية ، على أن توبة المحارب — بعد القدرة عليه — أنها لا تسقط عنه شيئاً .

والحكمة فى ذلك ظاهرة .

وإذا كانت التوبة قبل القدرة عليه ، تمنع من إقامة الحد فى الحرابة ، فغيرها من الحدود ـ إذا تاب من فعلها ، قبل القدرة عليه ـ من باب أولى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

* هذا أمر من الله لعباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، من تقوى الله ، والحذر من سخطه وغضبه .

وذلك بأن يجتهد العبد ، ويبذل غاية ما يمكنه المقدور ، فى اجتناب ما يسخطه الله، من معاصى القلب ، واللسان، والجوارح ،الظاهرة ، والباطنة .

ويستعين بالله على تركها ، لينجو بذلك من سخط الله وعذابه .

[وابتغوا إليه الوسيلة] أى : القرب منه ، والحظوة لديه ،والحب له .

وذلك بأداء فرائضه القلبية ، كالحب له ، وفيه ، والخوف ، والرجاء ، والإنابة والتوكل .

والبدنية ، كالزكاة ، والحج .

والمركبة من ذلك ، كالصلاة ونحوها ، من أنواع القراءة والذكر ، ومن أنواع الإحسان إلى الخلق ، بالمال ، والعلم ، والجاه ، والبدن ، والنصح لعباد الله .

فكل هذه الأعمال ، تقرب إلى الله .

ولا يزال العبد يتقرب بها إلى الله ، حتى يحبه .

فإذا أحبه ، كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ويستجيب الله له الدعاء .

ثم خص تبارك وتعالى من العبادات المقربة إليه ، الجهاد فى سبيله، وهو: بذل الجهد فى قتال الكافرين ، بالمال ، والنفس ، والرأى ، واللسان ،

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

والسعى فى نصر دين الله ، بكل ما يقدر عليه العبد ، لأن هذا النوع ، من أجل الطاعات ، وأفضل القربات .

ولأن من قام به ، فهو على القيام بغيره ، أحرى وأولى [لعلكم تفلحون] إذا اتقيتم الله ، بترك المعاصى ، وابتغيتم الوسيلة إلى الله ، بفعل الطاعات ، وجاهدتم فى سبيله ، ابتغاء مرضاته .

والفلاح هو : الفوز والظفر بكل مطلوب مرغوب ، والنجاة من كل مرهوب .

فحقيقته ، السعادة الأبدية ، والنعيم المقيم .

* يخبر تعالى عن شناعة حال الكافرين يوم القيامة وما لهم من العذاب الفظيع .

وأنهم لو افتدوا من عذاب الله ، بملء الأرض ذهباً ومثله معه ، ما تقبل منهم ، ولا أفاد ، لأن محل الافتداء قد فات ، ولم يبق إلا العذاب الأليم ، الموجع الدائم الذين لا يخرجون منه أبدا ، بل هم ماكثون فيه ، سرمداً .

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ

---

* السارق : هو من أخذ مال غيره المحترم خفية ، بغير رضاه .

وهو من كبائر الذنوب الموجبة ، لترتب العقوبة الشنيعة ، وهو قطع اليد اليمنى ، كما هو فى قراءة بعض الصحابة .

وحد اليد عند الإطلاق : من الكوع .

فإذا سرق ، قطعت يده من الكوع ، وحسمت فى زيت ، لتنسد العروق فيقف الدم .

ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية ، من عدة أوجه :

منها : الحرز ، فانه لابد أن تكون السرقة من حرز ، وحرز كل مال : ما يحفظ به عادة .

فلو سرق من غير حرز ، فلا قطع عليه .

ومنها : أنه لابد أن يكون المسروق نصاباً ، وهو : ربع دينار ، أو ثلاثة دراهم ، أو ما يساوى أحدهما .

فلو سرق دون ذلك ، فلا قطع عليه .

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها .

فان لفظ « السرقة » أخذ الشيء ، على وجه ، لا يمكن الاحتراز منه .

وذلك أن يكون المال محرزاً .

فلو كان غير محرز ، لم يكن ذلك سرقة شرعية .

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد ، فى الشيء النزر التافه .

وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

فلما كان لابد من التقدير ، كان التقدير الشرعى ، مخصصاً للكتاب .

والحكمة فى قطع اليد فى السرقة ، أن ذلك حفظ للأموال ، واحتياط لها ، وليقطع العضو الذى صدرت منه الجناية .

فإن عاد السارق ، قطعت رجله اليسرى .

فإن عاد ، فقيل : تقطع يده اليسرى ، ثم رجله اليمنى ، وقيل : يحبس حتى يموت .

وقوله [جزاء بما كسبا] أى : ذلك القطع ، جزاء للسارق بما سرقه ، من أموال الناس .

[نكالا من الله] أى : تنكيلا وترهيباً للسارق ولغيره ، ليرتدع السراق — إذا علموا — أنهم سيقطعون إذا سرقوا .

[والله عزيز حكيم] أى : عز وحكم ، فقطع السارق .

[فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم] .

فيغفر لمن تاب ، فترك الذنوب ، وأصلح الأعمال والعيوب .

وذلك أن الله له ملك السموات والأرض ، يتصرف فيهما بما شاء ، من التصاريف القدرية والشرعية ، والمغفرة ، والعقوبة ، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ

☆ كان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم — من شدة حرصه على الخلق — يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان ، ثم يرجع إلى الكفر .

فأرشده الله تعالى ، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء .

فإن هؤلاء ، لا فى العير ولا فى النفير .

إن حضروا ، لم ينفعوا وإن غابوا ، لم يفقدوا .

ولهذا قال — مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم — فقال :

[من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم] فإن الذين يؤسى ويحزن عليهم ، من كان معدودا من المؤمنين ، ظاهراً وباطناً .

وحاشا لله ، أن يرجع هؤلاء عن دينهم ، ويرتدوا ، فإن الإيمان ـ إذا خالطت بشاشته القلوب ـ لم يعدل به صاحبه غيره ، ولم يبغ به بدلا .

[ومن الذين هادوا] أى : اليهود [سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك] .

أى : مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم ، المبنى أمرهم على الكذب ، والضلال ، والغى .

وهؤلاء الرؤساء المتبعون [لم يأتوك] بل أعرضوا عنك ، وفرحوا بما عندهم من الباطل .

مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ

[يحرفون الكلم من بعد مواضعه] أى : يجلبون معانى للألفاظ ، ما أرادها الله ، ولا قصدها ، لإضلال الخلق ، ولدفع الحق .

فهؤلاء المنقادون ، للدعاة إلى الضلال ، المتبعين المحال ، الذين يأتون بكل كذب ، لا عقول لهم ولا همم .

فلا تبال أيضاً ، إذا لم يتبعوك ، لأنهم فى غاية النقص ، والناقص لا يؤبه له ، ولا يبالى به .

[يقولون إن أوتيتم هذا ، فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا] أى : هذا قولهم عند محاكمتهم إليك ، لا قصد لهم ، إلا اتباع الهوى .

يقول بعضهم لبعض : إن حكم لكم محمد بهذا الحكم ، الذى يوافق هواكم ، فاقبلوا حكمه .

وإن لم يحكم لكم به ، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك .

وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس .

[ومن يرد الله فتنته ، فلن تملك له من الله شيئاً] كقوله تعالى :

[إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء] .

[أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم] أى : فلذلك صدر منهم ما صدر .

فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ

فدل ذلك ، على أن من كان مقصوده بالتحاكم ، إلى الحكم الشرعى ، اتباع هواه ، وأنه إن حكم له رضى ، وإن لم يحكم له ، سخط ، فإن ذلك من عدم طهارة قلبه .

كما أن من حاكم وتحاكم إلى الشرع ، ورضى به ، وافق هواه أو خالفه ، فإنه من طهارة القلب .

ودل على أن طهارة القلب ، سبب لكل خير ، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد ، وعمل سديد .

[لهم فى الدنيا خزى] أى : فضيحة وعار [ولهم فى الآخرة عذاب عظيم] هو : النار ، وسخط الجبار .

[سماعون للكذب] والسمع ههنا ، سمع استجابة أى : من قلة دينهم وعقلهم ، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب .

[أكالون للسحت] أى : المال الحرام ، بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم ، من المعلومات والرواتب ، التى بغير الحق .

فجمعوا بين اتباع الكذب ، وأكل الحرام .

[فإن جاءوك ، فاحكم بينهم أو أعرض عنهم] فأنت مخير فى ذلك .

وليست هذه منسوخة ، فإنه — عند تحاكم هذا الصنف إليه — يخير بين أن يحكم بينهم ، أو يعرض عن الحكم بينهم ، بسبب أنه ، لا قصد لهم فى الحكم الشرعى ، إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم .

فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

وعلى هذا ، فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم ، يعلم من حاله ، أنه ، إن حكم عليه ، لم يرض ، لم يجب الحكم ، ولا الإفتاء لهم .

فإن حكم بينهم ، وجب أن يحكم بالقسط ، ولهذا قال : [وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين] .

حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء ، فلا يمنعك ذلك من العدل فى الحكم بينهم .

وفى هذا بيان فضيلة العدل والقسط فى الحكم بين الناس ، وأن الله تعالى يحبه .

ثم قال متعجباً منهم : [وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين] .

فإنهم ـ لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه ـ لم يصدفوا عن حكم الله الذى فى التوراة ، التى بين أيديهم ، إلا لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم .

وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً ، لم يرضوا بذلك ، بل أعرضوا عنه ، فلم يرتضوه أيضاً .

قال تعالى [وما أولئك] الذين ، هذا صنيعهم [بمؤمنين] .

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ

أى : ليس هذا دأب المؤمنين ، وليسوا حريين بالإيمان . لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم ، وجعلوا أحكام الإيمان ، تابعة لأهوائهم .

[إنا أنزلنا التوراة] على موسى بن عمران ، عليه الصلاة والسلام .

[فيها هدى] يهدى إلى الإيمان والحق ، ويعصم من الضلالة .

[ونور] يستضاء به فى ظلم الجهل والحيرة والشكوك ، والشبهات ، والشهوات .

كما قال تعالى : [ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ، وضياء وذكرى للمتقين] .

[يحكم بها] بين الذين هادوا ، أى : اليهود فى القضايا والفتاوى [النبيون الذين أسلموا] لله ، وانقادوا لأوامره ، الذين إسلامهم ، أعظم من إسلام غيرهم ، صفوة الله من العباد .

فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام ، والسادة للأنام ، قد اقتدوا بها ، وائتموا ، ومشوا خلفها ، فما الذى منع هؤلاء الأراذل من اليهود ، من الاقتداء بها ؟

وما الذى أوجب لهم ، أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يقبل عمل ظاهر وباطن ، إلا بتلك العقيدة ؟

هل لهم إمام فى ذلك ؟

نعم لهم أئمة دأبهم التحريف ، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس ،

والتأكل بكتمان الحق ، وإظهار الباطل ، أولئك أئمة الضلال ، الذين يدعون إلى النار .

وقوله: [الربانيون والأحبار] أي : وكذلك يحكم بالتوراة الذين هادوا أئمة الدين من الربانيين أى : العلماء العاملين المعلمين ، الذين يربون الناس بأحسن تربية ، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين .

والأحبار أي : العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم ، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم .

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق [بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء] أي : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أمناء عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه ، من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشتبه على الناس منه .

فالله تعالي قد حمل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، فى الإخلاد إلى البطالة والكسل .

وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التى إذا قام بها غير أهل العلم ، سلموا ونجوا .

وأما أهل العلم ، فكما أنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاحون إليه ، من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية ، والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ولهذا قال :

[فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا] فتكتموا الحق ، وتظهروا الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل .

وهذه الآفات ، إذا سلم منها العالم ، فهو من توفيقه .

وسعادته بأن يكون همه ، الاجتهاد فى العلم والتعليم ، ويعلم ، أن الله قد استحفظه بما أودعه من العلم ، واستشهده عليه وأن يكون خائفاً من ربه .

ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم ، من القيام بما هو لازم له .

وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العلم ، أن يكون مخلداً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه .

قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى فى أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله ، إلا بأجرة وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ، ودفع حظا جسيما ، حرم منه غيره .

فنسألك اللهم ، علما نافعاً ، وعملا متقبلا ، وأن ترزقنا العفو والعافية ، من كل بلاء . يا كريم .

وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ

[ومن لم يحكم بما أنزل الله] من الحق المبين ، وحكم بالباطل الذى يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة [فأولئك هم الكافرون] .

فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة .

وذلك إذ اعتقد حله وجوازه .

وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر ، قد استحق من فعله ، العذاب الشديد .

* هذه الأحكام من جملة الأحكام التى فى التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، للذين هادوا ، والربانيون ، والأحبار .

فإن الله أوجب عليهم ، أن النفس ـ إذا قتلت ـ تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة .

والعين ، تقلع بالعين ، والأذن ، تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن .

ومثل هذه ما أشبهها من الأطراف التى يمكن الاقتصاص منها بدون حيف .

[والجروح قصاص] والاقتصاص . أن يفعل به كما فعل .

وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

فمن جرح غيره عمداً ، اقتص من الجارح جرحاً ، مثل جرحه للمجروح ، حداً ، وموضعاً ، وطولا ، وعرضاً وعمقاً .

وليعلم أن شرع من قبلنا ، شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

[فمن تصدق به] أى : بالقصاص فى النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عمن جنى ، وثبت له الحق قبله .

[فهو كفارة له] أى : كفارة للجانى ، لأن الآدمى عفا عن حقه .

والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه .

وكفارة أيضاً عن العافى ، فإنه كما عفا عمن جنى عليه ، أو عمن يتعلق به — فإن الله يعفو عن زلاته وجناياته .

[ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون] قال ابن عباس ، كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق .

فهو ظلم أكبر ، عند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله ، غير مستحل له .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

* أى : وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة ، بعبدنا ورسولنا ، عيسى بن مريم ، روح الله وكلمته التى ألقاها إلى مريم .

بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ، ولما جاء به من التوراة ، بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له فى أكثر الأمور الشرعية .

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف فى بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه أنه قال لبنى إسرائيل .

[ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم] .

[وآتيناه الإنجيل] الكتاب العظيم ، المتمم للتوراة .

[فيه هدى ونور] يهدى إلى الصراط المستقيم ، ويبين الحق من الباطل .

[ومصدقا لما بين يديه من التوراة] بتثبيتها والشهادة لها ، والموافقة .

[وهدى وموعظة للمتقين] فإنهم الذين ينتفعون بالهدى ، ويتعظون بالمواعظ ، ويرتدعون عما لا يليق .

[وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه] أى : يلزمهم التقيد بكتابهم ، ولا يجوز لهم العدول عنه .

[ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون] .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

* يقول تعالى [وأنزلنا إليك الكتاب] الذى هو القرآن العظيم ، أفضل الكتب وأجلها .

[بالحق] أى : إنزالا بالحق ، ومشتملا على الحق ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه .

[مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، لأنه شهد للكتب السالفة ، ووافقها ، وطابقت أخباره أخبارها ، وشرائعه الكبار شرائعها ، وأخبرت به ، فصار وجودها مصداقا لخبرها .

[ومهيمنا عليه] أى : مشتملا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة ، وزيادة فى المطالب الإلهية ، والأخلاق النفسية .

فهو الكتاب الذى يتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به ، وحث عليه ، وأكثر من الطرق الموصلة إليه .

وهو الكتاب الذى فيه نبأ السابقين واللاحقين .

وهو الكتاب الذى ، فيه الحكم ، والحكمة ، والأحكام ، الذى عرضت عليه الكتب السابقة .

فما شهد له بالصدق ، فهو المقبول ، وما شهد له بالرد ، فهو مردود ، قد دخله التحريف والتبديل .

وإلا ، فلو كان من عند الله ، لم يخالفه .

[فاحكم بينهم بما أنزل الله] من الحكم الشرعى ، الذى أنزله الله عليك .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ

[ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق] أى : لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق ، بدلا عما جاءك من الحق ، فتستبدل الذى هو أدنى ، بالذى هو خير .

[لكل جعلنا منكم] أيها الأمم [شرعة ومنهاجا] أى : سبيلا وسنة .

وهذه الشرائع التى تختلف باختلاف الأمم ، هى التى تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال ، وكلها ترجع إلى العدل ، فى وقت شرعتها .

وأما الأصول الكبار ، التى هى مصلحة وحكمة فى كل زمان ، فإنها لا تختلف ، فتشرع فى جميع الشرائع .

[ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة] تبعا لشريعة واحدة ، لا يختلف متأخرها ولا متقدمها .

[ولكن ليبلوكم فيما آتاكم] فيختبركم ، وينظر كيف تعملون ، ويبتلى كل أمة بحسب ماتقتضيه حكمته ، ويؤتى كل أحد مايليق به ، وليحصل التنافس بين الأمم .

فكل أمة تحرص على سبق غيرها ، ولهذا قال : [فاستبقوا الخيرات] .

أى : بادروا إليها ، وأكملوها ، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب ، من حقوق الله ، وحقوق عباده ، لا يصير فاعلها سابقا لغيره ، مستوليا على الأمر ، إلا بأمرين .

فِي مَآ ءَاتَـٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

المبادره إليها ، وانتهاز الفرصة ، حين يجيء وقتها ، ويعرض عارضها ، والاجتهاد فى أدائها ، كاملة على الوجه المأمور به .

ويستدل بهذه الآية ، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها ، فى أول وقتها .

وعلى أنه ينبغى أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزى فى الصلاة وغيرها من العبادات ، من الأمور الواجبة .

بل ينبغى أن يأتى بالمستحبات ، التى يقدر عليها ، لتتم وتكمل ، ويحصل بها السبق .

[إلى الله مرجعكم جميعاً] الأمم السابقة واللاحقة ، كلهم سيجمعهم الله ، ليوم لاريب فيه .

[فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون] من الشرائع والأعمال .

فيثيب أهل الحق والعمل الصالح ، ويعاقب أهل الباطل ، والعمل السيىء .

[وأن احكم بينهم بما أنزل الله] هذه الآية هى التى قيل : إنها ناسخة لقوله [فاحكم بينهم أو أعرض عنهم] .

والصحيح : أنها ليست بناسخة ، وأن تلك الآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم مخير بين الحكم بينهم ، وبين عدمه ، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم ، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله ، من الكتاب والسنة .

وهو القسط الذى تقدم أن الله قال [وإن حكمت ، فاحكم بينهم بالقسط] .

ودل هذا ، على بيان القسط ، وأن مادته هو ماشرعه الله من الأحكام فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط ، وما خالف ذلك ، فهو جور وظلم .

[ولا تتبع أهواءهم] كرر النهى عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها .

ولأن ذلك ، فى مقام الحكم والفتوى ، وهو أوسع ، وهذا فى مقام الحكم وحده .

وكلاهما ، يلزم فيه أن لايتبع أهواءهم ، المخالفة للحق ، ولهذا قال :

[واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك] .

أى : إياك والاغترار بهم ، وأن يفتنوك ، فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك .

فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلا إلى ترك الحق الواجب ، والفرض اتباعه .

[فإن تولوا] عن اتباعك ، واتباع الحق [فاعلم] أن ذلك عقوبة عليهم و [أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم] فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

ومن أعظم العقوبات ، أن يبتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول ، وذلك لفسقه .

[وإن كثيراً من الناس لفاسقون] أى : طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله ، واتباع رسوله .

[أفحكم الجاهلية يبغون] أى : أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك ، حكم الجاهلية .

وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله .

فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية .

فمن أعرض عن الأول ، ابتلى بالثانى المبنى على الجهل ، والظلم ، والغى ولهذا ، أضافه الله للجاهلية .

وأما حكم الله تعالى ، فمبنى على العلم ، والعدل ، والقسط ، والنور ، والهدى .

[ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون] فالموقن ، هو الذى يعرف الفرق بين الحكمين ويميز ـ بإيقانه ـ ما فى حكم الله ، من الحسن والبهاء ، وأنه يتعين ـ عقلا وشرعاً ـ اتباعه .

واليقين ، هو : العلم التام ، الموجب للعمل .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

---

* يرشد تعالى عباده المؤمنين ، حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى ، وصفاتهم غير الحسنة ، أن لا يتخذوهم أولياء .

فإن [بعضهم أولياء بعض] يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدا على من سواهم .

فأنتم ، لا تتخذوهم أولياء ، فإنهم ، هم الأعداء على الحقيقة .

ولا يبالون بضركم ، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم .

فلا يتولاهم ، إلا من هو مثلهم ، ولهذا قال : [ومن يتولهم منكم فإنه منهم] .

لأن التولى التام ، يوجب الانتقال إلى دينهم .

والتولى القليل ، يدعو إلى الكثير ، ثم يتدرج شيئا فشيئاً ، حتى يكون العبد منهم .

[إن الله لايهدى القوم الظالمين] أى : الذين وصفهم الظلم ، وإليه يرجعون ، وعليه يعولون .

فلو جئتهم بكل آية ، ماتبعوك ، ولا انقادوا لك .

ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم ، أخبر أن ممن يدعى الإيمان ، طائفة تواليهم فقال :

يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

[فترى الذى فى قلوبهم مرض] أى : شك ، ونفاق ، وضعف إيمان ، يقولون : إن تولينا إياهم[1] للحاجة فإننا [نخشى أن تصيبنا دائرة] أى : تكون الدائرة لليهود والنصارى فإذا كانت الدائرة لهم ،فاذاً لنا معه يد[2] يكافئوننا عنها ، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام .

قال تعالى ـ راداً لظنهم السيىء ـ [فعسى الله أن يأتى بالفتح] الذى يعز الله به الإسلام ، على اليهود والنصارى ، ويقهرهم المسلمون [أو أمر من عنده] ييأس به المنافقون من ظفر الكافرين ، من اليهود وغيرهم .

[فيصبحوا على ما أسروا] أى : أضمروا [فى أنفسهم نادمين] على ما كان منهم وضرهم ، بلا نفع حصل لهم .

فحصل الفتح الذى نصر الله به الإسلام والمسلمين ، وأذل به الكفر والكافرين .

فندموا وحصل لهم من الغم ، ما الله به عليم .

---

(١) قوله (تولينا إياهم) خطأ نحوى والصواب (توليناهم) لأن المقرر فى القواعد النحوية كما ذكره ابن هشام ـ فى كتاب (القطر) وابن مالك فى ألفيته أن الضمير مهما أمكن اتصاله فلا يعدل عنه إلى الانفصال .

(٢) قوله (فإذاً لنا معهم يد) تعبير ليس على ماينبغى ، الصواب (فتكون لنا عندهم يد) .

نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

[ويقول الذين آمنوا] متعجبين من حال هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض:

[أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم] أى : حلفوا وأكدوا حلفهم ، وغلظوه بأنواع التأكيدات : إنهم لمعكم فى الإيمان ، وما يلزمه من النصرة ، والمحبة ، والموالاة .

ظهر ما أضمروه ، وتبين ما أسروه ، وصار كيدهم الذى كادوه ، وظنهم الذى ظنوه بالإسلام وأهله ـ باطلا .

وبطل كيدهم [حبطت أعمالهم] فى الدنيا [فأصبحوا خاسرين] حيث فاتهم مقصودهم ، وحضرهم الشقاء والعذاب .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

* يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين ، وأنه من يرتد عن دينه ، فلن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه .

وأن لله ، عباداً مخلصين ، ورجالا صادقين ، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم ، ووعد بالإتيان بهم ، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً ، وأقواهم نفوساً ، وأحسنهم أخلاقاً .

أجل صفاتهم أن الله [يحبهم ويحبونه] .

فإن محبة الله للعبد ، هى أجل نعمة أنعم بها عليه ، وأفضل فضيلة ، تفضل الله بها عليه .

وإذا أحب الله عبداً ، يسر له الأسباب ، وهون عليه كل عسير ، ووفقه لفعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وأقبل بقلوب عباده إليه ، بالمحبة والوداد

ومن لوازم محبة العبد لربه ، أنه لابد أن يتصف بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ظاهراً وباطناً ، فى أقواله وأعماله ، وجميع أحواله .

كما قال تعالى [قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله] .

كما أن من لوازم محبة الله للعبد ، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله ، بالفرائض والنوافل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح عن الله :

ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

« وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

ومن لوازم محبة الله ، معرفته تعالى ، والإكثار من ذكره .

فإن المحبة بدون معرفة بالله ، ناقصة جداً ، بل غير موجودة ، وإن وجدت دعواها .

ومن أحب الله أكثر من ذكره .

وإذا أحب الله عبداً ، قبل منه اليسير من العمل ، وغفر له الكثير من الزلل .

ومن صفاتهم أنهم [أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين] .

فهم للمؤمنين أذلة ، من محبتهم لهم ، ونصحهم لهم ، ولينهم ، ورفقهم ، ورأفتهم ، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم ، وقرب الشىء الذى يطلب منهم . وعلى الكافرين بالله ، المعاندين لآياته ، المكذبين لرسله ـ أعزة قد اجتمعت هممهم وعزائمهم ، على معاداتهم ، وبذلوا جهدهم فى كل سبب يحصل به الانتصار عليهم .

قال تعالى : [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم] .

. . . .

وقال تعالى [أشداء على الكفار رحماء بينهم] .

فالغلظة الشديدة على أعداء الله ، مما يقرب العبد إلى الله ، ويوافق العبد ربه ، فى سخطه عليهم .

ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة ، دعوتهم ، إلى الدين الإسلامى ، بالتى هى أحسن .

فتجتمع الغلظة عليهم ، واللين فى دعوتهم ، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم .

[يجاهدون فى سبيل الله] بأموالهم وأنفسهم ، بأقوالهم وأفعالهم .

[ولا يخافون لومة لائم] بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين .

وهذا يدل على قوة هممهم وعزائمهم ، فإن ضعيف القلب ، ضعيف الهمة .

تنتقض عزيمته عند لوم اللائمين ، وتفتر قوته ، عند عذل العاذلين .

وفى قلوبهم تعبد لغير الله ، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم ، على أمر الله .

فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله ، حتى لا يخاف فى الله لومة لائم .

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات ، الجميلة ، والمناقب العالية ، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير ـ أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه ، لئلا يعجبوا بأنفسهم ، وليشكروا الذى من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله ، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب ، فقال:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ

[ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم] أى : واسع الفضل والإحسان ، جزيل المنن ، قد عمت رحمته كل شىء ، ويوسع على أوليائه من فضله ، ما لا يكون لغيرهم .

ولكنه عليم بمن يستحق الفضل ، فيعطيه ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلا وفرعاً .

* لما نهى عن ولاية الكفار ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين ، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه .

وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال : [إنما وليكم الله ورسوله] .

فولاية الله ، تدرك بالإيمان والتقوى .

فكل من كان مؤمنا تقيا ، كان لله ولياً ، ومن كان لله ولياً ، فهو ولى لرسوله .

ومن تولى الله ورسوله ، كان تمام ذلك ، تولى من تولاه ، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ، ظاهراً وباطناً ، وأخلصوا للمعبود ، بإقامتهم الصلاة ، بشروطها ، وفروضها ، ومكملاتها ، وأحسنوا للخلق ، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم .

وقوله : [وهم راكعون] أى : خاضعون لله ذليلون .

فأداة الحصر فى قوله [إنما وليكم الله والذين آمنوا] تدل على أنه

وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ

يجب قصر الولاية على المذكورين ، والتبرى من ولاية غيرهم .

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال :

[ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون] .

أي : فإنه من الحزب المضافين إلى الله ، إضافة عبودية وولاية ، وحزبه الغالبون ، الذين لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : [وإن جندنا لهم الغالبون] .

وهذه بشارة عظيمة ، لمن قام بأمر الله ، وصار من حزبه وجنده ، أن له الغلبة .

وإن أديل عليه فى بعض الأحيان ، لحكمة يريدها الله تعالى ، فآخر أمره ، الغلبة والانتصار ، ومن أصدق من الله قيلا .

* ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار ؛ أولياء ، يحبونهم ، ويتولونهم ، ويبدون لهم أسرار المؤمنين ، ويعاونونهم على بعض أمورهم ، التى تضر الإسلام والمسلمين .

وأن ما معهم من الإيمان ، يوجب عليهم ترك موالاتهم ، ويحثهم على معاداتهم .

وكذلك التزامهم لتقوى الله ، التى هى امتثال أوامره واجتناب زواجره مما يدعوهم إلى معاداتهم .

أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وكذلك ما كان عليه المشركون ، والكفار والمخالفون للمسلمين ، من قدحهم فى دين المسلمين ، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً ، واحتقاره واستصغاره ، خصوصاً الصلاة ، التى هى أظهر شعائر المسلمين ، وأجل عباداتهم .

إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً ، وذلك لعدم عقلهم ، وجهلهم العظيم .

وإلا فلو كان لهم عقول ، لخضعوا لها ، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التى تتصف بها النفوس .

فإذا علمتم ـ أيها المؤمنون ، حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم ـ فمن لم يعادهم بعد هذا ، دل على أن الإسلام عنده ، رخيص ، وأنه لا يبالى بمن قدح فيه ، أو قدح بالكفر والضلال ، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شىء .

فكيف تدعى لنفسك دينا قيما ، وأنه الدين الحق ؛ وما سواه باطل ، وترضى بموالاة من اتخذه هزواً ولعباً ، وسخر به وبأهله ، من أهل الجهل والحمق ؟!

وهذا فيه من التهييج على عداوتهم ، ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم .

* قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ

---

* أى : [قل] يا أيها الرسول [يا أهل الكتاب] ملزما لهم .

إن دين الإسلام هو الدين الحق ، وإن قدحهم فيه ، قدح بأمر ينبغى المدح عليه :

[هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ، وأن أكثركم فاسقون] أى : هل لنا من العيب ، إلا إيماننا بالله ، وبكتبه السابقة واللاحقة ، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين ، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان ، فإنه كافر فاسق ؟ .

فهل تنقمون منا ، بهذا الذى أوجب الواجبات على جميع المكلفين ؟!!

ومع هذا ، فأكثرهم فاسقون ، أى : خارجون عن طاعة الله متجرئون على معاصيه فأولى لكم ـ أيها الفاسقون ـ السكوت .

فلو كان عيبكم ، وأنتم سالمون من الفسق ، وهيهات ذلك ـ لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم .

ولما كان قدحهم فى المؤمنين ، يقتضى أنهم يعتقدون أنهم على شر ، قال تعالى :

[قل] لهم ، مخبرا عن شناعة ما كانوا عليه :

[هل أنبئكم بشر من ذلك] الذى نقمتم فيه علينا ، مع التنزل معكم .

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ

[من لعنه الله] أى : أبعده عن رحمته [وغضب عليه] وعاقبه فى الدنيا والآخرة [وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت] وهو الشيطان ، وكل ما عبد من دون الله ، فهو طاغوت .

[أولئك] المذكورون بهذه الخصال القبيحة [شر مكاناً] من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم ، ورضى الله عنهم ، وأثابهم فى الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين .

وهذا النوع ، من باب استعمال(١) أفعل التفضيل فى غير بابه .

وكذلك قوله [وأضل عن سواء السبيل] أى : وأبعد عن قصد السبيل.

[وإذا جاءوكم قالوا آمنا] نفاقاً ومكراً [و] هم [قد دخلوا] مشتملين [بالكفر وهم قد خرجوا به] فمدخلهم ومخرجهم ، بالكفر — وهم يزعمون أنهم مؤمنون .

فهل أشر من هؤلاء ، وأقبح حالا منهم ؟!!

---

(١) قوله : (من باب استعمال أفعل التفضيل الخ) يريد بهذا الكلام أن أفعل التفضيل يأتى على وزن (أفعل) غير أن كلمتين خرجتا عن القاعدة لكثرة دورانهما فى الكلام وهما (خير) و (شر) والقياس أن يكونا على وزن أفعل فيقال مثلا (أخير) و (أشر) .

يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

[والله أعلم بما كانوا يكتمون] فيجازيهم بأعمالهم ، خيرها وشرها .

ثم استمر تعالى ، يعدد معايبهم ، انتصارا لقدحهم فى عباده المؤمنين فقال:

[وترى كثيراً منهم] أى: من اليهود [يسارعون فى الإثم والعدوان] أى : يحرصون ، ويبادرون المعاصى المتعلقة فى حق الخالق والعدوان على المخلوقين .

[وأكلهم السحت] الذى هو الحرام .

فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك ، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه .

وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصى والظلم .

هذا ، وهم يدعون لأنفسهم ، المقامات العالية .

[لبئس ما كانوا يعملون] وهذا فى غاية الذم لهم ، والقدح فيهم .

[لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت] .

أى : هلا ينهاهم العلماء ، المتصدون لنفع الناس ، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة — عن المعاصى التى تصدر منهم ، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم .

فإن العلماء،عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعى، ويرغبوهم فى الخير : ويرهبوهم من الشر [لبئس ما كانوا يصنعون] .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا

* يخبر تعالى ، عن مقالة اليهود الشنيعة ، وعقيدتهم الفظيعة فقال :

[وقالت اليهود يد الله مغلولة] أى : عن الخير والإحسان ، والبر .

[غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا] وهذا دعاء عليهم ، بجنس مقالتهم .

فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم ، بالبخل ، وعدم الإحسان .

فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقا عليهم .

فكانوا أبخل الناس ، وأقلهم إحسانا ، وأسوأهم ظنا بالله ، وأبعدهم عن رحمته ، التى وسعت كل شىء ، وملأت أقطار العالم العلوى والسفلى .

ولهذا قال : بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء] لا حجر عليه ، ولا مانع يمنعه ، مما أراد .

فإنه تعالى ، قد بسط فضله ، وإحسانه الدينى والدنيوى ، وأمر العباد أن يتعرضوا لنفحات جوده ، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه ، بمعاصيهم .

فيده سحاء الليل والنهار ، وخيره فى جميع الأوقات مدرارا .

يفرج كرباً ، ويزيل غما ، ويغنى فقيراً ، ويفك أسيرا ويجبر كسيراً ، ويجيب سائلا ، ويعطى فقيرا عائلا ، ويجيب المضطرين ، ويستجيب للسائلين .

وينعم على من لم يسأله ، ويعافى من طلب العافية ، ولا يحرم من خيره عاصيا .

بل خيره ، يرتع فيه البر والفاجر ، ويجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال .

مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ

ثم يحمدهم عليها ، ويضيفها إليهم ، وهى من جوده ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ، ما لا يدركه الوصف ، ولا يخطر على بال العبد .

ويلاطف بهم فى جميع أمورهم ، ويوصل إليهم من الإحسان ، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه .

فسبحان من كل النعم ، التى بالعباد ، فمنه ، وإليه يجأرون فى دفع المكاره .

وتبارك من لا يحصى أحد ، ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين ، بل ولا وجود لهم ، ولا بقاء إلا بجوده .

وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه ، ونسبه إلى مالا يليق بجلاله .

بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة ، ونحوهم ممن حاله كحالهم ، ببعض قولهم ، لهلكوا ، وشقوا فى دنياهم .

ولكنهم يقولون تلك الأقوال ، وهو تعالى ، يحلم عنهم ، ويصفح ، ويمهلهم ، ولا يهملهم .

وقوله [وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا] وهذا من أعظم العقوبات على العبد ، أن يكون الذكر الذى أنزله الله على رسوله ، الذى فيه حياة القلب والروح ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وفلاح الدارين ، الذى هو أكبر منه ، امتن الله بها على عباده ، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها ، والاستسلام لله بها ، وشكراً لله عليها ، أن تكون

وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ

لمثل هذا زيادة غى إلى غيه ، وطغيان إلى طغيانه ، وكفر إلى كفره .

وذلك ، بسبب ، إعراضه عنها ، ورده لها ، ومعاندته إياها ، ومعارضته لها ، بالشبه الباطلة .

[وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة] فلا يتألفون ، ولا يتناصرون ، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم .

بل لم يزالوا متباغضين فى قلوبهم ، متعادين بأفعالهم ، إلى يوم القيامة ،

[كلما أوقدوا نارا للحرب] ليكيدوا بها الإسلام وأهله ، وأبدوا ، وأعادوا ، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم [أطفأها الله] بخذلانهم ، وتفرق جنودهم ، وانتصار المسلمين عليهم .

[ويسعون فى الأرض فسادا] أى : يجتهدون ويجدون ، ولكن بالفساد فى الأرض .

أى : بعمل المعاصى ، والدعوة إلى دينهم الباطل ، والتعويق عن الدخول فى الإسلام .

[والله لا يحب المفسدين] بل يبغضهم أشد البغض ، وسيجازيهم على ذلك .

ثم قال تعالى : [ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم] .

وهذا من كرمه وجوده ، حيث لما ذكر قبائح أهل الكتاب ومعايبهم ،

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة ، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته، وجميع كتبه ، وجميع رسله ، واتقوا المعاصى ، لكفر عنهم سيئاتهم ، ولو كانت ما كانت ، ولأدخلهم جنات النعيم ، التى فيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

[ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم] :

أى : قاموا بأوامرها ، كما ندبهم الله وحثهم .

ومن إقامتهما الإيمان بما دعيا إليه ، من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة ، التي أنزلها ربهم إليهم ، أى : لأجلهم وللاعتناء بهم .

[لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم] أى: لأدر الله عليهم الرزق، ولأمطر عليهم السماء ، وأنبت لهم الأرض كما قال تعالى :

[ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض].

[منهم] أى : من أهل الكتاب [أمة مقتصدة] أى : عاملة بالتوراة والإنجيل ، عملا غير قوى ولا نشيط .

و [كثير منهم ساء ما يعملون] أى : والمسىء منهم الكثير .

وأما السابقون منهم ، فقليل ما هم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْـكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

* هذا أمر من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، بأعظم الأوامر وأجلها ، وهو : التبليغ لما أنزل الله إليه .

ويدخل فى هذا ، كل أمر تلقته الأمة عنه صلى الله عليه وسلم ، من العقائد ، والأعمال ، والأقوال ، والأحكام الشرعية ، والمطالب الإلهية .

فبلغ صلى الله عليه وسلم أكمل تبليغ ، ودعا ، وأنذر ، وبشر ، ويسر ، وعلم الجهال الأميين ، حتى صاروا من العلماء الربانيين .

وبلغ ، بقوله ، وفعله ، وكتبه ، ورسله .

فلم يبق خير إلا دل أمته عليه ، ولا شر إلا حذرها عنه .

وشهد له بالتبليغ ، أفاضل الأمة ، من الصحابة ، فمن بعدهم من أئمة الدين ، ورجال المسلمين .

[وإن لم تفعل] أى : لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك [فما بلغت رسالته] أى : فما امتثلت أمره .

[والله يعصمك من الناس] هذه حماية وعصمة من الله ، لرسوله من الناس ، وأنه ينبغى أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ ، ولا يثنيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيهم بيد الله ، وقد تكفل بعصمتك ، فأنت إنما عليك البلاغ المبين ، فمن اهتدى ، فلنفسه .

وأما الكافرون الذين لاقصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ، ولا يوفقهم للخير ، بسبب كفرهم .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

---

* أى : قل لأهل الكتاب — مناديا على ضلالهم ، ومعلناً بباطلهم :

[لستم على شىء] من الأمور الدينية ، فإنكم ، لا بالقرآن ومحمد ، آمنتم ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم ، ولا بحق تمسكتم ، ولا على أصل اعتمدتم .

حتى تقيموا التوراة والإنجيل] أى : تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما ، والتمسك بكل ما يدعوان إليه .

[و] تقيموا [ما أنزل إليكم من ربكم] الذى رباكم ، وأنعم عليكم ، وجعل أجل إنعامه ، إنزال الكتب إليكم .

فالواجب عليكم ، أن تقوموا بشكر الله ، وتلتزموا أحكام الله ، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده .

[وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفراً ، فلا تأس على القوم الكافرين] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن أهل الكتاب ، من أهل القرآن والتوراة والإنجيل ، أن سعادتهم ونجاتهم ، فى طريق واحد ، وأصل واحد ، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح .

فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فله النجاة ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة ، ولاهم يحزنون على ما خلفوا منها .

وهذا الحكم المذكور ، يشمل سائر الأزمنة .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائل] أى : عهدهم الثقيل بالإيمان بالله ، والقيام بواجباته ، التى تقدم الكلام عليها فى قوله [ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً] إلى آخر الآيات.

[وأرسلنا إليهم رسلا] يتوالون عليهم بالدعوة ، ويتعاهدونهم بالإرشاد ولكن ذلك ، لم ينجح فيهم ، ولم يفد .

[كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم] من الحق ، كذبوه ، وعاندوه ، وعاملوه أقبح المعاملة .

[فريقا كذبوا ، وفريقا يقتلون . وحسبوا أن لا تكون فتنة] أى : ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم ، لا يجر عليهم عذابا ، ولا عقوبة ، واستمروا على باطلهم .

[فعموا وصموا] عن الحق [ثم] نعشهم و[تاب عليهم] حين تابوا إليه ، وأنابوا .

[ثم] لم يستمروا على ذلك ، حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة .

حيث [عموا وصموا كثير منهم] بهذا الوصف ، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم .

[والله بصير بما يعملون] فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ

---

* يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم [إن الله هو المسيح بن مريم] .
بشبهة أنه خرج من أم بلا أب ، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية .

والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى ، وقال لهم :
[يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم] فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق .

[إنه من يشرك بالله] أحداً من المخلوقين ، لا عيسى ولا غيره .

[فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار] وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له — وهو العبادة الخالصة — لغير من هى له ، فاستحق أن يخلد فى النار .

[وما للظالمين من أنصار] ينقذونهم من عذاب الله ، أو يرفعون عنهم بعض ما نزل بهم .

[لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة] وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم .

زعموا أن الله ثالث ثلاثة ، الله ، وعيسى ، ومريم ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى .

كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء ، والعقيدة والقبيحة ؟!!.

مِن أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ

كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق ؟ ! ! .

كيف خفى عليهم رب العالمين ؟ ! ! .

قال تعالى ـ راداً عليهم وعلى أشباههم ـ : [وما من إله إلا إله واحد] متصف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص ، منفرد بالخلق والتـدبير ما بالخلق من نعمة إلا منه .

فـكيف يجعل معه إله غيره ؟!! تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

ثم توعدهم بقوله [وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم ، عذاب أليم] .

ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم ، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال :

[أفلا يتوبون إلى الله] أى : يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد ، وبأن عيسى عبد الله ورسوله ـ عما كانوا يقولونه .

[ويستغفرونه] عن ما صدر منهم [والله غفور رحيم] أى يغفر ذنوب التائبين ، ولو بلغت عنـان السماء ، ويرحمهم ، بقبول توبتهم ، وتبديل سيئاتهم حسنات .

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذى هو غاية اللطف واللين فى قوله .

[أفلا يتوبون إلى الله] .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه ، الذى هو الحق ، فقال : [ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل] .

أى : هذا غايته ، ومنتهى أمره ، أنه من عباد الله المرسلين ، الذين ليس لهم من الأمر ، ولا من التشريع ، إلا ما أرسلهم به الله ، وهو من جنس الرسل قبله ، لا مزية له عليهم ، تخرجه عن البشرية ، إلى مرتبة الربوبية .

[وأمه] مريم [صديقة] أى : هذا أيضاً غايتها ، أن كانت من الصديقين ، الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء .

والصديقية ، هى : العلم النافع ، المثمر لليقين ، والعمل الصالح .

وهذا دليل على أن مريم ، لم تكن نبية ، بل أعلى أحوالها ، الصديقية ، وكفى بذلك فضلا وشرفا .

وكذلك سائر النساء ، لم يكن منهن نبية ، لأن الله تعالى جعل النبوة فى أكمل الصنفين . فى الرجال ، كما قال تعالى [وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم] .

فإذا كان عيسى عليه السلام من جنس الأنبياء والرسل من قبله ، وأمه صديقة ، فلأى شىء اتخذهما النصارى إلهين مع الله ؟ .

وقوله: [كانا يأكلان الطعام] دليل ظاهر، على أنهما عبدان فقيران ، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

فلو كانا إلهين ، لاستغنيا عن الطعام والشراب ، ولم يحتاجا إلى شيء ، فإن الإله ، هو الغنى الحميد .

ولما بين تعالى البرهان قال : [انظر كيف نبين لهم الآيات] الموضحة للحق ، الكاشفة لليقين ، ومع هذا ، لا تفيد فيهم شيئاً ، بل لا يزالون على إفكهم ، وكذبهم ، وافترائهم . وذلك ظلم وعناد منهم .

* أى : [قل] لهم أيها الرسول : [أتعبدون من دون الله] من المخلوقين الفقراء المحتاجين .

[من لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً] وتدعون من انفرد بالضر والنفع ، والعطاء والمنع .

[والله هو السميع] لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[العليم] بالظواهر والبواطن ، والغيب والشهادة ، والأمور الماضية والمستقبلة .

فالكامل تعالى ، الذى هذه أوصافه ، هو الذى يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة ، ويخلص له الدين .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

---

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق] أى : لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل .

وذلك كقولهم فى المسيح ، ما تقدم حكايته عنهم .

وكغلوهم فى بعض المشايخ ، متبعين [أهواء قوم قد ضلوا من قبل] أى : تقدم ضلالهم .

[وأضلوا كثيراً] من الناس ، بدعوتهم إياهم إلى الدين ، الذى هم عليه .

[وضلوا عن سواء السبيل] أى : قصد الطريق ، فجمعوا بين الضلال والإضلال .

وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم ، وعن اتباع أهوائهم المردية ، وآرائهم المضلة . ثم قال تعالى :

[لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل] أى : طردوا وأبعدوا عن رحمة الله .

[على لسان داود وعيسى بن مريم] أى : بشهادتهما وإقرارهما ، بأن الحجة قد قامت عليهم ، وعاندوها .

[ذلك] الكفر واللعن [بما عصوا وكانوا يعتدون] .

كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ

أى : بعصيانهم لله ، وظلمهم لعباد الله ، صار سبباً لكفرهم ، وبعدهم عن رحمة الله ، فإن للذنوب والظلم ، عقوبات .

ومن معاصيهم التى أحلت بهم المثلات ، وأوقعت بهم العقوبات أنهم :

[كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه] أى : كانوا يفعلون المنكر ، ولا ينهى بعضهم بعضاً .

فيشترك بذلك المباشر وغيره ، الذى سكت عن النهى عن المنكر ، مع قدرته على ذلك .

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله ، وأن معصيته خفيفة عليهم .

فلو كان لديهم تعظيم لربهم ، لغاروا لمحارمه ، ولغضبوا لغضبه .

وإنما كان السكوت عن المنكر — مع القدرة — موجباً للعقوبة ، لما فيه من المفاسد العظيمة .

منها : أن مجرد السكوت ، فعل معصية ، وإن لم يباشرها الساكت .

فإنه — كما يجب اجتناب المعصية — فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية .

ومنها : ما تقدم ، أنه يدل على التهاون بالمعاصى ، وقلة الاكتراث بها .

ومنها : أن ذلك يجرىء العصاة والفسقة ، على الإكثار من المعاصى ، إذا لم يردعوا عنها ، فيزداد الشر ، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية ، ويكون لهم الشوكة والظهور .

أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ

ثم بعد ذلك ، يضعف أهل الخير ، عن مقاومة أهل الشر ، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولا .

ومنها : أنه ــ بترك الإنكار للمنكر ــ يندرس العلم ، ويكثر الجهل .

فإن المعصية ــ مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص ، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها ــ يظن أنها ليست بمعصية ، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة .

وأى مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله ، حلالا ؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقا ؟ !!

ومنها : أن بالسكوت على معصية العاصين ، ربما تزينت المعصية فى صدور الناس ، واقتدى بعضهم ببعض .

فالإنسان ، مولع بالاقتداء بأحزابه ، وبنى جنسه . ومنها ومنها .

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة ، نص الله تعالى ، أن بنى إسرائيل الكفار منهم ، لعنهم بمعاصيهم ، واعتدائهم ، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم .

[لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا] بالمحبة والموالاة والنصر .

[لبئس ما قدمت لهم أنفسهم] البضاعة الكاسدة ، والصفقة الخاسرة .

كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

وهى : سخط الله ، الذى يسخط لسخطه كل شىء ، والخلود الدائم فى العذاب العظيم .

فقد ظلمتهم أنفسهم ، حيث قدمت لهم ، هذا النزل ، غير الكريم .

وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم .

[ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ، ما اتخذوهم أولياء].

فإن الإيمان بالله وبالنبى ، وما أنزل إليه ، يوجب على العبد موالاة ربه ، وموالاة أوليائه ، ومعاداة من كفر به وعاداه ، وأوضع فى معاصيه .

فشرط ولاية الله والإيمان به ، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء .

وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط ، فدل على انتفاء المشروط .

[ولكن كثيراً منهم فاسقون] أى : خارجون عن طاعة الله والإيمان به ، وبالنبى .

ومن فسقهم ، موالاة أعداء الله .

ثم قال تعالى [لتجدن أشد الناس عداوة] إلى [أصحاب الجحيم].

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى — فى بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين ، وإلى ولايتهم ، ومحبتهم ، وأبعدهم من ذلك :

[لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا] .

فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق ، أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعياً فى إيصال الضرر إليهم .

وذلك ، لشدة بغضهم لهم ، بغياً ، وحسداً ، وعناداً ، وكفراً .

[ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى] .

وذكر تعالى لذلك عدة أسباب .

منها : أن [منهم قسيسين ورهبانا] أى : علماء متزهدين ، وعبادا في الصوامع متعبدين .

والعلم مع الزهد ، وكذلك العبادة — مما يلطف القلب ويرقه ، ويزيل عنه ما فيه ، من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود ، وشدة المشركين .

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

ومنها : [أنهم لا يستكبرون] أى : ليس فيهم تكبر ولا عتو ، عن الانقياد للحق .

وذلك موجب لقربهم من المسلمين ، ومن محبتهم .

فإن المتواضع ، أقرب إلى الخير ، من المستكبر .

ومنها : أنهم [إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول] محمد صلى الله عليه وسلم ، أثر ذلك فى قلوبهم وخشعوا له ، وفاضت أعينهم ، بحسب ما سمعوا من الحق الذى تيقنوه ، فلذلك آمنوا ، وأقروا به فقالوا :

[ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين] وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يشهدون لله بالتوحيد ، ولرسله بالرسالة ، وصحة ما جاءوا به ، ويشهدون على الأمم السابقة ، بالتصديق والتكذيب .

وهم عدول ، شهادتهم مقبولة ، كما قال تعالى [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً] .

فكأنهم ليموا على إيمانهم ، ومسارعتهم فيه ، فقالوا :

[وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين] .

أى : وما الذى يمنعنا ، من الإيمان بالله ، والحال ، أنه قد جاءنا الحق من ربنا ، الذى لا يقبل الشك والريب .

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق ، طمعنا أن يدخلنا الله الجنة ، مع القوم الصالحين .

فأى مانع يمنعنا ؟ أليس ذلك موجبا للمسارعة والانقياد للإيمان ، وعدم التخلف عنه .

قال الله تعالى: [فأثابهم بما قالوا] أى : بما تفوهوا به من الإيمان ، ونطقوا به من التصديق بالحق .

[جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين]

وهذه الآيات ، نزلت فى النصارى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، كالنجاشى وغيره ، ممن آمن منهم .

وكذلك لايزال يوجد فيهم ، من يختار دين الإسلام ، ويتبين له بطلان ماكانوا عليه ، وهم أقرب من اليهود والمشركين ، إلى دين الإسلام .

ولما ذكر ثواب المحسنين ، ذكر عقاب المسيئين فقال :

[والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم] لأنهم كفروا بالله ، وكذبوا بآياته المبينة للحق .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى [يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم] من المطاعم والمشارب ، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم ، فاحمدوه ، إذ أحلها لكم ، واشكروه ، ولا تردوا نعمته بكفرها ، أو عدم قبولها ، أو اعتقاد تحريمها .

فتجمعوا بذلك بين قول الكذب على الله ، وكفر النعمة ، واعتقاد الحلال الطيب ، حراماً خبيثاً ، فإن هذا من الاعتداء .

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: [ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين] بل يبغضهم ويمقتهم ، ويعاقبهم على ذلك .

ثم أمر بضد ما عليه المشركون ، الذين يحرمون ، ما أحل الله فقال :

[وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا] أى كلوا من رزقه الذى ساقه إليكم ، بما يسره من الأسباب ، إذا كان حلالا ، لا سرقة ، ولا غصبا ، ولا غير ذلك ، من أنواع الأموال ، التى تؤخذ بغير حق .

وكان أيضا طيباً ، وهو : الذى لا خبث فيه . نخرج بذلك ، الخبيث من السباع والخبائث .

[واتقوا الله] فى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

[الذى أنتم به مؤمنون] فإن إيمانكم بالله ، يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه . فإنه لا يتم إلا بذلك .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

ودلت الآية الكريمة ، على أنه إذا حرم حلالا عليه ، من طعام ، وشراب ، وسرية ، وأمة ، ونحو ذلك ، فإنه لا يكون حراما بتحريمه .

لكن لو فعله ، فعليه كفارة يمين ، كما قال تعالى [يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك] الآية .

إلا أن تحريم الزوجة ، فيه كفارة ظهار .

ويدخل فى هذه الآية ، أنه لا ينبغى للإنسان ، أن يتجنب الطيبات ، ويحرمها على نفسه ، بل يتناولها ، مستعينا بها ، على طاعة ربه .

* أى : فى أيمانكم ، التى صدرت على وجه اللغو ، وهى الأيمان ، التى حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك .

[ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان] أى : بما عزمتم عليه ، وعقدت عليه قلوبكم .

كما قال فى الآية الأخرى [ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم] .

[فكفارته] أى : كفارة الأيمان ، التى عقدتموها بقصدكم [إطعام عشرة مساكين] .

وذلك الإطعام [من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم] أى : كسوة عشرة مساكين ، والكسوة ، هى التى تجزى فى الصلاة .

[أو تحرير رقبة مؤمنة] كما قيدت فى غير هذا الموضع .

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة ، فقد انحلت يمينه .

[فمن لم يجد] واحداً من هذه الثلاثة [فصيام ثلاثة أيام ، ذلك] المذكور [كفارة أيمانكم إذا حلفتم] تكفرها ، وتمحوها ، وتمنع من الإثم .

[واحفظوا أيمانكم] عن الحلف بالله كاذباً ، وعن كثرة الأيمان ، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيراً ، فتمام الحفظ : أن يفعل الخير ، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير .

[كذلك يبين الله لكم آياته] المبينة للحلال من الحرام ، الموضحة للأحكام .

[لعلكم تشكرون] الله ، حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

فعلى العبد ، شكر الله تعالى ، على ما من به عليه ، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

---

* يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة ، ويخبر أنها من عمل الشيطان ، وأنها رجس .

[فاجتنبوه] أي : اتركوه [لعلكم تفلحون] فإن الفلاح ، لا يتم إلا بترك ما حرم الله ، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة .

وهي الخمر وهي : كل ما خامر العقل أي : غطاه بسكره .

والميسر ، وهو : جميع المغالبات ، التي فيها عوض من الجانبين ، كالمراهنة ونحوها .

والأنصاب ، وهي : الأصنام والأنداد ونحوها ، مما ينصب ويعبد من دون الله .

والأزلام ، التي يقتسمون بها .

فهذه الأربعة ، نهى الله عنها ، وزجر ، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها ، واجتنابها .

فمنها : أنها رجس ، أي : نجس ، خبث معنى ، وإن لم تكن نجسة حساً .

والأمور الخبيثة ، مما ينبغي اجتنابها ، وعدم التدنس بأوضارها .

ومنها : أنها من عمل الشيطان ، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان .

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه ، وتحذر مصايده وأعماله ، خصوصاً ، الأعمال التي يعملها ، ليوقع فيها عدوه ، فإنها فيها هلاكه .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ

فالحزم كل الحزم ، البعد عن عمل العدو المبين ، والحذر منها ، والخوف من الوقوع فيها .

ومنها : أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها .

فإن الفلاح هو : الفوز بالمطلوب المحبوب ، والنجاة من المرهوب .

وهذه الأمور مانعة من الفلاح ، ومعوقة له .

ومنها : أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس ، والشيطان حريص على بثها ، خصوصاً : الخمر والميسر ، ليوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء .

فإن فى الخمر ، من انقلاب العقل ، وذهاب حجاه ، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه ، من المؤمنين .

خصوصاً ، إذا اقترن بذلك من الأسباب ، ما هو من لوازم شارب الخمر ، فإنه ربما أوصل إلى القتل .

وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر ، وأخذ ماله الكثير فىغير مقابلة ، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء .

ومنها : أن هذه الأشياء تصد القلب ، وتبعد البدن عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، اللذين خلق لهما العبد ، وبهما سعادته .

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

فالخمر والميسر ، يصدانه عن ذلك أعظم صد ، ويشتغل قلبه ، ويذهل لبه في الاشتغال بهما ، حتى يمضى عليه مدة طويلة ، وهو لا يدرى أين هو .

فأى معصية أعظم وأقبح ، من معصية تدنس صاحبها ، وتجعله من أهل الخبث ، وتوقعه فى أعمال الشيطان وشباكه ، فينقاد له ، كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها ، وتحول بين العبد ، وبين فلاحه ، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ؟!!

فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها ؟!!

ولهذا عرض تعالى ، على العقول السليمة ، النهى عنها ، عرضاً بقوله [فهل أنتم منتهون] .

لأن العاقل ـ إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد ـ انزجر عنها ، وكفت نفسه ، ولم يحتج إلى وعظ كثير ، ولا زجر بليغ .

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

---

* طاعة الله وطاعة رسوله ، واحدة ، فمن أطاع الله ، فقد أطاع الرسول ، ومن أطاع الرسول ، فقد أطاع الله .

وذلك شامل للقيام ، بما أمر الله به ورسوله ، من الأعمال ، والأقوال الظاهرة ، والباطنة ، الواجبة والمستحبة ، المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق خلقه ، والانتهاء عما نهى الله ورسوله عنه ، كذلك .

وهذا الأمر أعم الأوامر ، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهى ، ظاهر ، وباطن .

وقوله : [واحذروا] أى : من معصية الله ، ومعصية رسوله ، فإن فى ذلك ، الشر والخسران المبين .

[فإن توليتم] عما أمرتم به ، ونهيتم عنه .

[فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين] وقد أدى ذلك .

فإن اهتديتم فلأنفسكم ، وإن أسأتم فعليها ، والله ، هو الذى يحاسبكم . والرسول قد أدى ما عليه ، وما حمل به .

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

---

* لما نزل تحريم الخمر ، والنهى الأكيد والتشديد فيه ، تمنى أناس من المؤمنين ، أن يعلموا حال إخوانهم ، الذين ماتوا على الإسلام ، قبل تحريم الخمر ، وهم يشربونها .

فأنزل الله هذه الآية ، وأخبر تعالى أنه [ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح] أى : حرج وإثم [فيما طعموا] من الخمر والميسر قبل تحريمها .

ولما كان نفى الجناح ، يشمل المذكورات وغيرها ، قيد ذلك بقوله : [إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات] أى بشرط أنهم تاركون للمعاصى ، مؤمنون بالله إيمانا صحيحاً ، موجباً لهم عمل الصالحات ، ثم استمروا على ذلك .

وإلا ، فقد يتصف العبد بذلك ، فى وقت دون آخر .

فلا يكفى ، حتى يكون كذلك ، حتى يأتيه أجله ، ويدوم على إحسانه ، فإن الله يحب المحسنين فى عبادة الخالق المحسنين ، في نفع العبيد .

ويدخل فى هـذه الآية الكريمة ، من طعم المحرم ، أو فعل غيره بعد التحريم ، ثم اعترف بذنبه ، وتاب إلى الله ، واتقى وعمل صالحا ، فإن الله يغفر له ، ويرتفع عنه الإثم في ذلك .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ

---

* هذا من منن الله على عباده ، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدراً ، ليطيعوه ، ويقدموا على بصيرة ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .

فقال تعالى [يا أيها الذين آمنوا] لابد أن يختبر الله إيمانكم .

[ليبلونكم الله بشىء من الصيد] أى : بشىء غير كثير ، فتكون محنة يسيرة ، تخفيفاً منه تعالى ولطفاً .

وذلك الصيد الذى يبتليكم الله به [تناله أيديكم ورماحكم] أى : تتمكنون من صيده ، ليتم بذلك الابتلاء ، لا غير مقدور عليه بيد ، ولارمح فلا يبقى للابتلاء فائدة .

ثم ذكر الحكمة فى ذلك الابتلاء فقال : [ليعلم الله] علماً ظاهراً للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب [من يخافه بالغيب] .

فيكف عما نهى الله عنه ، مع قدرته عليه ، وتمكنه ، فيثيبه الثواب الجزيل ، ممن لا يخافه بالغيب ، فلا يرتدع عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه .

[فمن اعتدى] منكم [بعد ذلك] البيان ، الذى قطع الحجج ، وأوضح السبيل .

[فله عذاب أليم] أى : مؤلم موجع ، لايقدر على وصفه إلا الله ، لأنه لا عذر لذلك المعتدى ، والاعتبار بمن يخافه بالغيب ، وعدم حضور الناس عنده .

بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ

وأما إظهار مخافة الله عند الناس ، فقد يكون ذلك ، لأجل مخافة الناس ، فلا يثاب على ذلك .

ثم خرج بالنهى ، عن قتل الصيد ، فى حال الإحرام فقال :

[يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم] أى : محرمون فى الحج والعمرة .

والنهى عن قتله ، يشمل النهى عن مقدمات القتل ، وعن المشاركة فى القتل ، والدلالة عليه ، والإعانة على قتله ، حتى إن من تمام ذلك ، أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل ، أو صيد لأجله .

وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم ، أنه يحرم على المحرم ، قتل وصيد ما كان حلالا له قبل الإحرام .

وقوله : [ومن قتله منكم متعمداً] قتل صيداً عمداً [فـ] عليه [جزاء مثل ما قتل من النعم] أى الإبل ، أو البقر ، أو الغنم .

فينظر ما يشبهه من ذلك ، فيجب عليه مثله ، يذبحه ويتصدق به .

والاعتبار بالمماثلة [يحكم به ذوا عدل منكم] أى : عدلان يعرفان الحكم ، ووجه الشبه ، كما فعل الصحابة رضى الله عنهم ، حيث قضوا بالحمامة شاة ، وفى النعامة بدنة ، وفي بقر الوحش ـ على اختلاف أنواعه ـ بقرة ؛

هكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم ، ففيه مثله .

ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ

فإن لم يشبه شيئاً ، ففية قيمته ، كما هو القاعدة فى المتلفات .

وذلك الهدي لابد أن يكون [هدياً بالغ الكعبة] أى : يذبح فى الحرم .

[أو كفارة طعام مساكين] أى : كفارة ذلك الجزاء ، طعام مساكين ، أى : يجعل مقابل المثل من النعم ، طعام يطعم المساكين .

قال كثير من العلماء : يقوم الجزاء ، فيشترى بقيمته طعام ، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره .

[أو عدل ذلك] الطعام [صياماً] أى : يصوم عن إطعام كل مسكين يوما .

[ليذوق] بإيجاب الجزاء المذكور عليه [وبال أمره ، عفا الله عما سلف [ومن عاد] بعد ذلك [فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام] .

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد ، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطىء ، كما هو القاعدة الشرعية ـ أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة ، فإنه يضمنها على أى حال كان ، إذا كان إتلافه بغير حق .

لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام ، وهذا للمتعمد .

وأما المخطىء ، فليس عليه عقوبة ، إنما عليه الجزاء . هذا قول جمهور العلماء .

عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

والصحيح ، ما صرحت به الآية ، أنه لا جزاء على غير المتعمد ، كما لا إثم عليه .

ولما كان الصيد يشمل الصيد البرى والبحرى ، استثنى تعالى ، الصيد البحرى فقال :

[أحل لكم صيد البحر وطعامه] أى أحل لكم ـ فى حال إحرامكم ـ صيد البحر وهو : الحى من حيواناته ، وطعامه ، وهو : الميت منها ، فدل ذلك على حل ميتة البحر .

[متاعا لكم وللسيارة] أى : الفائدة فى إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم ، وانتفاع رفقتكم ، الذين يسيرون معكم .

[وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما] .

ويؤخذ من لفظ « الصيد » أنه لا بد أن يكون وحشياً لأن الإنسى ليس بصيد .

ومأكولا ، فإن غير المأكول ، لا يصاد ، ولا يطلق عليه اسم الصيد .

[واتقوا الله الذى إليه تحشرون] أى : اتقوه بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه .

واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون .

فيجازيكم ، هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل ، أم لم تقوموا ، فيعاقبكم ؟

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

* يخبر تعالى ، أنه جعل [الكعبة البيت الحرام قياماً للناس] .

يقوم ، بالقيام بتعظيمه ، دينهم ودنياهم ، فبذلك يتم إسلامهم ، وبه تحط أوزارهم ، وتحصل لهم ـ بقصده ـ العطايا الجزيلة ، والإحسان الكثير.

وبسببه تنفق الأموال ، وتقتحم — من أجله — الأهوال .

ويجتمع فيه ، من كل فج عميق ، جميع أجناس المسلمين ، فيتعارفون ، ويستعين بعضهم ببعض ، ويتشاورون على المصالح العامة ، وتنعقد بينهم الروابط ، فى مصالحم الدينية والدنيوية .

قال تعالى : [ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام] .

ومن أجل كون البيت قياما للناس قال من قال من العلماء : إن حج بيت الله ، فرض كفاية فى كل سنة .

فلو ترك الناس حجه ، لأثم كل قادر ، بل لو ترك الناس حجه ، لزال ما به قوامهم ، وقامت القيامة .

وقوله [والهدي والقلائد] أى : وكذلك جعل الهدى والقلائد ـ التى هى أشرف أنواع الهدى ـ قياما للناس ، ينتفعون بهما ، ويثابون عليهما .

[ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات ومافى الأرض، وأن الله بكل شيء عليم] .

وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

فمن علمه ، أن جعل لكم هذا البيت الحرام ، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية .

[اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم] أى : ليكن هذان العلمان ، موجودين فى قلوبكم ، على وجه الجزم واليقين ، تعلمون أن الله شديد العقاب — العاجل والآجل — على من عصاه ، وأنه غفور رحيم ، لمن تاب إليه وأطاعه .

فيثمر لكم هذا العلم ، الخوف من عقابه ، والرجاء لمغفرته وثوابه . وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء .

ثم قال تعالى : [ما على الرسول إلا البلاغ] وقد بلغ كما أمر ، وقام بوظيفته ، وما سوى ذلك ، فليس له من الأمر شىء .

[والله يعلم ما تبدون وما تكتمون] فيجازيكم بما يعلمه ـ تعالى ـ منكم.

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

---

* أى [قل] للناس — محذراً عن الشر ومرغباً فى الخير — :

[لا يستوى الخبيث والطيب] من كل شىء .

فلا يستوى الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، ولا أهل الجنة وأهل النار ، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة ، ولا يستوي المال الحرام ، بالمال الحلال .

[ولو أعجبك كثرة الخبيث] فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً ، بل يضره فى دينه ودنياه .

[فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون] .

فأمر أولى الألباب ، أى : أهل العقول الوافية ، والآراء الكاملة ، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب .

وهم : الذين يؤبه لهم ، ويرجى أن يكون فيهم خير .

ثم أخبر أن الفلاح ، متوقف على التقوى ، التى هى موافقة الله ، فى أمره ونهيه .

فمن اتقاه ، أفلح كل الفلاح .

ومن ترك تقواه ، حصل له الخسران ، وفاتته الأرباح .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ

---

* ينهى عباده المؤمنين، عن سؤال الأشياء، التى إذا بينت لهم، ساءتهم وأحزنتهم .

وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن آبائهم، وعن حالهم فى الجنة أو النار .

فهذا ربما أنه، لو بين للسائل، لم يكن له فيه خير ، كسؤالهم للأمور غير الواقعة .

وكالسؤال ، الذى يترتب عليه ، تشديدات فى الشرع ، ربما أحرجت الأمة .

وكالسؤال عما لا يعنى .

فهذه الأسئلة، وما أشبهها، هى المنهى عنها .

وأما السؤال الذى لا يترتب عليه شىء من ذلك، فهو مأمور به، كما قال تعالى :

[فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون] .

[وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن، تبد لكم] أى : وإذا وافق سؤالكم محله، فسألتم عنها ، حين ينزل عليكم القرآن ، فتسألون عن آية أشكلت ، أو حكم خفى وجهه عليكم، فى وقت يمكن فيه نزول الوحى من السماء ، تبد لكم ، أى : تبين لكم وتظهر، وإلا ، فاسكتوا عما سكت الله عنه .

عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

[عفا الله عنها] أى : سكت معافياً لعباده منها .

فكل ما سكت الله عنه ، فهو مما أباحه ، وعفا عنه .

[والله غفور رحيم] أى : لم يزل بالمغفرة موصوفاً ، وبالحلم والإحسان معروفاً .

فتعرضوا لمغفرته وإحسانه ، واطلبوه ، من رحمته ورضوانه .

وهذه المسائل التى نهيتم عنها [قد سألها قوم من قبلكم] أى : جنسها وشبهها ، سؤال تعنت لا استرشاد .

فلما بينت لهم وجاءتهم [أصبحوا بها كافرين] كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح :

« ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به ، فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك من كان قبلكم ، كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » .

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ

---

* هذا ذم للمشركين ، الذين شرعوا فى الدين ، مالم يأذن به الله ، وحرموا ما أحله الله .

فجعلوا بآرائهم الفاسدة ، شيئاً من مواشيهم محرماً ، على حسب اصطلاحاتهم ، التى عارضت ما أنزل الله ، فقال :

[ما جعل الله من بحيرة] وهى : ناقة ، يشقون أذنها ، ثم يحرمون ركوبها ، ويرونها محترمة .

[ولا سائبة] وهى : ناقة ، أو بقرة ، أو شاة ، إذا بلغت سناً اصطلحوا عليه ، سيبوها ، فلا تركب ، ولا يحمل عليها ، ولا تؤكل ، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله ، يجعله سائبة .

[ولا حام] أى : جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل ، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم .

فكل هذه ، مما جعلها المشركون محرمة ، بغير دليل ولا برهان .

وإنما ذلك ، افتراء على الله ، وصادرة من جهلهم ، وعدم عقلهم ، ولهذا قال :

[ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون] .

فلا نقل فيها ولا عقل ، ومع هذا ، فقد أعجبوا بآرائهم ، التى بنيت على الجهالة والظلم .

لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

فإذا دعوا [إلى ما أنزل الله وإلى الرسول] أعرضوا ، فلم يقبلوا ، و [قالوا حسبنا ما وجدنا عليه أباءنا] من الدين ، ولو كان غير سديد ، ولا دينا ينجي من عذاب الله .

ولو كان فى آبائهم كفاية ومعرفة ودراية ، لهان الأمر .

ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً ، أى ، ليس عندهم من المعقول شىء ، ولا من العلم والهدى ، شىء .

فتباً لمن قلد من لا علم عنده صحيح ، ولا عقل رجيح ، وترك اتباع ما أنزل الله ، واتباع رسله ، الذى يملأ القلوب ، علما ، وإيمانا ، وهدى ، وإيقانا

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم] أى : اجتهدوا فى إصلاحها ، وكما لها ، وإلزامها سلوك الصراط المستقيم .

فإنكم – إذا صلحتم – لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد إلى الدين القويم ، وإنما يضر نفسه .

ولا يدل هذا ، أن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لا يضر العبد تركهما وإهمالهما .

فإنه لا يتم هداه ، إلا بالإتيان بما يجب عليه ، من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

نعم ، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر ، بيده ، ولسانه ، وأنكره بقلبه ، فإنه لا يضره ضلال غيره .

وقوله [إلى الله مرجعكم جميعاً] أى : مآلكم يوم القيامة ، واجتماعكم بين يدى الله تعالى .

[فينبئكم بما كنتم تعملون] من خير وشر .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا

---

* يخبر تعالى خبراً متضمنا للأمر ، بإشهاد اثنين على الوصية ، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه .

فينبغى له ، أن يكتب وصيته ، ويشهد عليها اثنين ، ذوى عدل ، ممن يعتبر شهادتهما .

[أو آخران من غيركم] أى : من غير أهل دينكم ، من اليهود ، أو النصارى ، أو غيرهم ، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين .

[إن أنتم ضربتم فى الأرض] أى : سافرتم فيها .

[فأصابتكم مصيبة الموت] أى : فأشهدوهما .

ولم يأمر بإشهادهما ، إلا لأن قولهما فى تلك الحال مقبول ، ويؤكد عليهما ، أن يحبسا [من بعد الصلاة] التى يعظمونها .

[فيقسمان بالله] أنهما صدقا ، وما غيرا ، ولا بدلا . هذا [إن ارتبتم] فى شهادتهما ، فإن صدقتموها ، فلا حاجة إلى القسم بذلك .

ويقولان : [لا نشترى به] أى : بأيماننا [ثمنا] بأن نكذب فيها ، لأجل عرض من الدنيا .

[ولو كان ذا قربى] فلا نراعيه لأجل قربة منا [ولا نكتم شهادة الله]

مِن بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ

بل نؤديها على ما سمعناها [إنا إذا] أى : إن كتمناها [لمن الآثمين] .

[فإن عثر على أنهما] أى : الشاهدين [استحقا إثما] بأن وجد من القرآن ، ما يدل على كذبهما ، ، وأنهما خانا ، فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهما الأوليان .

أى : فليقم رجلان من أولياء الميت ، وليكونا من أقرب الأولياء إليه .

[فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما] أى : أنهما كذبا ، وغيرا ، وخانا .

[وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين] أى : إن ظلمنا واعتدينا ، وشهدنا بغير الحق .

قال الله تعالى فى بيان حكمة تلك الشهادة ، وتأكيدها ، وردها على أولياء الميت ، حين تظهر من الشاهدين الخيانة .

[ذلك أدنى] أى : أقرب [أن يأتوا بالشهادة على وجهها] حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات .

أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

[أو يخافوا أن ترد أيمانهم] أى : أن لا تقبل أيمانهم ، ثم ترد على أولياء الميت .

[والله لا يهدى القوم الفاسقين] أى : الذين وصفهم الفسق ، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم .

وحاصل هذا ، أن الميت — إذا حضره الموت فى سفر ونحوه ، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين — أنه ينبغى أن يوصى شاهدين مسلمين عدلين .

فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين ، جاز أن يوصى إليهما .

ولكن لأجل كفرهما ، فإن الأولياء ، إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما بعد الصلاة ، أنهما ما خانا ، ولا كذبا ، ولا غيرا ، ولا بدلا ، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما .

فإن لم يصدقوهما ، ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت ، فليقم منهم اثنان ، فيقسمان بالله : لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين ، الأولين ، وأنهما خانا وكذبا ، فيستحقون منهما ما يدعون .

وهذه الآيات الكريمة ، نزلت فى قصة « تميم الدارى » و « عدى بن بداء » المشهورة حين أوصى لهما العدوى ، والله أعلم .

. . . .

ويستدل بالآيات الكريمات ، على عدة أحكام .

منها : أن الوصية مشروعة ، وأنه ينبغى لمن حضره الموت ، أن يوصى .

ومنها : أنها معتبرة ، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلامته ، مادام عقله ثابتاً .

ومنها : أن شهادة الوصية ، لابد فيها من اثنين عدلين .

ومنها : أن شهادة الكافرين فى هذه الوصية ونحوها ، مقبولة لوجود الضرورة .

وهذا مذهب الإمام أحمد .

وزعم كثير من أهل العلم : أن هذا الحكم منسوخ .

وهذه دعوى لا دليل عليها .

ومنها : أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه ، أن شهادة الكفار — عند عدم غيرهم ، حتى فى غير هذه المسألة — مقبولة، كما ذهب إلى ذلك ، شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومنها : جواز سفر المسلم مع الكافر ، إذا لم يكن محذور .

ومنها : جواز السفر للتجارة .

ومنها : أن الشاهدين — إذا ارتيب منهما ، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهما ، وأراد الأولياء — أن يؤكدوا عليهما اليمين ، يحبسونهما من بعد الصلاة ، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى .

. . . .

ومنها : أنه إذا لم تحصل تهمة ولاريب لم يكن حاجة إلى حبسهما ، وتأكيد اليمين عليهما .

ومنها : تعظيم أمر الشهادة ، حيث أضافها تعالى ، إلى نفسه ، وأنه يجب الاعتناء بها ، والقيام بها ، بالقسط .

ومنها : أنه يجوز امتحان الشاهدين ، عند الريبة منهما، وتفريقهما ، لينظر فى قيمة شهادتهما صدقا أو كذبا[1].

ومنها : أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين فى هذه المسألة — قام اثنان من أولياء الميت ، فأقسما بالله . أن أيماننا أصدق من أيمانهما ، ولقد خانا وكذبا .

ثم يدفع إليهما ما ادعياه ، وتكون القرينة — مع أيمانهما — قائمة مقام البينة .

---

(١) فى الأصل المطبوع (لينظر عن شهادتهما) والعبارة ـ كما ترى ـ لا تؤدى المعنى المراد ، ولذلك أصلحناها حسبما يقتضى المقام والسياق .

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

---

* يخبر تعالى، عن يوم القيامة ، وما فيه من الأهوال العظام ، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم .

[ماذا أجبتم] أى : ماذا أجابتكم به أممكم ؟

[قالوا لا علم لنا] وإنما العلم لك — ياربنا ، فأنت أعلم منا .

[إنك أنت علام الغيوب] أى : تعلم الأمور الغائبة والحاضرة .

[إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك] أى : اذكرها بقلبك ولسانك ، وقم بواجبها شكراً لربك ، حيث أنعم عليك نعما ، ما أنعم بها على غيرك .

[إذ أيدتك بروح القدس] أى : إذ قويتك بالروح والوحى ، الذى طهرك وزكاك ، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله .

وقيل : إن المراد « بروح القدس » جبريل عليه السلام ، وأن الله أعانه به ، وبملازمته له ، وتثبيته ، فى المواطن المشقة .

[تكلم الناس في المهد وكهلا] المراد بالتكليم هنا ، غير التكليم المعهود الذى هو مجرد الكلام .

وإنما المراد بذلك التكليم الذى ينتفع به المتكلم والمخاطب ، وهو الدعوة إلى الله .

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ

ولعيسى عليه السلام من ذلك ، ما لإخوانه ، من أولى العزم ، من المرسلين ، من التكليم في حال الكهولة ، بالرسالة والدعوة إلى الخير ، والنهى عن الشر .

وامتاز عنهم ، بأنه كلم الناس فى المهد فقال :

[إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا] الآية .

[وإذ علمتك الكتاب والحكمة] فالكتاب ، يشمل الكتب السابقة ، وخصوصاً التوراة ، فإنه من أعلم أنبياء بنى إسرائيل — بعد موسى — بها .

ويشمل الإنجيل الذى أنزله الله عليه .

والحكمة هى : معرفة أسرار الشرع ، وفوائده ، وحكمه ، وحسن الدعوة والتعليم ، ومراعاة ما ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى .

[وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير] أى : طيراً مصوراً ، لاروح فيه . فتنفخ فيها ، فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمه] الذى : لا بصر له ولا عين .

[والأبرص بإذنى ، وإذ تخرج الموتى بإذنى] .

فهذه آيات بينات ، ومعجزات باهرات ، يعجز عنها الأطباء وغيرهم ، أيد الله بها عيسى ، وقوى بها دعوته .

إِسْرَآءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

[وإذ كففت بنى إسرائيل عنك ، إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم] لما جاءهم الحق مؤيداً بالبينات الموجبة للإيمان به .

[إن هذا إلا سحر مبين] .

وهموا بعيسى أن يقتلوه ، وسعوا فى ذلك .

فكف الله أيديهم عنه ، وحفظه منهم ، وعصمه .

فهذه منن ، امتن الله بها على عبده ورسوله ، عيسى بن مريم ، ودعاه إلى شكرها ، والقيام بها .

فقام بها عليه السلام ، أتم القيام ، وصبر كما صبر إخوانه ، من أولى العزم .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

---

* أى : واذكر نعمتى عليك ، إذ يسرت لك أتباعا وأعوانا .

فأوحيت إلى الحواريين أى : ألهمتهم ، وأوزعت قلوبهم الإيمان بى وبرسولى ، وأوحيت إليهم على لسانك ، أى : أمرتهم بالوحى الذى جاءك من عند الله .

فأجابوا لذلك وانقادوا ، وقالوا : آمنا ، واشهد بأننا مسلمون .

فجمعوا بين الإسلام الظاهر ، والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن ، المخرج لصاحبه من النفاق ، ومن ضعف الإيمان .

والحواريون هم : الأنصار ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين :

[من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون . نحن أنصار الله] .

[إذ قال الحواريون . ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء] أى : مائدة فيها طعام .

وهذا ليس منهم عن شك فى قدرة الله ، واستطاعته على ذلك .

وإنما ذلك ، من باب العرض والأدب منهم .

ولما كان سؤال آيات الاقتراح ، منافياً للانقياد للحق ، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ، ربما أوهم ذلك ، وعظهم عيسى عليه السلام فقال :

قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا

[اتقوا الله إن كنتم مؤمنين] فإن المؤمن ، يحمله مامعه من الإيمان على ملازمة التقوى ، وأن ينقاد لأمر الله ، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدرى ما يكون بعدها .

فأخبر الحواريون ، أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى ، وإنما لهم مقاصد صالحة .

لأجل الحاجة إلى ذلك [قالوا نريد أن نأكل منها] وهذا دليل على أنهم محتاجون لها :

(وتطمئن قلوبنا) بالإيمان ، حين نرى الآيات العيانية ، حتى يكون الإيمان عين اليقين .

كما سأل الخليل ، عليه الصلاة والسلام ربه ، أن يريه كيف يحيي الموتى (قال أولم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي) .

فالعبد محتاج إلى زيادة العلم ، واليقين ، والإيمان كل وقت ، ولهذا قال :

[ونعلم أن قد صدقتنا] أي : نعلم صدق ما جئت به ، أنه حق وصدق .

[ونكون عليها من الشاهدين] فتكون مصلحة لمن بعدنا ، نشهدها لك ، فتقوم الحجة ، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك ، وعلم مقصودهم ، أجابهم إلى طلبهم فى ذلك .

فقال : [اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك] أى : يكون وقت نزولها ، عيداً وموسماً ، يتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات ، وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم ، مذكرة لآياته ، ومنبها على سنن المرسلين وطرقهم القويمة ، وفضله وإحسانه عليهم .

[وارزقنا وأنت خير الرازقين] أى : اجعلها لنا رزقا .

فسأل عيسى عليه السلام نزولها أن تكون لهاتين المصلحتين ، مصلحة الدين ، بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهى : أن تكون رزقاً .

[قال الله : إنى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين] لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر ، عنادا وظلما ، فاستحق العذاب الأليم ، والعقاب الشديد .

واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها ، وتوعدهم — إن كفروا — بهذا الوعيد . ولم يذكر أنه أنزلها .

فيحتمل أنه لم ينزلها ، بسبب أنهم لم يختاروا ذلك .

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى

ويدل على ذلك ، أنه لم يذكر فى الإنجيل الذى بأيدى النصارى ، ولا له وجود .

ويحتمل أنها نزلت ، كما وعد الله ، وأنه لا يخلف الميعاد .

ويكون عدم ذكرها فى الأناجيل التى بأيديهم ، من الحظ الذى ذكروا به فنسوه .

أو أنه لم يذكر فى الإنجيل أصلا ، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم ، ينقله الخلف عن السلف ، فاكتفى الله بذلك ، عن ذكره فى الإنجيل .

ويدل على هذا المعنى قوله [ونكون عليها من الشاهدين] والله أعلم بحقيقة الحال .

[وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله] .

وهذا توبيخ للنصارى ، الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة فيقول الله هذا الكلام لعيسى .

فيتبرأ منه عيسى ويقول [سبحانك] عن هذا الكلام القبيح ، وعما لا يليق بك .

[ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق] أى : ما ينبغى لى ، ولا يليق أن أقول شيئاً ، ليس من أوصافى ، ولا من حقوقى .

وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ

فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المقربون ، ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم ، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية .

وإنما الجميع عباد ، مدبرون ، وخلق مسخرون ، وفقراء عاجزون .

[إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك] فأنت أعلم بما صدر منى .

[إنك أنت علام الغيوب] وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام ، فى خطابه لربه .

فلم يقل عليه السلام « لم أقل شيئاً من ذلك » .

وإنما أخبر بكلام ينفى عن نفسه ، أن يقول كل مقالة تنافى منصبه الشريف ، وأن هذا من الأمور المحالة .

ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه ، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

ثم صرح بذكر ما أمر به بنى إسرائيل فقال : [ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به] فأنا عبد متبع لأمرك ، لا متجرىء على عظمتك .

[أن اعبدوا الله ربى وربكم] أى : ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له، المتضمن للنهى ، عن اتخاذى وأمى إلهين من دون الله ، وبيان أنى عبد مربوب ، فكما أنه ربكم فهو ربى .

عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

[وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم] أشهد على من قام بهذا الأمر ، ممن لم يقم به .

[فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم] أي : المطلع على سرائرهم وضمائرهم .

[وأنت على كل شيء شهيد] علما وسمعاً وبصراً .

فعلمك قد أحاط بالمعلومات ، وسمعك بالمسموعات ، وبصرك بالمبصرات ، فأنت الذى تجازى عبادك ، بما تعلمه فيهم من خير وشر .

[إن تعذبهم فإنهم عبادك] وأنت أرحم بهم من أنفسهم ، وأعلم بأحوالهم ، فلولا أنهم عباد متمردون ، لم تعذبهم .

[وإن تغفر لهم، فإنك أنت العزيز الحكيم] أى : فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة ، لا كمن يغفر ويعفو ، عن عجز وعدم قدرة .

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك ، أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة .

[قال الله] مبيناً لحال عباده يوم القيامة ، ومن الفائز منهم ، ومن الهالك ، من الشقى ، ومن السعيد .

[هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم] والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ، ونياتهم ، على الصراط المستقيم ، والهدى القويم .

أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق ، إذا أحلهم الله فى مقعد صدق ، عند مليك مقتدر .

ولهذا قال : [لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم] .

والكاذبون بضدهم ، سيجدون ضرر كذبهم وافترائهم ، وثمرة أعمالهم الفاسدة .

[لله ملك السموات والأرض وما فيهن] لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدرى ، وحكمه الشرعى ، وحكمه الجزائى ، ولهذا قال :

[وهو على كل شىء قدير] فلا يعجزه شىء ، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته ، ومسخرة بأمره .

تم تفسير سورة المائدة ، بفضل من الله وإحسان

والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى

هذا إخبار عن حمده والثناء عليه ، بصفات الكمال ، ونعوت العظمة والجلال عموماً ، وعلى هذه المذكورات خصوصاً .

فحمد نفسه على خلقه السموات والأرض ، الدالة على كمال قدرته ، وسعة علمه ورحمته ، وعموم حكمته ، وانفراده بالخلق والتدبير ، وعلى جعله الظلمات والنور .

وذلك شامل للحسى من ذلك ، كالليل والنهار ، والشمس والقمر .

والمعنوى ، كظلمات الجهل ، والشك ، والشرك ، والمعصية ، والغفلة ، ونور العلم والإيمان ، واليقين ، والطاعة .

وهذا كله ، يدل دلالة قاطعة أنه تعالى ، هو المستحق للعبادة ، وإخلاص الدين له .

ومع هذا الدليل ووضوح البرهان [ثم الذين كفروا بربهم يعدلون] به سواه .

خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

يسوونهم به فى العبادة والتعظيم ، مع أنهم لم يساووا الله فى شىء من الكمال ، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه .

[هو الذى خلقكم من طين] وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام .

[ثم قضى أجلا] أى : ضرب لمدة إقامتكم فى هذه الدار ، أجلا فتتمتعون به وتمتحنون ، وتبتلون بما يرسل إليكم به رسله .

[ليبلوكم أيكم أحسن عملا] ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكر .

[وأجل مسمى عنده] وهى : الدار الآخرة ، التى ينتقل العباد إليها من هذه الدار ، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر .

[ثم] مع هذا البيان التام وقطع الحجة [أنتم تمترون] أى : تشكون فى وعد الله ووعيده ، ووقوع الجزاء يوم القيامة .

وذكر الله الظلمات بالجمع ، لكثرة موادها ، وتنوع طرقها .

ووحد النور ، لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة ، لا تعدد فيها ، وهى : الصراط المتضمنة للعلم بالحق ، والعمل به كما قال تعالى [وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] .

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

أى : وهو المألوه المعبود ، فى السموات وفى الأرض ، فأهل السماء والأرض ، متعبدون لربهم ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لعزه وجلاله ، الملائكة المقربون ، والأنبياء والمرسلون ، والصديقون ، والشهداء والصالحون .

وهو تعالى ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، فاحذروا معاصيه وارغبوا فى الأعمال ، التى تقربكم منه ، وتدنيكم من رحمته ، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ، ومن رحمته .

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن

---

* هذا إخبار منه تعالى ، عن إعراض المشركين ، وشدة تكذيبهم وعداوتهم ، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات ، حتى تحل بهم المثلات فقال :

[وما تأتيهم من آية من آيات ربهم] الدالة على الحق دلالة قاطعة ، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله .

[إلا كانوا عنها معرضين] لا يلقون لها بالا ، ولا يصغون لها سمعاً ، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها ، وولوها أدبارهم .

[فقد كذبوا بالحق لما جاءهم] والحق حقه ، أن يتبع ، ويشكر الله على تيسيره لهم ، وإتيانهم به .

فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد .

[فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون] أى : فسوف يرون ما استهزأوا به ، أنه الحق والصدق ، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم وكانوا يستهزئون بالبعث والجنة والنار .

فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين « هذه النار التى كنتم بها تكذبون » .

وقال تعالى : [وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى ، وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى

قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين] ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السابقة فقال :

[ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن] أى : كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين ، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك ، بأن [مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم] من الأموال والبنين والرفاهية .

[وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم] تنبت لهم بذلك ما شاء الله ، من زروع وثمار ، يتمتعون بها ، ويتناولون منها ما يشتهون .

فلم يشكروا الله على نعمه ، بل أقبلوا على الشهوات ، وألهتهم اللذات

فجاءتهم رسلهم بالبينات ، فلم يصدقوها ، بل ردوها وكذبوها فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين] أى : فأهلكهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم قرنا آخرين .

فهذه سنة الله ودأبه ، فى الأمم السابقين واللاحقين .

فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ

---

* هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين ، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به ، ولا لجهل منهم بذلك ، وإنما ذلك ظلم وبغى ، لا حيلة لكم فيه .

فقال : [ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم] وتيقنوه [لقال الذين كفروا] ظلماً وعدواناً [إن هذا إلا سحر مبين] .

فأى بينة أعظم من هذه البينة ، وهذا قولهم الشنيع فيها ، حيث كابروا المحسوس ، الذى لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه ؟ !!

[وقالوا] أيضاً — تعنتاً مبنياً على الجهل ، وعدم العلم بالمعقول .

[لولا أنزل عليه ملك] أى: هلا أنزل مع محمد ملك ، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر ، وأن رسالة الله ، لا تكون إلا على أيدى الملائكة .

قال الله — فى بيان رحمته ولطفه بعباده ، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به ، عن علم ، وبصيرة ، وغيب .

[ولو أنزلنا ملكا] برسالتنا ، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكان إيمانا بالشهادة ، الذى لا ينفع شيئاً وحده .

وهذا إن آمنوا ، ، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة .

فلو لم يؤمنوا [لقضى الأمر] بتعجيل الهلاك عليهم ، وعدم إنظارهم ، لأن هذه سنة الله ، فيمن طلب الآيات المقترحة ، فلم يؤمن بها .

أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

فإرسال الرسول البشرى إليهم ، بالآيات البينات ، التى يعلم الله أنها أصلح للعباد ، وأرفق بهم ، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين — خير لهم وأنفع .

فطلبهم لإنزال الملك ، شر لهم ، لو كانوا يعلمون .

ومع ذلك ، فالملك لو أنزل عليهم ، وأرسل ، لم يطيقوا التلقى عنه ، ولا احتملوا ذلك ، ولا أطاقته قواهم الفانية .

[ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا] لأن الحكمة لا تقتضى سوى ذلك .

[وللبسنا عليهم ما يلبسون] أى : ولكان الأمر ، مختلطا عليهم ، وملبوساً .

وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم ، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التى فيها اللبس ، وعدم بيان الحق .

فلما جاءهم الحق ، بطرقه الصحيحة ، وقواعده التى هى قواعده ، لم يكن ذلك هداية لهم ، إذا اهتدى بذلك غيرهم .

والذنب ذنبهم ، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى ، وفتحو أبواب الضلال .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ـ مسلياً لرسوله ، ومصبراً ومتهدداً أعداءه ، ومتوعدا .

[ولقد استهزىء برسل من قبلك] لما جاءوا أممهم بالبينات ، كذبوهم واستهزأوا بهم ، وبما جاءوا به .

فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب ، ووفر لهم من العذاب أكمل نصيب .

[فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون] فاحذروا ـ أيها المكذبون ـ أن تستمروا على تكذيبكم ، فيصيبكم ما أصابهم .

[قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين] أى : فإن شككتم فى ذلك ، أو ارتبتم ، فسيروا فى الأرض ، ثم انظروا ، كيف كان عاقبة المكذبين ، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين ، وأمما فى المثلات تالفين .

قد أوحشت منهم المنازل ، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل .

أبادهم الملك الجبار ، وكان نبأهم عبرة لأولى الأبصار .

وهذا السير المأمور به ، سير القلوب والأبدان ، الذى يتولد منه الاعتبار .

وأما مجرد النظر من غير اعتبار ، فإن ذلك لا يفيد شيئاً .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم [قل] لهؤلاء المشركين ، مقرراً لهم وملزماً بالتوحيد : [لمن ما فى السموات والأرض] أى : من الخالق لذلك ، المالك له ، المتصرف فيه ؟

[قل] لهم : [لله] وهم مقرون بذلك لا ينكرونه ، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله ، بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد ؟ ! ! .

وقوله [كتب على نفسه الرحمة] أى : العالم العلوى والسفلى ، تحت ملكه وتدبيره ، وهو تعالى ، قد بسط عليهم رحمته وإحسانه ، وتغمدهم برحمته وامتنانه ، وكتب على نفسه كتابا «أن رحمته تغلب غضبه» و « أن العطاء أحب إليه من المنع » و « أن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة ، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم ، ودعاهم إليها ، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم » . وقوله [ليجمعنكم إلى يوم القيامة . لا ريب فيه] وهذا قسم منه ، وهو أصدق المخبرين .

وقد أقام على ذلك ، من الحجج والبراهين . ما يجعله حق اليقين .

ولكن أبى الظالمون إلا جحوداً ، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق ، فأوضعوا[1] فى معاصيه ، وتجرأوا على الكفر به ، فخسروا دنياهم وأخراهم ولهذا قال : [الذين خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون] .

---

(١) أوضعوا . أى أسرعوا فى السير إلى المعاصى .

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

إعلم أن هذه السورة الكريمة ، قد اشتملت على تقرير التوحيد ، بكل دليل عقلى ، ونقلى .

بل كادت أن تكون كلها ، فى شأن التوحيد ، ومجادلة المشركين بالله ، المكذبين لرسوله .

فهذه الآيات ، ذكر الله فيها ، ما يتبين به الهدى ، وينقمع به الشرك .

فذكر أن [له] تعالى [ما سكن فى الليل والنهار] .

وذلك هو المخلوقات كلها ، من آدميها ، وجنها ، وملائكتها ، وحيواناتها وجماداتها .

فالكل خلق مدبرون ، وعبيد مسخرون لربهم العظيم ، القاهر المالك .

فهل يصح فى عقل ونقل ، أن يعبد من هؤلاء المماليك ، الذى لا نفع عنده ولا ضر ؟ ويترك الإخلاص للخالق ، المدبر المالك ، الضار النافع ؟!! .

أم العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، تدعو إلى إخلاص العبادة ، والحب ، والخوف ، والرجاء لله رب العالمين ؟!! .

[السميع] لجميع الأصوات ، على اختلاف اللغات ، بتفنن الحاجات .

[العليم] بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن ، لو كان كيف كان يكون ، المطلع على الظواهر والبواطن ؟!! .

[قل] لهؤلاء المشركين بالله : [أغير الله أتخذ ولياً] من هؤلاء المخلوقات العاجزة ، يتولانى ، وينصرنى ؟!! .

وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى

فلا أتخذ من دونه تعالى ولياً لأنه ، فاطر السموات والأرض ، أى : خالقهما ومدبرها .

[وهو يطعم ولا يطعم] أى : وهو الرازق لجميع الخلق ، عن غير حاجة منه تعالى إليهم .

فكيف يليق أن أتخذ ولياً غير الخالق الرازق ، الغنى ، الحميد ؟ !!

[قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم] لله بالتوحيد ، وانقاد له بالطاعة .

لأنى أولى من غيرى ، بامتثال أوامر ربى .

[ولا تكونن من المشركين] أى : ونهيت أيضاً ، عن أن أكون من المشركين ، لا فى اعتقادهم ، ولا فى مجالستهم ، ولا فى الاجتماع بهم ، فهذا أفرض الفروض على ، وأوجب الواجبات .

[قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم] فإن المعصية فى الشرك ، توجب الخلود فى النار ، وسخط الجبار .

وذلك اليوم ، هو اليوم الذى يخاف عذابه ، ويحذر عقابه .

لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ ، فهو المرحوم ، ومن نجا فيه ، فهو الفائز حقاً .

كما أن من لم ينج منه ، فهو الهالك الشقى .

ومن أدلة توحيده ، أنه تعالى ، المنفرد بكشف الضراء ، وجلب الخير والسراء .

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً

ولهذا قال : [وإن يمسك الله بضر] من فقر ، أو مرض ، أو عسر ، أو غم ، أو هم أو نحوه .

[فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير ، فهو على كل شيء قدير] .

فإذا كان وحده النافع الضار ، فهو الذى يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية .

[وهو القاهر فوق عباده] فلا يتصرف منهم متصرف ، ولا يتحرك متحرك ، ولا يسكن ساكن ، إلا بمشيئته .

وليس للملوك وغيرهم ، الخروج عن ملكه وسلطانه ، بل هم مدبرون مقهورون .

فإذا كان هو القاهر ، وغيره مقهوراً ، كان هو المستحق للعبادة .

[وهو الحكيم] فيما أمر به ونهى ، وأثاب ، وعاقب ، وفيما خلق وقدر .

[الخبير] المطلع على السرائر والضمائر ، وخفايا الأمور ، وهذا كله من أدلة التوحيد .

[قل] لهم ــ لما بينا لهم الهدى ، وأوضحنا لهم المسالك ــ : [أى شيء أكبر شهادة] على هذا الأصل العظيم .

قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ

[قل الله] أكبر شهادة ، فهو [شهيد بينى وبينكم] فلا أعظم منه شهادة ، ولا أكبر ، وهو يشهد لى بإقراره وفعله، فيقرنى على ماقلت لكم .

كما قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) .

فالله حكيم قدير ، فلا يليق بحكمته وقدرته ، أن يقر كاذبا عليه ، زاعماً أن الله أرسله ولم يرسله ، وأن الله أمره بدعوة الخلق ، ولم يأمره ، وأن الله أباح له دماء من خالفه ، وأموالهم ونساءهم ، وهو مع ذلك ، يصدقه بإقراره وبفعله ، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة ، والآيات الظاهرة ،وينصره، ويخذل من خالفه وعاداه ، فأى شهادة أكبر من هذه الشهادة ؟ ! !

وقوله [وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ] أى وأوحى الله إلى هذا القرآن ، لمنفعتكم ومصلحتكم ، لأنذركم به من العقاب الأليم .

والنذارة ، إنما تكون بذكر ماينذرهم به ، من الترغيب ، والترهيب، وببيان الأعمال ، والأقوال الظاهرة والباطنة ، التى من قام بها ، فقد قبل النذارة .

فهذا القرآن ، فيه النذارة لكم ، أيها المخاطبون ، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة ، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية .

لما بين تعالى شهادته ، التى هى أكبر الشهادات على توحيده ، قال :

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ

قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله ، والمكذبين لرسله [أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد] .

أى : إن شهدوا ، فلا تشهد معهم .

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ، ورب العالمين ، وشهادة أزكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة ، على توحيد الله ، وحده لا شريك له ، وشهادة أهل الشرك ، الذين مرجت[1] عقولهم وأديانهم ، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم ، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء .

بل خالفت شهادتهم فطرهم ، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى .

مع أنه لا يقوم على ما خالفوه أدنى شبهة ، فضلا عن الحجج .

واختر لنفسك أى الشهادتين ، إن كنت تعقل .

ونحن نختار لأنفسنا ، ما اختاره الله لنبيه ، الذى أمرنا الله بالاقتداء به فقال :

[قل إنما هو إله واحد] أى : منفرد ، لا يستحق العبودية والإلهية سواه ، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير .

[وإننى برىء مما تشركون] به ، من الأوثان ، والأنداد ، وكل ما أشرك به مع الله .

---

(١) مرجت أى : أصاب عقولهم اختلاط وامتزجت عقولهم التي أفسدها العناد بأديانهم الباطلة .

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

فهذا حقيقة التوحيد ، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه .

* لما بين شهادته ، وشهادة رسوله على التوحيد ، وشهادة المشركين ، الذين لا علم لديهم على ضده ، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

[يعرفونه] أى : يعرفون صحة التوحيد [كما يعرفون أبناءهم] .

أى : لا شك عندهم فيه ، بوجه ، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم ، خصوصاً البنين الملازمين فى الغالب لآبائهم .

ويحتمل أن الضمير ، عائد إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ، ولا يمترون بها ، لما عندهم من البشارات به ، ونعوته التي تنطبق عليه ، ولا تصلح لغيره .

والمعنيان متلازمان .

قوله [الذين خسروا أنفسهم] أى : فوتوها ما خلقت له ، من الإيمان والتوحيد ، وحرموها الفضل من الملك المجيد [فهم لا يؤمنون] .

فإذا لم يوجد الإيمان منهم ، فلا تسأل عن الخسار والشر ، الذى يحصل لهم .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : لا أعظم ظلماً وعناداً ، ممن كان فيه أحد الوصفين ، فكيف لو اجتمعا ، افتراء الكذب على الله ، أو التكذيب بآياته ، التى جاءت بها المرسلون ، فإن هذا ، أظلم الناس ، والظالم لا يفلح ابداً .

ويدخل فى هذا ، كل من كذب على الله ، بادعاء الشريك له والمعين[١] وزعم أنه ينبغى أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولدا ، وكل من رد الحق الذى جاءت به الرسل أو من قام مقامهم .

---

(١) قوله « والعوين » هكذا فى الأصل المطبوع وهو تحريف والصواب (المعين) ولذلك أصلحناها كما ترى بعد أن بحثنا فى المعاجم فلم نجد (عوين) بمعنى (معين) .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

---

* يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم [أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون] أى إن الله ليس له شريك ، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء [ثم لم تكن فتنتهم] أى لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين [أنظر] متعجباً منهم ومن أحوالهم .

[كيف كذبوا على أنفسهم] أى كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم ـ والله ـ غاية الضرر [وضل عنهم ما كانوا يفترون] من الشركاء الذين زعموهم مع الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

* أى : ومن هؤلاء المشركين ، قوم يحملهم بعض الأوقات ، بعض الدواعى إلى الاستماع .

ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه ، ولهذا لا ينتفعون بذلك الاستماع ، لعدم إرادتهم للخير .

[وجعلنا على قلوبهم أكنة] أى : أغطية وأغشية ، لئلا يفقهوا كلام الله ، فصان كلامه عن أمثال هؤلاء .

[وفى آذانهم] جعلنا [وقراً] أى : صمما ، فلا يستمعون ما ينفعهم .

[وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها] ، وهذا غاية الظلم والعناد ، أن الآيات البينات الدالة على الحق ، لا ينقادون لها ، ولا يصدقون بها ، بل يجادلون بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

ولهذا قال : [حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين] أى : مأخوذ من صحف الأولين المسطورة ، التي ليست عن الله ، ولا عن رسله .

وهذا من كفرهم ، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوى لأنباء السابقين واللاحقين ، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون ، والحق ، والقسط ، والعدل التام ، من كل وجه ، أساطير الأولين .

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ

---

* وهم : أى المشركون بالله ، المكذبون لرسوله ، يجمعون بين الضلال والإضلال .

ينهون الناس عن اتباع الحق ، ويحذرونهم منه ، ويبعدون بأنفسهم عنه .

ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين ، بفعلهم هذا ، شيئاً .

[إن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون] بذلك .

* يقول تعالى — مخبراً عن حال المشركين يوم القيامة ، وإحضارهم النار .

[ولو ترى إذ وقفوا على النار] ليوبخوا ويقرعوا ، لرأيت أمراً هائلا ، وحالا مفظعة .

ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق ، وتمنوا أن لو يردون إلى الدنيا .

[فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .

بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل] .

وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

فإنهم كانوا يخفون فى أنفسهم ، أنهم كانوا كاذبين. ويبدو فى قلوبهم، فى كثير من الأوقات .

ولكن الأغراض الفاسدة ، صدتهم عن ذلك ، وصدفت [1] قلوبهم عن الخير ، وهم كذبة فى هذه الأمنية وإنما قصدهم ، أن يدفعوا بها عن أنفسهم العذاب .

[ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون].

[وقالوا] منكرين للبعث [إن هى إلا حياتنا الدنيا] أى : ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا ، إلا الحياة الدنيا وحدها .

[وما نحن بمبعوثين].

---

(١) صدفت : أى : صرفت .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

* أى : [ولو ترى] الكافرين [إذ وقفوا على ربهم] لرأيت أمراً عظيما ، وهولا جسيما .

[قال] لهم موبخاً ومقرعاً [أليس هذا] الذى ترون من العذاب [بالحق ؟ قالوا بلى وربنا] فأقروا ، واعترفوا ، حيث لا ينفعهم ذلك .

[قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] .

* أى : قد خاب وخسر ، وحرم الخير كله ، من كذب بلقاء الله ، فأوجب له هذا التكذيب ، الاجتراء على المحرمات ، واقتراف الموبقات .

[حتى إذا جاءتهم الساعة] وهم على أقبح حال وأسوأه ، فأظهروا غاية الندم .

[وقالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها] ولكن هذا تحسر ذهب وقته .

[وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون] .

فإن وزرهم وزر ، يثقلهم ، ولا يقدرون على التخلص منه ، ولهذا خلدوا فى النار ، واستحقوا التأبيد فى غضب الجبار .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

* أما حقيقة الدنيا : فإنها لعب ولهو ، لعب فى الأبدان ، ولهو فى القلوب .

فالقلوب لها ، والهة ، والنفوس لها ، عاشقة ، والهموم فيها متعلقة ، والاشتغال بها ، كلعب الصبيان .

وأما الآخرة ، فإنها [خير للذين يتقون] فى ذاتها وصفاتها ، وبقائها ودوامها .

وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من نعيم القلوب والأرواح ، وكثرة السرور والأفراح .

ولكنها ليست لكل أحد ، وإنما هى للمتقين ، الذين يفعلون أوامر الله ، ويتركون نواهيه وزواجره .

[أفلا تعقلون] أى : أفلا يكون لكم عقول ، بها تدركون ، أى الدارين أحق بالإيثار .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَـٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ

---

* أى : قد نعلم أن الذى يقول المكذبون فيك ، يحزنك ويسوءك .

ولم نأمرك بما أمرناك به من الصبر ، إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية .

فلا تظن أن قولهم ، صادر عن اشتباه فى أمرك ، وشك فيك .

[فإنهم لا يكذبونك] لأنهم يعرفون صدقك ، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك ، حتى إنهم كانوا يسمونه — قبل بعثته — الأمين .

ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون] أى : فإن تكذيبهم لآيات الله، التى جعلها الله على يديك .

[ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا] .

فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا .

[ولقد جاءك من نبأ المرسلين] ما به يثبت فؤادك ، ويطمئن به قلبك .

ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

[وإن كان كبر عليك إعراضهم] أى : شق عليك ، من حرصك عليهم ، ومحبتك لإيمانهم ، فابذل وسعك فى ذلك ، فليس فى مقدورك ، أن تهدى من لم يرد الله هدايته .

[فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية] .

أى : فافعل ذلك ، فإنه لايفيدهم شيئا .

وهذا قطع لطمعه فى هداية أشباه هؤلاء المعاندين .

[ولو شاء الله لجمعهم على الهدى] ولكن حكمته تعالى ، اقتضت أنهم يبقون على الضلال .

[فلا تكونن من الجاهلين] الذين لايعرفون حقائق الأمور ، ولاينزلونها على منازلها .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [إنما يستجيب] لدعوتك ، ويلبي رسالتك ، وينقاد لأمرك ونهيك [الذى يسمعون] بقلوبهم، ماينفعهم وهم أولو الألباب والأسماع .

والمراد بالسماع هنا : سماع القلب والاستجابة ، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر .

فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى ، باستماع آياته ، فلم يبق لهم عذر ، فى عدم القبول .

[والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون] يحتمل أن المعنى ، مقابل للمعنى المذكور .

أى : إنما يستجيب لك ، أحياء القلوب وأما أموات القلوب ، الذين لايشعرون بسعادتهم ، ولايحسون بما ينجيهم ، فإنهم لايستجيبون ذلك ، ولا ينقادون ، وموعدهم يوم القيامة ، يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون .

ويحتمل أن المراد بالآية ، على ظاهرها ، وأن الله تعالى يقرر المعاد ، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون .

ويكون هذا ، متضمنا للترغيب فى الاستجابة ، لله ورسوله ، والترهيب من عدم ذلك .

[وقالوا] أى : المكذبون بالرسول ، تعنتاً وعناداً : [لولا نزل عليه آية من ربه .

قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

يعنون بذلك ، آيات الاقتراح ، التى يقترحونها بعقولهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة .

كقولهم [وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا] الآيات .

[قل] مجيبا لقولهم : [إن الله قادر على أن ينزل آية] فليس فى قدرته قصور عن ذلك .

كيف ، وجميع الأشياء منقادة لعزته ، مذعنة لسلطانه ؟ !

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] فهم - لجهلهم وعدم علمهم - يطلبون ما هو شر لهم من الآيات ، التى لو جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها - لعوجلوا بالعقاب ؛ كما هى سنة الله ، التى لاتبديل لها .

ومع هذا ، فإن كان قصدهم ، الآيات التى تبين لهم الحق ، وتوضح السبيل .

فقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم ، بكل آية قاطعة ، وحجة ساطعة ، دالة على ماجاء به من الحق ، بحيث يتمكن العبد فى كل مسألة من مسائل الدين ، أن يجد فيما جاء به ، عدة أدلة عقلية ونقلية ، بحيث لاتبقى فى القلوب ، أدنى شك وارتياب .

فتبارك الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُـكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْـكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

---

* أى : جميع الحيوانات ، الأرضية والهوائية ، من البهائم والوحوش ، والطيور ، كلها أمم أمثالـكم [خلقناها كما خلقناكم ، ورزقناها كما رزقناكم ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا ، كما كانت نافذة فيكم .

[ما فرطنا فى الـكتاب من شىء] أى : ما أهملنا ولا أغفلنا ، فى اللوح المحفوظ ، شيئا من الأشياء .

بل جميع الأشياء ، صغيرها ، وكبيرها ، مثبتة فى اللوح المحفوظ ، على ماهى عليه .

فتقع جميع الحوادث ، طبق ماجرى به القلم .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الـكتاب الأول ، قـد حوى جميع الـكائنات .

وهذا أحد مراتب القضاء والقدر ، فإنها أربع مراتب .

علم الله الشامل ، لجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميـع الموجودات ، ومشيئته وقدرته العامة النافذة فى كل شىء ، وخلقه لجميع المخلوقات ، حتى أفعال العباد .

ويحتمل أن المراد بالـكتاب ، هذا القرآن ، وأن المعنى كالمعنى فى قوله تعالى [ونزلنا عليك الـكتاب تبيانا لـكل شىء] .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ ﴾

وقوله [ثم إلى ربهم يحشرون] أى : جميع الأمم تجمع وتحشر إلى الله فى موقف القيامة ، فى ذلك الموقف العظيم الهائل .

فيجازيهم بعدله وإحسانه ، ويمضى عليهم حكمه الذى يحمده عليه الأولون والآخرون ، أهل السماء وأهل الأرض .

* هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله ، المكذبين لرسله ، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى ، وفتحوا باب الردى .

وأنهم [صم] عن سماع الحق [وبكم] عن النطق به ، فلا ينطقون إلا بالباطل .

[فى الظلمات] أى : منغمسون فى ظلمات الجهل ، والكفر ، والظلم ، والعناد ، والمعاصى .

وهذا من إضلال الله إياهم ، فإنه [من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم] لأنه المنفرد بالهداية والإضلال ، بحسب ما اقتضاه فضله وحكمته .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لرسوله : (قل) للمشركين بالله ، العادلين به غيره :

(أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) .

أى . إذا حصلت هذه المشقات ، وهذه الكروب ، التى يضطر إلى دفعها ، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم ، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين .

(بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ماتشركون)

فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد ، تنسونهم ، لعلمكم أنهم لايملكون لكم ضراً ولانفعاً ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولانشوراً .

وتخلصون لله الدعاء ، لعلمكم أنه هو الضار النافع ، المجيب لدعوة المضطر .

فما بالكم فى الرخاء ، تشركون به ، وتجعلون له شركاء ؟ .

هل دلكم على ذلك ، عقل أو نقل ، أم عندكم من سلطان بهذا .

أم تفترون على الله الكذب ؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ

---

* يقول تعالى : [ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك] من الأمم السالفين ، والقرون المتقدمين ، فكذبوا رسلنا ، وجحدوا بآياتنا .

[فأخذناهم بالبأساء والضراء] أى : بالفقر والمرض والآفات، والمصائب، رحمة منا بهم .

[لعلهم يتضرعون] إلينا ، ويلجأون عند الشدة إلينا .

[فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم] .

أى : استحجرت فلا تلين للحق .

[وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون] فظنوا أن ماهم عليه ، دين الحق فيتمتعوا فى باطلهم برهة من الزمان ، ولعب بعقولهم الشيطان .

[فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء] من الدنيا ولذاتها وغفلاتها .

[حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون] .

أى : آيسون من كل خير ، وهذا أشد ما يكون من العذاب ، أن يؤخذوا على غرة ، وغفلة وطمأنينة ، ليكون أشد لعقوبتهم ، وأعظم لمصيبتهم .

دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ

[فقطع دابر القوم الذين ظلموا] أى اصطلموا بالعذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

[والحمد لله رب العالمين] على ما قضاه وقدره ، من هلاك المكذبين .

فإن بذلك ، تتبين آياته ، وإكرامه لأوليائه ، وإهانته لأعدائه،وصدق ما جاءت به المرسلون .

* يخبر تعالى ، أنه كما هو المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها ، فإنه المنفرد بالوحدانية والإلهية فقال :

[قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم] فبقيتم بلا سمع ولا بصر ولا عقل [من إله غير الله يأتيكم به] .

فإذا لم يكن غير الله ، يأتى بذلك ، فلم عبدتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاءه الله .

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك ، ولهذا قال : [انظر كيف نصرف الآيات] .

أى : ننوعها ، ونأتى بهـا فى كل فن ، ولتنير الحق ، وتستبين سبيل المجرمين .

[ثم هم] مع هذا البيان التام [يصدفون] عن آيات الله ، ويعرضون عنها .

بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ۝ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ۝

[قل أرأيتكم] أى : أخبرونى [إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة] أى : مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات ، تعلمون بها وقوعه .

[هل يهلك إلا القوم الظالمون] الذين صاروا سببا لوقوع العذاب بهم ، بظلمهم وعنادهم .

فاحذروا أن تقيموا على الظلم ، فإنه الهلاك الأبدى ، والشقاء السرمدى

* يذكر تعالى ، زبدة ما أرسل به المرسلين ، أنه البشارة والنذارة ، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به والأعمال التى إذا عملها العبد، حصلت له البشارة .

والمنذر والمنذر به ، والأعمال التى من عملها ، حقت عليه النذارة .

ولكن الناس انقسموا — بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها — إلى قسمين .

[فمن آمن وأصلح] أى : آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته [فلا خوف عليهم] فيما يستقبل [ولا هم يحزنون] على ما مضى .

[والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب] أى : ينالهم ، ويذوقونه [بما كانوا يفسقون] .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أن يخاطب المقترحين عليه الآيات أو القائلين له : إنما تدعونا لنتخذك إلهاً مع الله .

[ولا أقول لكم عندى خزائن الله] أى : مفاتيح رزقه ورحمته .

[ولا أعلم الغيب] وإنما ذلك كله عند الله .

فهو الذى [ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده] وهو — وحده — عالم الغيب والشهادة .

(فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) .

[ولا أقول لكم إنى ملك] فأكون نافذ التصرف قوياً ، فلست أدعى فوق منزلتى ، التى أنزلني الله بها .

[إن أتبع إلا ما يوحى إلى] أى : هذا غايتى ومنتهى أمرى وأعلاه ، لا أتبع إلا ما يوحى إلى، فأعمل به فى نفسى ، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك .

فإذا عرفت منزلتى ، فلأى شيء يبحث الباحث معى ، أو يطلب منى أمراً لست أدعيه . وهل يلزم الإنسان ، بغير ماهو بصدده ؟ .

ولأى شيء — إذا دعوتكم ، بما يوحى إلى — تلزموننى أنى أدعى لنفسى غير مرتبتى . وهل هذا ، إلا ظلم منكم ، وعناد ، وتمرد ؟

قل — لهم فى بيان الفرق ، بين من قبل دعوتى ، وانقاد لما أوحى إلى وبين من لم يكن كذلك — [قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون] فتنزلون الأشياء منازلها ، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار ؟

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم

---

* هذا القرآن ، نذارة للخلق كلهم ، ولكن إنما ينتفع به [الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم] .

فهم متيقنون للانتقال ، من هذه الدار ، إلى دار القرار ، فلذلك يستصحبون ماينفعهم ويدعون ما يضرهم .

[ليس لهم من دونه] أى : من دون الله [ولى ولا شفيع] أى: لامن يتولى أمرهم ؛ فيحصل لهم المطلوب ، ويدفع عنهم المحذور ، ولا من يشفع لهم ، لأن الخلق كلهم ، ليس لهم من الأمر شىء .

[لعلهم يتقون] الله بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فإن الإنذار موجب لذلك ، وسبب من أسبابه .

[ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه] .

أى: لاتطرد عنك ، وعن مجالستك ، أهل العبادة والإخلاص ، رغبة فى مجالسة غيرهم ، من الملازمين لدعاء ربهم ، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها ، ودعاء المسألة ، فى أول النهار وآخره ، وهم قاصدون بذلك ، وجه الله ، ليس لهم من الأغراض ، سوى ذلك الغرض الجليل .

فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم ، بل هم مستحقون لموالاتك إياهم ومحبتهم ، وإدنائهم ، وتقريبهم ، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء ، والأعزاء — فى الحقيقة — وإن كانوا ـ عند الناس ـ أذلاء .

مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا

[ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء] أي : كل له حسابه ، وله عمله الحسن ، وعمله القبيح .

[فتطردهم ، فتكون من الظالمين] وقد امتثل صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ، أشد امتثال .

[فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين ، صبر نفسه معهم ، وأحسن معاملتهم ، وألان لهم جانبه ، وحسن خلقه ، وقربهم منه ، بل كانوا هم ، أكثر أهل مجلسه رضى الله عنهم .

وكان سبب نزول هذه الآيات ، أن أناساً من قريش ، أو من أجلاف العرب ، قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك ، فاطرد فلانا وفلانا ، أناساً من فقراء الصحابة ، فإنا نستحى أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء .

فحمله حبه لإسلامهم ، واتباعهم له ، فحدثته نفسه بذلك .

فعاتبه الله بهذه الآية ونحوها .

[وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا] .

أي : هذا ، من ابتلاء الله لعباده ، حيث جعل بعضهم غنياً ؛ وبعضهم فقيراً ، وبعضهم شريفاً ، وبعضهم وضيعاً .

جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن

فإذا من الله بالإيمـــان على الفقير ، أو الوضيع ؛ كان محل محنة للغنى والشريف .

فإن كان قصده الحق واتباعه ، آمن ، وأسلم ، ولم يمنعه من ذلك ؛ مشاركه الذى يراه دونه ، بالغنى ، أو الشرف .

وإن لم يكن صادقاً فى طلب الحق ، كانت هـذه ، عقبة ترده عن اتباع الحق .

وقالوا – محتقرين لمن يرونهم دونهم – : [أهؤلاء من الله عليهم من بيننـا] .

فمنعهم هذا ، من اتباع الحق ، لعدم زكائهم .

قال الله – مجيبا لـكلامهم ، المتضمن ، الاعتراض على الله فى هداية هؤلاء ، وعدم هداية الله إياهم [1] .

[أليس الله بأعلم بالشاكرين] الذين يعرفون النعمة ، ويقرون بها ، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح ، فيضع فضله ومنته عليهم ، دون من ليس بشاكر.

---

(١) فى الأصل المطبوع (وعدم هدايتهم هم) وهو خطأ تأباه القواعد النحوية ،لذلك أصلحنا العبارة كما ترى لتتمشى العبارة على القواعد النحوية لأن (هم) ضمير منفصل مختص بالرفع وكلمة (هداية) مصدر مضاف لفاعله ، والمفعول به هنا ضمير ، فيتعين أن يكون كلمة (إياهم) المختصة بالنصب .

بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

فإن الله تعالى حكيم ، لايضع فضله ، عند من ليس له أهل .

وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف .

بخلاف من منّ الله عليهم ، بالإيمان ، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون .

ولما نهى الله رسوله ، عن طرد المؤمنين القانتين ، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام ، والتبجيل والاحترام ، فقال :

[وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم] .

أي : وإذا جاءك المؤمنون ، فحيهم ، ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلاماً ، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم ، من رحمة الله ، وسعة جوده وإحسانه ، وحثهم على كل سبب وطريق ، يوصل لذلك .

ورهبهم من الإقامة على الذنوب ، وأمرهم بالتوبة من المعاصي ، لينالوا مغفرة ربهم وجوده .

ولهذا قال : [كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح] .

أي : فلا بد مع ترك الذنوب ، والإقلاع ، والندم عليها ، من إصلاح العمل ، وأداء ما أوجب الله ، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة .

فإذا وجد ذلك كله [فإنه غفور رحيم] أي : صب عليهم من مغفرته ورحمته ، بحسب ما قاموا به ، بما أمرهم به .

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

[وكذلك نفصل الآيات] أى : نوضحها ونبينها ، ونميز بين طريق الهدى من الضلال ، والغى والرشاد ، ليهتدى بذلك المهتدون ، ويتبين الحق الذى ينبغى سلوكه .

ولتستبين سبيل المجرمين] الموصلة إلى سخط الله وعذابه .

فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت ، أمكن اجتنابها ، والبعد منها .

بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة ، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل .

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [قل] لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى .

[إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله] من الأنداد والأوثان ، التى لا تملك نفعاً ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً .

فإن هذا باطل ، وليس لكم فيه حجة ولا شبهة ، إلا اتباع الهوى الذى اتباعه أعظم الضلال .

ولهذا قال [قل لا اتبع أهواءكم قد ضللت إذا] أى : إن اتبعت أهواءكم [وما أنا من المهتدين] بوجه من الوجوه .

وأما ما أنا عليه ، من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، فإنه هو الحق الذى تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة .

قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ

وأنا [على بينة من ربى] أى : على يقين مبين ، بصحته ، وبطلان ما عداه .

وهذه شهادة من الرسول جازمة ، لاتقبل التردد ، وهو أعدل الشهود على الإطلاق .

فصدق بها المؤمنون ، وتبين لهم من صحتها وصدقها ، بحسب ما من الله به عليهم .

[و] لكنكم أيها المشركون ـ [كذبتم به] وهو لايستحق هذا منكم ، ولايليق به إلا التصديق .

وإذا استمررتم على تكذيبكم ، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة وهو عند الله ، هو الذى ينزله عليكم ، إذا شاء ، وكيف شاء .

وإن استعجلتم به ، فليس بيدى من الأمر شىء [إن الحكم إلا لله].

فكما أنه هو الذى حكم بالحكم الشرعى ، فأمر ونهى ، فإنه سيحكم بالحكم الجزائى ، فيثيب ويعاقب ، بحسب ماتقتضيه حكمته .

فالاعتراض على حكمه مطلقاً ، مدفوع وقد أوضح السبيل ، وقص على عباده الحق قصاً ، قطع به معاذيرهم ، وانقطعت له حجتهم .

ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بينة

[وهو خير الفاصلين] بين عباده ، فى الدنيا والآخرة فيفصل بينهم فصلا ، يحمده عليه ، حتى من قضى عليه ، ووجه الحق نحوه .

إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

[قل] للمستعجلين بالعذاب ، جهلا وعناداً وظلماً .

[لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم] فأوقعته بكم ، ولا خير لكم فى ذلك .

ولكن الأمر ، عند الحليم الصبور ، الذى يعصيه العاصون ، ويتجرأ عليه المتجرئون ، وهو يعاقبهم ، ويرزقهم ، ويسدى إليهم نعمه[1] ، الظاهرة والباطنة .

[والله أعلم بالظالمين] لا يخفى عليه من أحوالهم شىء ، فيمهلهم ولا يهملهم .

---

(١) فى الأصل المطبوع (ويسدى عليهم إلخ) خطأ نحوي لأن أسدى يتعدى بـ « إلى » لا بـ «على» فلذلك أصلحنا العبارة بـ « أسدى إليهم » ولو عبر بـ « يسبغ عليهم نعمه إلخ » لكان أجمل وأبلغ .

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

* هذه الآية العظيمة ، من أعظم الآيات تفصيلا ، لعلمه المحيط ، وأنه شامل للغيوب كلها ، التي يطلع منها ما شاء من خلقه .

وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، فضلا عن غيرهم من العالمين .

وأنه يعلم ما في البراري والقفار ، من الحيوانات ، والأشجار ، والرمال والحصى ، والتراب .

وما في البحار ، من حيوانات ، ومعادنها ، وصيدها ، وغير ذلك ، مما تحتويه أرجاؤها ، ويشتمل عليه ماؤها .

[وما تسقط من ورقة] من أشجار البر والبحر ، والبلدان والقفر ، والدنيا والآخرة ، إلا يعلمها .

[ولا حبة في ظلمات الأرض] من حبوب الثمار والزروع ، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق ؛ وبذور النباتات البرية التي ينشىء منها أصناف النباتات .

[ولا رطب ولا يابس] هذا عموم بعد خصوص [إلا في كتاب مبين] وهو اللوح المحفوظ ، قد حواها ، واشتمل عليها .

وبعض هذا المذكور ، يبهر عقول العقلاء ، ويذهل أفئدة النبلاء .

فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته ، في أوصافه كلها .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ

وأن الخلق ـ من أولهم إلى آخرهم ـ لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته ، لم يكن لهم قدرة ، ولا وسع فى ذلك .

فتبارك الرب العظيم ، الواسع ، العليم ، الحميد المجيد ، الشهيد ، المحيط .

وجل من إله ، لا يحصى أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق مايثني عليه عباده .

فهذه الآية ، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء ، وكتابه المحيط ، بجميع الحوادث .

* هذا كله ، تقرير لإلهيته ، واحتجاج على المشركين به ، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم ، والإجلال والإكرام .

فأخبر أنه وحده ، المتفرد بتدبير عباده ، فى يقظتهم ومنامهم ، وأنه يتوفاهم بالليل ، وفاة النوم ، فتهدأ حركاتهم ، وتستريح أبدانهم .

ويبعثهم فى اليقظة من نومهم ، ليتصرفوا فى مصالحهم الدينية والدنيوية .

وهو ـ تعالى ـ يعلم ماجرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال .

ثم لايزال تعالى هكذا ، يتصرف فيهم ، حتى يستوفوا آجالهم .

فيقضى بهذا التدبير ، أجل مسمى ، وهو : أجل الحياة ، وأجل آخر فيما بعد ذلك ، وهو البعث بعد الموت ، ولهذا قال :

[ثم إليه مرجعكم] لا إلى غيره [ثم ينبئكم بما كنتم تعملون] من خير وشر .

ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

[وهو] تعالى [القاهر فوق عباده] ينفذ فيهم إرادته الشاملة ، ومشيئته العامة .

فليسوا يملكون من الأمر شيئا ، ولا يتحركون ، ولا يسكنون إلا بإذنه .

ومع ذلك ، فقد وكل بالعباد ، حفظة من الملائكة ، يحفظون عليه ماعمل كما قال تعالى :

[وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون « عن اليمين وعن الشمال قعيد » ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] .

فهذا حفظه لهم فى حال الحياة .

[حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا] أى الملائكه الوكاون بقبض الأرواح .

[وهم لا يفرطون] فى ذلك ، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ، ولا ينقصون ، ولاينفذون من ذلك ، إلا بحسب المراسيم الإلهية ، والتقادير الربانية .

[ثم] بعد الموت والحياة البرزخية ، وما فيها من الخير والشر [ردوا إلى الله مولاهم الحق] أى : الذى تولاهم بحكمه القدرى ، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير .

ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب.

رَسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء ، ويثيبهم على ما عملوا ، من الخيرات ، ويعاقبهم على الشرور والسيئات ، ولهذا قال :

[ألا له الحكم] وحده لاشريك له (وهو أسرع الحاسبين) لكمال علمه وحفظه لأعمالهم ، بما أثبته فى اللوح المحفوظ ، ثم أثبته ملائكته فى الكتاب ، الذى بأيديهم .

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير ، وهو القاهر فوق عباده ، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء ، فى جميع أحوالهم وهو الذى له الحكم القدرى ، والحكم الشرعى ، والحكم الجزائى ، فأين للمشركين ، العدول عن من هذا وصفه ونعته ، إلى عبادة من ليس له من الأمر شىء ، ولا عنده مثقال ذرة من النفع ، ولا له قدرة وإرادة ؟ !

أما والله لو علموا حلم الله عليهم ، وعفوه ورحمته بهم ، وهم يبارزونه بالشرك والكفران ، ويتجرأون على عظمته بالإفك والبهتان ، وهو يعافيهم ويرزقهم لانجذبت ، دواعيهم إلى معرفته ، وذهلت عقولهم فى حبه .

ولمقتوا أنفسهم أشد المقت ، حيث انقادوا لداعى الشيطان ، الموجب للخزى والخسران ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

---

* أى : [قل] للمشركين بالله ، الداعين معه آلهة أخرى ، ملزما لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الإلهية .

[من ينجيكم من ظلمات البر والبحر] أى: شدائدهما ومشقاتهما ، وحين يتعذر أو يتعسر عليكم ، وجه الحيلة ، فتدعون ربكم تضرعا ، بقلب خاضع ، ولسان لايزال يلهج بحاجته فى الدعاء ، وتقولون — وأنتم فى تلك الحال :

[لئن أنجانا من هذه] الشدة التى وقعنا فيها [لنكونن من الشاكرين] لله أى المعترفين بنعمته ، الواضعين لها فى طاعة ربهم ، الذين حفظوها عن أن يبذلوها فى معصيته .

[قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب] أى من هذه الشدة الخاصة ، ومن جميع الكروب العامة .

[ثم أنتم تشركون] لا تفون لله بما قلتم ، وتنسون نعمه عليكم .

فأى : برهان أوضح من هذا ؛ على بطلان الشرك ، وصحة التوحيد ؟!!

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

---

* أى : هو تعالى ؛ قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة .

[من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم] أى : يخلطكم [شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض] أى : فى الفتنة ، وقتل بعضكم بعضاً .

فهو قادر على ذلك كله ، فاحذروا من الإقامة على معاصيه ، فيصيبكم من العذاب ، ما يتلفكم ويمحقكم ، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك .

ولكن من رحمته ، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم ، والحصب ، ونحوه ، ومن تحت أرجلهم ؛ بالخسف .

ولكن عاقب من عاقب منهم ، بأن أذاق بعضهم بأس بعض ، وسلط بعضهم على بعض بهذه العقوبات المذكورة ، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ، ويشعر بها العاملون .

[انظر كيف نصرف الآيات] أى نتوعها ، ونأتى بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق .

[لعلهم يفقهون] أى : يفهمون ما خلقوا من أجله ، ويفقهون الحقائق الشرعية ، والمطالب الإلهية .

[وكذب به] أى : بالقرآن [قومك وهو الحق] الذى لا مرية فيه ، ولا شك يعتريه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ

[قل لست عليكم بوكيل] أحفظ أعمالكم ، وأجازيكم عليها ، وإنما أنا منذر ومبلغ .

[لكل نبأ مستقر] أى: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

[وسوف تعلمون] ما توعدون به من العذاب .

* المراد بالخوض فى آيات الله : التكلم بما يخالف الحق ، من تحسين المقالات الباطلة ، والدعوة إليها ، ومدح أهلها ، والإعراض عن الحق ، والقدح فيه وفى أهله

فأمر الله رسوله أصلا ، وأمته تبعاً ، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر ، بالإعراض عنهم ، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك ، حتى يكون البحث والخوض فى كلام غيره .

فإذا كان فى كلام غيره ، زال النهى المذكور .

فإن كان مصلحة ، كان مأموراً به ، وإن كان غير ذلك ، كان غير مفيد ولا مأمور به .

وفى ذم الخوض بالباطل ، حث على البحث ، والنظر ، والمناظرة بالحق .

ثم قال : [وإما ينسينك الشيطان] أى : بأن جلست معهم ، على وجه النسيان والغفلة .

بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

[فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين] يشمل الخائضين بالباطل ، وكل متكلم بمحرم ، أو فاعل لمحرم ، فإنه يحرم الجلوس والحضور ، عند حضور المنكر ، الذى لا يقدر على إزالته .

هذا النهى والتحريم ، لمن جلس معهم ، ولم يستعمل تقوى الله ، بأن كان يشاركهم فى القول والعمل المحرم ، أو يسكت عنهم ، وعن الإنكار .

فإن استعمل تقوى الله تعالى ، بأن كان يأمرهم بالخير ، وينهاهم عن الشر والكلام الذى يصدر منهم ، فيترتب على ذلك زواله وتخفيفه ـــ فهذا ليس عليه حرج ولا إثم ، ولهذا قال :

[وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون] .

أى : ولكن ليذكرهم ، ويعظهم ، لعلهم يتقون الله تعالى .

وفى هذا دليل على أنه ينبغى أن يستعمل المذكر من الكلام ، ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى .

وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ ، مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره ، كان تركه هو الواجب ، لأنه إذا ناقض المقصود ، كان تركه مقصوداً .

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ

---

* المقصود من العباد ، أن يخلصوا لله الدين ، بأن يعبدوه وحده لاشريك له ، ويبذلوا مقدورهم فى مرضاته ومحابه .

وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه ، وكون سعى العبد نافعاً ، وجداً ، لا هزلا ، وإخلاصاً لوجه الله ، لا رياء ولا سمعة .

هذا هو الدين الحقيقى ، الذى يقال له دين .

فأما من زعم أنه على الحق ، وأنه صاحب دين وتقوى ، وقد اتخذ دينه لعباً ولهوا .

بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته ، وأقبل على كل ما يضره ، ولها فى باطله ، ولعب فيه ببدنه لأن العمل والسعى إذا كان لغير الله ، فهو لعب .

فهذا ، أمر الله تعالى أن يترك ويحذر ، ولا يغتر به ، وتنظر حاله ، ويحذر من أفعاله ، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله .

[وذكر به] أى : ذكر بالقرآن ، ما ينفع العباد ، أمراً ، وتفصيلا ، وتحسينا له ، بذكر ما فيه من أوصاف الحسن ، وما يضر العباد نهياً عنه ، وتفصيلا لأنواعه ، وبيان ما فيه ، من الأوصاف القبيحة الشنيعة ، الداعية لتركه .

ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

وكل هذا لئلا تبسل نفس بما كسبت ، أى : قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرؤه على علام الغيوب ، واستمراره على ذلك المرهوب .

فذكرها ، وعظها ، لترتدع وتنزجر ، وتكف عن فعالها .

وقوله [ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع] أى : قبل أن تحيط بها ذنوبها ، ثم لا ينفعها أحد من الخلق ، لا قريب ولا صديق ، ولا يتولاها من دون الله أحد ، ولا يشفع لها شافع .

[وإن تعدل كل عدل] أى : تفتدى بكل فداء ، ولو بملء الأرض ذهباً [لا يؤخذ منها] أى : لا يقبل ولا يفيد .

[أولئك] الموصوفون بما ذكر [الذين أبسلوا] أى : أهلكوا وأيسوا من الخير ، وذلك [بما كسبوا ، لهم شراب من حميم] أى : ماء حار ، قد انتهى حره ، يشوى وجوههم ، ويقطع أمعاءهم [وعذاب أليم بما كانوا يكفرون] .

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ

---

* [قل] يا أيها الرسول للمشركين بالله ، الداعين معه غيره ، الذين يدعونكم إلى دينهم ، مبينا وشارحا لوصف آلهتهم ، التى يكتفى العاقل بذكر وصفها ، عن النهى عنها .

فإن كل عاقل إذا تصور مذهب المشركين ، جزم ببطلانه ، قبل أن تقام البراهين على ذلك ، فقال :

[أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا] .

وهذا وصف ، يدخل فيه ، كل من عبد من دون الله ، فإنه لا ينفع ولا يضر ، وليس له من الأمر شيء ، إن الأمر إلا لله .

[ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله] أى : وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال ، ومن الرشد إلى الغى ، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم ، إلى الطرق التى تفضى بسالكها إلى العذاب الأليم .

فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد ، وصاحبها [كالذى استهوته الشياطين فى الأرض] أى أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه ، الموصل إلى مقصده .

فبقى [حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى] والشياطين يدعونه إلى الردى ، فبقى بين الداعيين حائراً .

وهذه حال الناس كلهم ، إلا من عصمه الله تعالى ، فإنهم يجدون فيهم

هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ

جواذب ودواعى متعارضة ، دواعى الرسالة والعقل الصحيح ، والفطرة المستقيمة .

[يدعون إلى الهدى] والصعود الى أعلى عليين .

ودواعى الشيطان ، ومن سلك مسلكه ، والنفس الأمارة بالسوء ، يدعونه إلى الضلال ، والنزول إلى أسفل سافلين .

فمن الناس من يكون مع دواعى الهدى ، فى أموره كلها أو أغلبها .

ومنهم من بالعكس من ذلك .

ومنهم من يتساوى لديه الداعيان ، ويتعارض عنده الجاذبان .

وفى هذا الموضع ، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة .

وقوله : [قل إن هدى الله هو الهدى] أى : ليس الهدى إلا الطريق التى شرعها الله على لسان رسوله ، وما عداه ، فهو ضلال وردى ، وهلاك .

[وأمرنا لنسلم لرب العالمين] بأن ننقاد لتوحيده ، ونستسلم لأوامره ونواهيه ، وندخل تحت عبوديته .

فإن هـذا ، أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد ، وأكمل تربية أوصلها إليهم .

[وأن أقيموا الصلاة] أى : وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها .

قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

[واتقوه] بفعل ما أمر به ، واجتناب ما عنه نهى .

[وهو الذى إليه تحشرون] أى : تجمعون ليوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم ، خيرها وشرها .

[وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق] ليأمر العباد وينهاهم ، ويثيبهم ويعاقبهم .

[ويوم يقول كن فيكون . قوله الحق] الذى لا مرية فيه ولا مثنوية ، ولا يقول شيئاً عبثاً .

[وله الملك يوم ينفخ فى الصور] أى : يوم القيامة خصه بالذكر — مع أنه مالك كل شىء — لأنه تنقطع فيه الأملاك ، فلا يبقى ملك إلا الله الواحد القهار .

[عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير] الذى له الحكمة التامة ، والنعمة السابغة ، والإحسان العظيم ، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ

---

* يقول تعالى : واذكر قصة إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، مثنياً عليه ومعظماً فى حال دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن الشرك .

[إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة] أى : لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شىء .

[إنى أراك وقومك فى ضلال مبين] حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً ، وتركتم عبادة خالقكم ، ورازقكم ، ومدبركم .

[وكذلك] حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه [نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض] أى : ليرى ببصيرته ، ما اشتملت عليه ، من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة[وليكون من الموقنين] .

فإنه بحسب قيام الأدلة ، يحصل له الإيقان ، والعلم التام ، بجميع المطالب.

[فلما جن عليه الليل] أى : أظلم [رأى كوكباً] لعله من الكواكب المضيئة ، لأن تخصيصه بالذكر ، يدل على زيادته عن غيره .

ولهذا — والله أعلم — قال من قال : إنه الزهرة .

[قال هذا ربى] أى : على وجه التنزل مع الخصم أى : هذا ربى ، فهلم ننظر ، هل يستحق الربوبية ؟

ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ

وهل يقوم لنا دليل على ذلك ؟ فإنه لا ينبغى لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان .

[فلما أفل] أى : غاب ذلك الكوكب [قال لا أحب الآفلين] أى : الذى يغيب ويختفى عمن عبده .

فإن المعبود ، لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده ، ومدبراً له فى جميع شئونه .

فأما الذي يمضى وقت كثير وهو غائب ، فمن أين يستحق العبادة ؟ !

وهل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه ، وأبطل الباطل ؟ !

[فلما رأى القمر بازغا] أى : طالعاً ، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها [قال هذا ربى] تنزلا .

[فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين] .

فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه ، وعلم أنه إن لم يهده الله ، فلا هادى له ، وإن لم يعنه على طاعته ، فلا معين له .

[فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر] من الكوكب ومن القمر .

[فلما أفلت] تقرر حينئذ الهدى ، واضمحل الردى [قال يا قوم إنى برىء مما تشركون] حيث قام البرهان الصادق الواضح ، على بطلانه .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ

[إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا] أى : لله وحده ، مقبلا عليه ، معرضاً عن من سواه .

[وما أنا من المشركين] فتبرأ من الشرك ، وأذعن بالتوحيد ، وأقام على ذلك البرهان .

وهذا الذى ذكرنا فى تفسير هذه الآيات ، هو الصواب .

وهو أن المقام مقام مناظرة ، من إبراهيم لقومه ، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها .

وأما من قال : إنه مقام نظر فى حال طفوليته ، فليس عليه دليل .

[وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدانى] أى : أى فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى ؟

فأما من هداه الله ، ووصل إلى أعلى درجات اليقين ، فإنه ـ هو بنفسه ـ يدعو الناس إلى ما هو عليه .

[ولا أخاف ما تشركون به] فإنها لن تضرنى ، ولن تمنع عنى من النفع شيئا .

[إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون] فتعلمون أنه — وحده — المعبود المستحق للعبودية .

مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ

[وكيف أخاف ما أشركتم] وحالها حال العجز ، وعدم النفع ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ، ما لم ينزل به عليكم سلطانا] أى : إلا بمجرد اتباع الهوى .

[فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون] .

قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين [الذين آمنوا ولم يلبسوا] أى : يخلطوا [إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون] الأمن من المخاوف ، والعذاب والشقاء ، والهداية إلى الصراط المستقيم .

فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا ، لا بشرك ، ولا بمعاصى ، حصل لهم الأمن التام ، والهداية التامة .

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون السيئات ، حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها.

ومفهوم الآية الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمران ، لم يحصل لهم هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء .

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام ، بما بين به من البراهين القاطعة قال

[وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه] أى : علا بها عليهم وفلجهم بها .

ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَـكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

[نرفع درجات من نشاء] كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام فى الدنيا والآخرة ، فإن العلم يرفع الله به صاحبه ، فوق العباد درجات .

خصوصاً ، العالم العامل ، المعلم ، فإنه يجعله الله إماماً للناس ، بحسب حاله .

ترمق أفعاله ، وتقتفى آثاره ، ويستضاء بنوره ، ويمشى بعلمه فى ظلمة ديجوره .

قال تعالى [يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات] .

[إن ربك حكيم عليم] فلا يضع العلم والحكمة ، إلا فى المحل اللائق بهما ، وهو أعلم بذلك المحل ، وبما ينبغى له .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ

---

* لما ذكر الله عبده وخليله ، إبراهيم عليه السلام ، وذكر ما من الله عليه به ، من العلم ، والدعوة ، والصبر ، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة ، والنسل الطيب .

وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله ، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة ، التي لايدرك لها نظير فقال :

[ووهبنا له إسحق ويعقوب] ابنه ، الذى هو إسرائيل ، أبو الشعب الذى فضله الله على العالمين .

[كلا] منهما [هديناه] الصراط المستقيم ، فى علمه وعمله .

[ونوحا هدينا]ه [من قبل] وهدايته أعلى أنواع الهدايات الخاصة التى لم تحصل إلا لأفراد من العالم ؛ وهم أولو العزم من الرسل ، الذى هو أحدهم .

[ومن ذريته] يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح ، لأنه أقرب مذكور ، لأن الله ذكر مع من ذكر ، لوطا ، وهو من ذرية نوح ، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم لأن السياق فى مدحه والثناء عليه .

ولوط — وإن لم يكن من ذريته — فإنه ممن آمن على يده .

وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك ، أبلغ من كونه مجرد ابن له .

[داود وسليمان] بن داود [وأيوب ويوسف] بن يعقوب .

[وموسى وهرون] ابنى عمران .

[وكذلك] كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل ، لأنه أحسن فى عبادة ربه ، وأحسن فى نفع الخلق كذلك .

[نجزى المحسنين] بأن نجعل لهم ، من الثناء الصدق ، والذرية الصالحة ، بحسب إحسانهم .

[وزكريا ويحيى] ابنه [وعيسى] بن مريم .

[وإلياس كل] هؤلاء [من الصالحين] فى أخلاقهم وأعمالهم ، وعلومهم ، بل هم سادة الصالحين وقادتهم ، وأئمتهم .

[وإسمعيل] ابن إبراهيم أبو الشعب ، الذى هو أفضل الشعوب ، وهو الشعب العربى ، ووالد سيد ولد آدم ، محمد صلى الله عليه وسلم .

[ويونس] بن متى [ولوطا] بن هاران ، أخى إبراهيم .

[وكلا] من هؤلاء الأنبياء والمرسلين [فضلنا على العالمين] لأن درجات الفضائل أربع — وهى التى ذكرها الله بقوله .

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ

[ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين] .

فهؤلاء من الدرجة العليا ، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق .

فالرسل الذين قصهم الله فى كتابه ، أفضل ممن لم يقصص علينا نبأهم بلا شك .

[ومن آبائهم] أى : آباء هؤلاء المذكورين [وذرياتهم وإخوانهم] .

أى : وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم .

[واجتبيناهم] أى اخترناهم [وهديناهم إلى صراط مستقيم] .

[ذلك] الهدى المذكور [هدى الله] الذى لا هدى إلا هداه .

[يهدى به من يشاء من عباده] فاطلبوا منه الهدى فإن لم يهدكم ، فلا هادى لكم غيره ، وممن شاء هدايته ، هؤلاء المذكورون .

[ولو أشركوا] على الفرض والتقدير [لحبط عنهم ما كانوا يعملون] .

فإن الشرك محبط للعمل ، موجب للخلود فى النار .

فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار ، لو أشركوا — وحاشاهم — لحبطت أعمالهم ، فغيرهم أولى .

بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

[أولئك] المذكورون [الذين هدى الله فبهداهم اقتده] أى : امش — أيها الرسول الكريم — خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار ، واتبع ملتهم .

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم ، فاهتدي بهدى الرسل قبله ، وجمع كل كمال فيهم .

فاجتمعت لديه ، فضائل وخصائص ، فاق بها جميع العالمين ، وكان سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وبهذا الملحظ ، استدل بهذا من استدل من الصحابة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفضل الرسل كلهم .

[قل] للذين أعرضوا عن دعوتك : [لا أسألكم عليه أجرا] .

أى : لا أطلب منكم مغرما ومالا ، جزاء عن إبلاغى إياكم ، ودعوتى لكم فيكون من أسباب امتناعكم ، إن أجرى إلا على الله .

[إن هو إلا ذكرى للعالمين] يتذكرون به ما ينفعهم ، فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيذرونه .

ويتذكرون به ،معرفة ربهم ، بأسمائه ، وأوصافه .

ويتذكرون به الأخلاق الحميدة ، والطرق الموصلة إليها ، والأخلاق الرذيلة ، والطرق المفضية إليها .

فإذا كان ذكرى للعالمين ، كان أعظم نعمة ، أنعم الله بها عليهم ،فعليهم قبولها والشكر عليها .

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

---

* هذا تشنيع على من نفى الرسالة ، من اليهود والمشركين ، وزعم **أن الله** ما أنزل على بشر من شيء .

فمن قال هذا ، فما قدر الله حق قدره ، ولا عظمه حق عظمته .

إذ هذا ، قدح فى حكمته ، وزعم أنه يترك عباده هملا ، لا يأمرهم ولا ينهاهم .

ونفى لأعظم منة ، امتن الله بها على عباده ، وهى الرسالة ، التى لا طريق للعباد إلى نيل السعادة ، والكرامة ، والفلاح ، إلا بها ، فأى قدح فى **الله** أعظم من هذا ؟ ! !

[قل] لهم — ملزما بفساد قولهم وقررهم ، بما به يقرون — : [**من أنزل** الكتاب الذى جاء به موسى] وهو التوراة العظيمة [نوراً] فى ظلمات الجهل [وهدى] من الضلالة ، وهاديا إلى الصراط المستقيم علما ، وعملا ، وهو الكتاب الذى شاع وذاع ، وملأ ذكره القلوب والأسماع .

حتى أنهم جعلوا يتناسخونه فى القراطيس ، ويتصرفون فيه بما شاءوا .

فما وافق أهواءهم منه ، أبدوه وأظهروه ، وما خالف ذلك ، **أخفوه** وكتموه ، وذلك كثير .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

[وعلمتم] من العلوم ، التى بسبب ذلك الكتاب الجليل « ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم] فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات — فأجب عن هذا السؤال .

[ذرهم فى خوضهم يلعبون] أى: اتركهم يخوضوا فى الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه ، حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون .

* أى [وهذا] القرآن [كتاب أنزلناه إليك مبارك] أى: وصفه البركة . وذلك لكثرة خيراته ، وسعة مبراته .

[مصدق الذى بين يديه] أى : موافق للكتب السابقة ، وشاهد لها بالصدق .

[ولتنذر أم القرى ومن حولها] أى : وأنزلناه أيضاً، لتنذر أم القرى، وهى : مكة المكرمة ، ومن حولها ، من ديار العرب بل ، ومن سائر البلدان .

فتحذر الناس عقوبة الله ، وأخذه الأمم ، وتحذرهم مما يوجب ذلك :

[والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به] لأن الخوف إذا كان فى القلب ، عمرت أركانه ، وانقاد لمراضى الله .

[وهم على صلاتهم يحافظون] أى : يداومون عليها ، ويحفظون أركانها وحدودها ، شروطها وآدابها ، ومكملاتها . جعلنا الله منهم .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟

---

* يقول تعالى : لا أحد أعظم ظلماً ، ولا أكبر جرماً ، ممن كذب على الله .

بأن نسب إلى الله قولا أو حكما وهو تعالى برىء منه .

وإنما كان هذا أظلم الخلق ، لأن فيه من الكذب ، وتغيير الأديان ، أصولها ، وفروعها ، ونسبة ذلك إلى الله — ما هو من أكبر المفاسد .

ويدخل فى ذلك ، ادعاء النبوة ، وأن الله يوحى إليه ، وهو كاذب فى ذلك .

فإنه — مع كذبه على الله ، وجرأته على عظمته وسلطانه — يوجب على الخلق أن يتبعوه ، ويجاهدهم على ذلك ، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم .

ويدخل فى هذه الآية ، كل من ادعى النبوة ، كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى ، والمختار ، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف .

[ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله] أى : ومن أظلم ممن زعم ، أنه يقدر على ما يقدر الله عليه ، ويجارى الله فى أحكامه ، ويشرع من الشرائع ، كما شرعه الله .

ويدخل فى هذا ، كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن ، وأنه فى إمكانه ، أن يأتى بمثله .

أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

وأى ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات ، الناقص من كل وجه ، مشاركة القوى الغنى ، الذى له الكمال المطلق ، من جميع الوجوه ، فى ذاته ، وأسمائه وصفاته ؟ !! .

ولما ذم الظالمين ، ذكر ما أعد لهم من العقوبة فى حال الاحتضار ، ويوم القيامة فقال :

[ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت] أى : شدائده وأهواله الفظيعة ، وكربه الشنيعة — لرأيت أمرا هائلا ، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها .

[والملائكة باسطوا أيديهم] إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب ، والعذاب .

يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها ، وتعصيها عن الخروج من الأبدان :

[أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون] أى : العذاب الشديد ، الذى يهينكم ويذلكم والجزاء من جنس العمل .

فإن هذا العذاب [بما كنتم تقولون على الله غير الحق] من كذبكم عليه ، وردكم للحق ، الذى جاءت به الرسل .

[وكنتم عن آياته تستكبرون] أى : تترفعون عن الانقياد لها ، والاستسلام لأحكامها .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ

وفى هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه .

فإن هذا الخطاب ، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار ، وقبيل الموت وبعده .

وفيه دليل ، على أن الروح جسم ، يدخل ويخرج ، ويخاطب، ويساكن الجسد ، ويفارقه ، فهذه حالهم فى البرزخ .

وأما يوم القيامة ، فإنهم إذا وردوها ، وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ، ولا أولاد ولا جنود ، ولا أنصار ، كما خلقهم الله أول مرة ، عارين من كل شىء .

فإن الأشياء ، إنما تتمول وتحصل ، بعد ذلك ، بأسبابها ، التى هى أسبابها .

وفى ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور ، التى كانت مع العبد فى الدنيا ، سوى العمل الصالح ، والعمل السىء ، الذى هو مادة الدار الآخرة ، الذى تنشأ عنه ، ويكون حسنها وقبحها ، وسرورها وغمومها ، وعذابها ونعيمها ، بحسب الأعمال .

فهى التى تنفع ، أو تضر ، وتسوء أو تسر .

وما سواها ، من الأهل والولد ، والمال والأنصار ، فعوار خارجية ، وأوصاف زائلة ، وأحوال حائلة ، ولهذا قال تعالى :

[ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم] أى : أعطيناكم ، وأنعمنا به عليكم [وراء ظهوركم] لا يغنون عنكم شيئاً :

زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

[وما نرى معكم شفعاءكم ، الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء] .

فإن المشركين يشركون بالله ، ويعبدون معه الملائكة ، والأنبياء ، والصالحين ، وغيرهم .

وهم كلهم لله ، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم ، وشركة فى عبادتهم .

وهذا زعم منهم ، وظلم ، فإن الجميع ، عبيد لله ، والله مالكهم ، والمستحق لعبادتهم .

فشركهم فى العبادة ، وصرفها لبعض العبيد ، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك ، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة .

[وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم] .

أى : تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم ، من الشفاعة وغيرها .

فلم تنفع ولم تجد شيئاً .

[وضل عنكم ما كنتم تزعمون] من الربح ، والأمن ، والسعادة ، والنجاة ، التى زينها لكم الشيطان ، وحسنها فى قلوبكم ، فنطقت بها ألسنتكم .

واغتررتم بهذا الزعم الباطل ، الذى لا حقيقة له ، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون .

وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم ، وأهليكم ، وأموالكم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ

---

* يخبر تعالى ، عن كماله ، وعظمة سلطانه ، وقوة اقتداره ، وسعة رحمته ، وعموم كرمه ، وشدة عنايته بخلقه ، فقال :

[إن الله فالق الحب] شامل لكل الحبوب ، التي يباشر الناس زرعها ، والتي لا يباشرونها ، كالحبوب التي يبثها الله فى البرارى والقفار .

فيفلق الحبوب عن الزروع والنباتات ، على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومنافعها .

ويفلق النوى عن الأشجار ، من النخيل ، والفواكه ، وغير ذلك .

فينتفع بها الخلق ، من الآدميين والأنعام ، والدواب .

ويرتعون فيما فلق الله ، من الحب ، والنوى .

ويقتاتون ، وينتفعون بجميع أنواع المنافع ، التى جعلها الله فى ذلك .

ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول ، ويذهل الفحول .

ويريهم من بدائع صنعته ، وكمال حكمته ، ما به يعرفونه ويوحدونه ، ويعلمون أنه هو الحق ، وأن عبادة ما سواه ، باطلة .

[يخرج الحى من الميت] كما يخرج من المنى حيواناً ، ومن البيضة فرخا ، ومن الحب والنوى ، زرعاً وشجراً .

[ومخرج الميت] وهو الذى لا نمو فيه ، أو لا روح [من الحى] .

كما يخرج من الأشجار والزروع ، النوى ، والحب ، ويخرج من الطائر بيضاً ونحو ذلك .

[ذلكم] الذى فعل ما فعل ، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها

[الله ربكم] أى : الذى له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين .

وهو الذى ربى جميع العالمين بنعمه ، وغذاهم بكرمه .

[فأنى تؤفكون] أى : فأنى تصرفون ، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه ، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ؟ ! !

ولما ذكر تعالى ، مادة خلق الأقوات ، ذكر منته بتهيئة المساكن ، وخلقه كل مايحتاج إليه العباد ، من الضياء ، والظلمة ، ومايترتب على ذلك ، من أنواع المنافع والمصالح فقال :

[فالق الإصباح] أى : كما أنه فالق الحب والنوى ، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجى ، الشامل لما على وجه الأرض ، بضياء الصبح الذى يفلقه شيئاً فشيئاً ، حتى تذهب ظلمة الليل كلها ، ويخلفها الضياء والنور العام ، الذى يتصرف به الخلق ، فى مصالحهم ، ومعايشهم ، ومنافع دينهم ودنياهم .

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة ، التى لا تتم إلا بوجود النهار والنور [جعل] الله [الليل سكنا] يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم ، والأنعام إلى مأواها ، والطيور إلى أوكارها ، فتأخذ نصيبها من الراحة .

ثم يزيل الله ذلك ، بالضياء ، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة .

[و] جعل تعالى [الشمس والقمر حسبانا] بهما تعرف الأزمنة والأوقات ، فتنضبط بذلك أوقات العبادات ، وآجال المعاملات ، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التى لولا وجود الشمس والقمر ، وتناوبهما ، واختلافهما — لما عرف ذلك ، عامة الناس ، واشتركوا فى علمه .

بل كان لايعرفه ، إلا أفراد من الناس ، بعد الاجتهاد ، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ، مايفوت .

[ذلك] التقدير المذكور [تقدير العزيز العليم] الذى - من عزته - انقادت له هذه المخلوقات العظيمة ، فجرت مذللة مسخرة بأمره ، بحيث لاتتعدى ماحده الله لها ، ولا تتقدم عنه ولاتتأخر .

[العليم] الذى أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، والأوائل والأواخر .

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه ، تسخير هذه المخلوقات العظيمة ، على تقدير ، ونظام بديع ، تحيرت العقول ، فى حسنه ، وكماله ، وموافقته للمصالح والحكم .

[وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر] حين تشتبه عليكم المسالك ، ويتحير فى سيره السالك .

فجعل الله النجوم ، هداية للخلق إلى السبيل ، التى يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم ، وتجاراتهم ، وأسفارهم .

منها نجوم لاتزال ترى ، ولا تسير عن محلها .

ومنها : ما هو مستمر السير ، يعرف سيره ، أهل المعرفة بذلك ، ويعرفون به الجهات والأوقات .

ودلت هذه الآية ونحوها ، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذى يسمى علم التسيير ، فإنه لاتتم الهداية ولا تمكن ، إلا بذلك .

بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾
وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ

[قد فصلنا الآيات] أى بيناها ، ووضحناها ، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر ، بحيث صارت آيات الله ، بادية ظاهرة .

[لقوم يعلمون] أى : لأهل العلم والمعرفة ، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ، ويطلب منهم الجواب .

بخلاف أهل الجهل والجفاء ، المعرضين عن آيات الله ، وعن العلم الذى جاءت به الرسل ، فإن البيان لايفيدهم شيئا ، والتفصيل ، لايزيل عنهم ملتبسا ، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلا .

[وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة] وهو : آدم عليه السلام .

أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمى ؛ الذى قد ملأ الأرض .

ولم يزل فى زيادة ونمو ، الذى قد تفاوت فى أخلاقه وخلقه ، وأوصافه ، تفاوتا لايمكن ضبطه ، ولايدرك وصفه .

وجعل الله لهم مستقراً ، أى منتهى ينتهون إليه ، وغاية يساقون إليها وهى : دار القرار ، التى لا مستقر وراءها ، ولانهاية فوقها .

فهذه الدار ، هى التى خلق الخلق لسكناها ، وأوجدوا فى الدنيا ، ليسعوا فى أسبابها ، التى تنشأ عليها وتعمر بها .

وأودعهم الله فى أصلاب آبائهم ، وأرحام أمهاتهم ، ثم فى دار الدنيا ، ثم فى البرزخ .

كل ذلك ، على وجه الوديعة ، التى لاتستقر ولاتثبت ، بل ينتقل منها ، حتى يوصل إلى الدار ، التى هى المستقر .

قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ

وأما هذه الدار ، فإنها مستودع وممر .

[قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون] عن الله آياته ، ويفهمون عنه حججه ، وبيناته .

* وهذا من أعظم مننه العظيمة ، التي يضطر إليها الخلق ، من الآدميين وغيرهم .

وهو أنه . أنزل من السماء ماء متتابعاً ، وقت حاجة الناس إليه ، فأنبت الله به كل شيء ، مما يأكل الناس والأنعام .

فرتع الخلق ، بفضل الله ، وانبسطوا برزقه ، وفرحوا بإحسانه ، وزال عنهم الجدب والقحط .

ففرحت القلوب ، وأسفرت الوجوه ، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم ، ما به يتمتعون ، وبه يرتعون ، مما يوجب لهم ، أن يبذلوا جهدهم ، فى شكر من أسدى النعيم ، وعبادته[1] والإنابة إليه ، والمحبة له .

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء ، من أنواع الأشجار ، والنبات ، ذكر الزرع والنخل ، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال :

---

(١) قوله (وعبادته والإنابة إليه ، والمحبة له) هذه الأسماء الثلاثة منصوبة ، لأنها معطوفة على قوله (جهدهم الذى هو مفعول به لـ « يبذلون »).

مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

[فأخرجنا به خضراً نخرج منه] أى : من ذلك النبات الخضر .

[حباً متراكباً] بعضه فوق بعض ، من بر ، وشعير ، وذرة ، وأرز ، وغير ذلك ، من أصناف الزروع .

وفى وصفه بأنه متراكب ، إشارة إلى أن حبوبه متعددة ، وجميعها تستمد من مادة واحدة ، وهى لا تختلط ، بل هى متفرقة الحبوب ، مجتمعة الأصول .

وإشارة أيضاً ، إلى كثرتها ، وشمول ريعها وغلتها ، ليبقى أصل البذر ، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار .

[ومن النخل] أخرج الله [من طلعها] وهو الكفرى ، والوعاء ، قبل ظهور القنو منه ، فيخرج من ذلك الوعاء [قنوان دانية] أى : قريبة سهلة التناول ، متدلية على من أرادها ، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت ، فإنه يوجد فيها كرب ومراقى ، يسهل صعودها .

[و] أخرج تعالى بالماء [جنات من أعناب والزيتون والرمان] .

فهذه من الأشجار الكثيرة النفع ، العظيمة الوقع ، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنباتات .

وقوله [مشتبها وغير متشابه] يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون ، أى : مشتبها فى شجره وورقه ، غير متشابه فى ثمره .

. . . .

ويحتمل أن يرجع ذلك ، إلى سائر الأشجار والفواكه ، وأن بعضها مشتبه ، يشبه بعضه بعضاً ، ويتقارب فى بعض أوصافه ، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره .

والكل ينتفع به العباد ، ويتفكهون ، ويقتاتون ، ويعتبرون ، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به ، فقال :

[انظروا] نظر فكر واعتبار [إلى ثمره] أى : الأشجار كلها ، خصوصا : النخل ، إذا أثمر .

[وينعه] أى : انظروا إليه ، وقت إطلاعه ، ووقت نضجه وإيناعه . فإن فى ذلك عبراً ، وآيات ، يستدل بها على رحمة الله ،وسعة إحسانه وجوده. وكمال اقتداره وعنايته بعباده .

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر ، وليس كل من تفكر ، أدرك المعنى المقصود .

ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات ، بالمؤمنين فقال :

[إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون] فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان ، على العمل بمقتضياته ولوازمه ، التى منها: التفكر فى آيات الله، والاستنتاج منها ، ما يراد منها ، وما تدل عليه ، عقلا ، وفطرة ، وشرعاً .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

* يخبر تعالى : أنه — مع إحسانه لعباده ، وتعرفه إليهم ، بآياته البينات ، وحججه الواضحات — أن المشركين به ، من قريش وغيرهم ، جعلوا له شركاء ، يدعونهم ، ويعبدونهم ، من الجن ، والملائكة ، الذين هم خلق من خلق الله ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء .

فجعلوها شركاء ، لمن له الخلق والأمر ، وهو المنعم بسائر أصناف النعم ، الدافع لجميع النقم .

وكذلك « خرق المشركون » أي : ائتفكوا ، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله ، بنين وبنات ، بغير علم منهم .

ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم ، وافترى عليه أشنع النقص ، الذى يجب تنزيه الله عنه ؟ ! ! .

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال :

[سبحانه وتعالى عما يصفون] فإنه تعالى ، الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وآفة ، وعيب .

[بديع السموات والأرض] أي : خالقهما ، ومتقن صنعتهما ، على غير مثال سبق ، بأحسن خلق ، ونظام ، وبهاء .

لا تقترح عقول أولى الألباب مثله ، وليس له فى خلقهما مشارك .

[أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة] أى : كيف يكون لله الولد ، وهو الإله السيد الصمد ، الذى لا صاحبة له ، أى : لا زوجة له ، وهو الغنى

وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

عن مخلوقاته ، وكلها فقيرة إليه ، مضطرة فى جميع أحوالها إليه .

والولد لابد أن يكون من جنس والده .

والله خالق كل شىء وليس شىء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه .

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء ، ذكر إحاطة علمه بها فقال :

[وهو بكل شىء عليم] وفى ذكر العلم بعد الخلق ، إشارة إلى الدليل العقلى ، على ثبوت علمه ، وهو هذه المخلوقات ، وما اشتملت عليه ، من النظام التام ، والخلق الباهر .

فإن فى ذلك ، دلالة على سعة علم الخالق ، وكمال حكمته ، كما قال تعالى :

[ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير] وكما قال تعالى :

[وهو الخلاق العليم] ذلكم الذى ، خلق ما خلق ، وقدر ما قدر .

[ذلكم الله ربكم] أى المألوه المعبود ، الذى يستحق نهاية الذل له ، ونهاية الحب . الرب ، الذى ربى جميع الخلق بالنعم ، وصرف عنهم صنوف النقم .

[لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه] أى : إذا استقر وثبت ، أنه الله الذى لا إله إلا هو ، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة ، وأخلصوها لله ، واقصدوا بها وجهه .

فإن هذا هو المقصود من الخلق ، الذى خلقوا لأجله [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون] .

[وهو على كل شىء وكيل] أى : جميع الأشياء ، تحت وكالة الله وتدبيره ، خلقاً ، وتدبيراً ، وتصريفاً .

لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

ومن المعلوم ، أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته ، وتمامه ، وكمال انتظامه ، بحسب حال الوكيل عليه .

ووكالته تعالى على الأشياء ، ليست من جنس وكالة الخلق ، فإن وكالتهم ، وكالة نيابة ، والوكيل فيها ، تابع لموكله .

وأما البارى ، تبارك وتعالى ، فوكالته من نفسه لنفسه ، متضمنة لكمال العلم ، وحسن التدبير والإحسان فيه ، والعدل .

فلا يمكن أحداً ، أن يستدرك على الله ، ولا يرى فى خلقه خللا ، ولا فطوراً ، ولا فى تدبيره ، نقصاً وعيباً .

ومن وكالته : أنه تعالى ، توكل ببيان دينه ، وحفظه عن المزيلات والمغيرات ، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم .

[لا تدركه الأبصار] لعظمته ، وجلاله وكماله .

أى : لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه فى الآخرة ، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم .

فنفى الإدراك ، لا ينفى الرؤية ، بل يثبتها بالمفهوم .

فإنه إذا نفى الإدراك ، الذى هو أخص أوصاف الرؤية ، دل على أن الرؤية ثابتة .

فإنه لو أراد نفى الرؤية ، لقال « لا تراه الأبصار » ونحو ذلك .

فعلم أنه ليس فى الآية ، حجة لمذهب المعطلة ، الذين ينفون رؤية ربهم فى الآخرة .

بل فيها ما يدل على نقيض قولهم .

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾

[وهو يدرك الأبصار] أى : هو الذى أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، وسمعه ، بجميع الأصوات الظاهرة ، والخفية وبصره ، بجميع المبصرات ، صغارها ، وكبارها ، ولهذا قال :

[وهو اللطيف الخبير] الذى لطف علمه وخبرته ، ودق ، حتى أدرك السرائر والخفايا ، والخبايا ، والبواطن .

ومن لطفه ، أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه ، ويوصلها إليه بالطرق ، التى لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها .

ويوصله إلى السعادة الأبدية ، والفلاح السرمدى ، من حيث لا يحتسب .

حتى إنه يقدر عليه الأمور، التي يكرهها العبد ، ويتألم منها ، ويدعو الله أن يزيلها ، لعلمه أن دينه أصلح ، وأن كماله متوقف عليها .

فسبحان اللطيف لما يشاء ، الرحيم بالمؤمنين .

[قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ] .

لما بين تعالى من الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، الدالة على الحق فى جميع المطالب والمقاصد ، نبه العباد عليها ، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم ، فقال :

[قد جاءكم بصائر من ربكم] أى : آيات ، تبين الحق ، وتجعله للقلب ،

. . . .

بمنزلة الشمس للأبصار ، لما اشتملت عليه ، من فصاحة اللفظ ، وبيانه ، ووضوحه ، ومطابقته للمعانى الجليلة ، والحقائق الجميلة ، لأنها صادرة من الرب ، الذى ربى خلقه ، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة ، التي من أفضلها وأجلها ، تبيين الآيات ، وتوضيح المشكلات .

[فمن أبصر] بتلك الآيات ، مواقع العبرة ، وعمل بمقتضاها [فلنفسه] فإن الله هو الغنى الحميد .

(ومن عمى) بأن بصر ، فلم يتبصر ، وزجر ، فلم ينزجر ، وبين له الحق ، فما انقاد له ولا تواضع ، فإنما مضرة عماه[1] عليه .

[وما أنا] أيها الرسول [عليكم بحفيظ] أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام ، إنما على البلاغ المبين ، وقد أديته ، وبلغت ما أنزل الله إلي، فهذه وظيفتي ، وما عدا ذلك ، فلست موظفاً فيه .

(١) فى الأصل المطبوع كانت العبارة هكذا (عماه مضرته) وهو خطأ واضح فلذا صححنا العبارة كما ترى لينتظم الكلام .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ

* قوله تعالى (وكذلك نصرف الآيات) الكاف فى موضع نصب صفة للمصدر المحذوف ، أى: نصرف الآيات تصريفا ، مثل ما تلونا عليك .

والتصريف معناه : التنويع .

والمراد : أن الله تعالى ،ينوع الآيات الدالة على المعانى الرائعة ، الكاشفة عن الحقائق الفائقة ،لاتصريفا أدنى منه ، بل تصريفاً بلغت فى الروعة مبلغاً ارتقى عن إدراك المخلوقين .

قوله تعالى (وليقولوا درست) جوابه محذوف ، تقديره « ونحن نصرفها » أو نفعل مانفعل من التصريف المذكور [معنى درست] تعلمت.

وقرأت كتب أهل الكتاب أى : قدمت هذه الآية ومضت .

كما قالوا : أساطير الأولين ، تلقاها ممن مضوا من أهل الكتاب من الأمم السابقة .

(وليقولوا درست) علة لفعل قد حذف ، تعويلا على دلالة السياق عليه .

أى ، وليقولوا : درست نفعل ما نفعل ، من التصريف المذكور .

واللام للعاقبة والصيرورة ، والواو اعتراضية . أى : لتصير عاقبة أمرهم إلى أن يقولوا درست وهو كقوله تعالى .

(فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) وهم لم يلتقطوه للعداوة وإنما التقطوه ، ليصير لهم قرة عين ، ولكن صارت عاقبة أمرهم إلى العداوة .

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟

وكذلك الآيات ، صرفت للتبيين ، ولم تصرف ليقولوا : درست .

ولكن حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين ، فشبه به .

وقوله تعالى [ولنبينه] أى : القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوماً ، أو الآيات ، لأنها فى معنى القرآن .

[لقوم يعلمون] الحق من الباطل .

ومجمل معنى الآية :

ومثل هذا التنويع البديع فى عرض الدلائل الكونية ، نعرض آياتنا فى القرآن منوعة مفصلة،لنقيم الحجة بها على الجاحدين ، فلا يجدوا الاختلاق والكذب ، فيتهموك بأنك تعلمت من الناس ، لامن الله ، ولنبين ما أنزل إليك من الحقائق ، من غير تأثر بهوى ، لقوم يدركون الحق ، ويذعنون له .

* اتبع — أيها النبى — ماجاءك به الوحى من الله ، مالك أمرك ، ومدبر شئونك ، إنه — وحده — الإله المستحق للطاعة والخضوع ، فالتزم طاعته ، ولا تبال بعناد المشركين ، ولاتحتفل بهم ، وبأقاويلهم الباطلة .

* قوله تعالى [ولو شاء الله] أى : إيمانهم فالمفعول به محذوف [ما أشركوا] بين أنهم لايشركون على خلاف مشيئة الله ولو علم منهم

وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

اختيار الإيمان لهداهم إليه ولكن علم منهم اختيار الشرك فأشركوا بمشيئته

* قوله تعالى (وماجعلناك عليهم حفيظاً) أى رقيبا مهيمنا من قبلنا مراعيا لأعمالهم مأخوذا بإجرامهم وكذلك قوله (وما أنت عليهم بوكيل) **من** جهتهم ولا بمسلط تقوم بتدبير أمورهم وترعى مصالحهم .

والمعنى الإجمالى للآية :

ولو أراد الله أن يعبدوه وحده ، لقهرهم على ذلك ، بقوته وقدرته ، لكنه تركهم لاختيارهم .

وما جعلناك رقيباً ، تحصى عليهم أعمالهم ، وما أنت بمكلف ، بأن تقوم عنهم ، بتدبير شئونهم ، وإصلاح أمرهم .

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

* ينهى الله المؤمنين ، عن أمر كان جائزاً ، بل مشروعاً فى الأصل ، وهو سب آلهة المشركين ، التى اتخذت أوثاناً وآلهة مع الله ، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها .

ولكن لما كان هذا السب ، طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين ، الذى يجب تنزيه جنابه العظيم ، عن كل عيب ، وآفة ، وسب ، وقدح ـ نهى الله عن سب آلهة المشركين ، لأنهم يتحمسون[1] لدينهم ، ويتعصبون له.

لأن كل أمة ، زين الله لهم عملهم ، فرأوه حسناً ، وذبوا عنه ، ودافعوا بكل طريق .

حتى إنهم ، يسبون الله ، رب العالمين ، الذى رسخت عظمته فى قلوب الأبرار والفجار ، إذا سب المسلمون آلهتهم .

ولكن الخلق كلهم ، مرجعهم ومآلهم ، إلى الله يوم القيامة ، يعرضون عليه ، وتعرض أعمالهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر .

---

(١) فى الأصل المطبوع « يحمون » وهو خطأ ، فلذلك صححنا الكلمة بـ « يتحمسون » .

. . . .

وفى هذه الآية الكريمة ، دليل للقاعدة الشرعية[1] وهو أن الوسائل

(١) قوله [دليل للقاعدة الشرعية الخ] الرواية المشهورة فى هذه القاعدة معروفة لدى العلماء على وجوه عدة متداولة فيما بينهم .

الأولى : الغاية تبرر الوسيلة .

الثانية : الوسائل لها حكم المقاصد .

الثالثة : وهى التى وردت فى المادة الثانية من (مجلة الأحكام العدلية) بهذه الصيغة .

الأمور بمقاصدها يعنى أن الحكم الذى يترتب على أمر يكون على مقتضى ما هو المقصود من ذلك الأ .

أى: إن الحكم الذى يترتب على فعل المكلف ينظر فيه إلى مقصوده .

فعلى حسبه يترتب الحكم ، تملكا وعدمه، ثواباً وعدمه ، عقابا وعدمه مؤاخذة وعدمها ، ضمانا وعدمه .

فهذه قاعدة جامعة مستنبطة من الحديث المشهور أخرجه الأئمة الستة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » ومن تدبر مسائل النية فى متفرقات أبواب الفقه وجدها فى العبادات بكمالها أعنى الطهارة والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وفى بعض المعاملات .

وفيها بيان أن الشيء الواحد ، يتصف بالحل ، والحرمة باعتبار ما قصد له .

وإليك بعض الأمثلة توضيحا لتلك القاعدة .

فلو رمى إنسان سهما قاصداً صيداً ، فأصاب إنسانا فقتله ، لا يقتل به =

. . . .

تعتبر بالأمور التي توصل إليها ، وأن وسائل المحرم ، ولو كانت جائزة ، تكون محرمة ، إذا كانت تفضى إلى الشر .

= ولو قال : أنت على كظهر أمى ، أو مثل أمى ، يرجع إلى نيته .

فإن قصد الظهار فظاهر، أو الكرامة ، كان كرامة ، أو الطلاق ، كان طلاقا ، أو اليمين كان إيلاء ، لأن اللفظ يحتمل كل ذلك وإذا قصد السارق أخذ الدين من مديونه ، لا تقطع يده .

وإذا أخرج المودع الوديعة بنية لبسها فهلكت قبل اللبس ، يضمن ، وإن لم تكن بتلك النية ، لا يضمن .

واذا وطىء الرجل زوجته على ظن أنها أجنبية يأثم ، وفى شرب الماء على ظن أنه خمر . وفى قتل قاتل مورثه على ظن أنه معصوم الدم . ففى كل هذه الصور يأثم .

فيفسق لقصده الزنا ، وشرب الخمر ، والقتل .

ولكن لا يحد فى جميع الصور المتقدمة ، لقيام الشبهة .

وباقى الكلام مبسوط فى شرح المادة الثانية من (مجلة الأحكام الشرعية) لمفتى حمص الأسبق الشيخ « محمد طاهر الأتاسى » الشقيق الأكبر لصاحب الدولة (هاشم الأتاسى) الرئيس الأسبق للجمهورية العربية السورية فقد أجاد وأفاد ، رحمه الله رحمة واسعة .

وفى (الأشباه والنظائر) لابن نجيم ، وفى (الفتاوى الهندية) وفى (رد المختار على الدر المختار) تفريعات كثيرة على هذه القاعدة ، فمن أراد الاستقصاء فعليه بمراجعتها .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ

---

* أى وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

[بالله جهد أيمانهم] أى : قسما اجتهدوا فيه ، وأكدوه .

[لئن جاءتهم آية] تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم [ليؤمنن بها] .

وهذا الكلام الذى صدر منهم ، لم يكن قصدهم فيه ، الرشاد .

وإنما قصدهم ، دفع الاعتراض ، ورد ما جاء به الرسل قطعاً .

فإن الله أيد رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، التى — عند الالتفات إليها — لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال فى صحة ما جاء به .

فطلبهم — بعد ذلك — للآيات ، من باب التعنت ، الذى لا يلزم إجابته .

بل قد يكون المنع من إجابتهم ، أصلح لهم .

فإن الله ، جرت سنته فى عباده ، أن المقترحين للآيات على رسلهم ، إذا جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها ـ أنه يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال :

[قل إنما الآيات عند الله] أى : هو الذى يرسلها إذا شاء ، ويمنعها إذا شاء ، ليس لى من الأمر شىء .

فطلبكم منى الآيات ، ظلم ، وطلب لما لا أملك ، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به ، وتصديقه ، وقد حصل .

يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ

ومع ذلك ، فليس معـلوماً ، أنهم إذا جاءتهم الآيات ، يؤمنون ويصدقون ، بل الغالب ، ممن هذه حاله ، أنه لا يؤمن ، ولهذا قال :

[وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون] .

أى : ونعاقبهم ، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعى ، وتقوم عليهم الحجة ، بتقليب القلوب ، والحيلولة بينهم وبين الإيمان ، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم .

وهذا من عدل الله ، وحكمته بعباده ، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم ، وفتح لهم الباب ، فلم يدخلوا ، وبين لهم الطريق ، فلم يسلـكوا .

فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق ، كان مناسبا لأحوالهم .

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ، ومشيئتهم وحدهم ، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط .

فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة ، من تنزيل الملائكة إليهم ، يشهدون للرسول بالرسالة ، وتـكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، [وحشرنا عليهم كل شىء] حتى يكلمهم[قبلا]ومشاهدة ، ومباشرة ، بصـدق ما جاء به الرسول ما حصل(١) لهم الإيمان ، إذا لم يشأ الله إيمانهم ، ولـكن أكثرهم يجهلون.

---

(١) قوله «ما حصل» جواب «لو» فى قوله المتقدم « فإنهم لو جاءتهم».

قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ

فلذلك رتبوا إيمانهم ، على مجرد إتيان الآيات .

وإنما العقل والعلم ، أن يكون العبد مقصوده ، اتباع الحق ، ويطلبه بالطرق التى بينها الله ، ويعمل بذلك ، ويستعين ربه فى اتباعه ، ولا يتكل على نفسه ، وحوله وقوته ،ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ، مالا فائدة فيها .

* يقول تعالى ـ مسليا الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ، ويحاربونك ، ويحسدونك ، فهذه سنتنا ، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق ، أعداء ، من شياطين الإنس والجن ، يقومون بضد ما جاءت به الرسل .

[يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا] أى : يزين بعضهم لبعض ، الأمر الذى يدعون إليه ، من الباطل ، ويزخرفون له العبارات ، حتى يجعلوه فى أحسن صورة ، ليغتر به السفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين لا يفهمون الحقائق ، ولا يفقهون المعانى .

بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات المموهة ، فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقاً ، ولهذا قال تعالى :

رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

[ولتصغى إليه] أى : ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف [أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة] لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة ، يحملهم على ذلك .

[وليرضوه] بعد أن يصغوا إليه ، فيصغون إليه أولا .

فإذا مالوا إليه ، ورأوا تلك العبارات المستحسنة ، رضوه ، وزين في قلوبهم ، وصار عقيدة راسخة ، وصفة لازمة .

ثم ينتج من ذلك ، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ، ماهم مقترفون .

أى : يأتون من الكذب بالقول والفعل ، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة .

فهذه حال المفترين ، شياطين الإنس والجن ، المستجيبين لدعوتهم .

وأما أهل الإيمان بالآخرة ، وأولو العقول الوافية ، والألباب الرزينة ، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات ، ولا تخلبهم تلك التمويهات .

بل همتهم ، مصروفة إلى معرفة الحقائق ، فينظرون إلى المعانى التي يدعو إليها الدعاة .

فإن كانت حقا ، قبلوها ، وانقادوا لها ، ولو كسيت عبارات رديئة ، وألفاظا غير وافية .

وإن كانت باطلا ، ردوها على من قالها ، كائناً من كان ، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ، ما هو أرق من الحرير .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ

ومن حكمته تعالى ، فى جعله للأنبياء أعداء ، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه ، أن يحصل لعباده ، الابتلاء ، والامتحان ليتميز الصادق من الكاذب ، والعاقل من الجاهل ، والبصير من الأعمى .

ومن حكمته أن فى ذلك بيانا للحق ، وتوضيحا له .

فإن الحق يستنير ويتضح ، إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه .

فإنه ـ حينئذ ـ يتبين من أدلة الحق ، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته ، ومن فساد الباطل وبطلانه ، ما هو من أكبر المطالب ، التى يتنافس فيها المتنافسون .

* أى : قل يا أيها الرسول [أفغير الله أبتغى حكما] أحاكم إليه ، وأتقيد بأوامره ونواهيه .

فإن غير الله محكوم عليه ، لا حاكم .

وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص ، والعيب ، والجور.

وإنما الذى يجب أن يتخذ حاكما ، هو الله وحده لا شريك له ، الذى له الخلق والأمر .

[وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا] أى : موضحاً فيه الحلال والحرام ، والأحكام الشرعية ، وأصول الدين وفروعه ، الذى لا بيان فوق بيانه ، ولا برهان أجلى من برهانه ، ولا أحسن منه حكما ، ولا أقوم قيلا، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة .

مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

وأهل الكتب السابقة ، من اليهود ، والنصارى ، يعترفون بذلك [ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق] ولهذا ، تواطأت الأخبار [فلا] تشكن فى ذلك ولا [تكونن من الممترين] .

ثم وصف تفصيلها فقال : [وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا] أى : صدقا فى الإخبار ، وعدلا ، فى الأمر والنهى .

فلا أصدق من أخبار الله التى أودعها هذا الكتاب العزيز ، ولا أعدل من أوامره ونواهيه و [لا مبدل لكلماته] حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق ، وبغاية الحق .

فلا يمكن تغييرها ، ولا اقتراح أحسن منها .

[وهو السميع] لسائر الأصوات ، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات .

[العليم] الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والماضى والمستقبل .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، محذرا عن طاعة أكثر الناس : [وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله] فإن أكثرهم قد انحرفوا فى أديانهم ، وأعمالهم ، وعلومهم .

فأديانهم فاسدة ، وأعمالهم تبع لأهوائهم ، وعلومهم ليس فيها تحقيق ، ولا إيصال لسواء الطريق .

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن ، الذى لايغنى من الحق شيئاً ويتخرصون فى القول على الله ، مالا يعلمون .

ومن كان بهذه المثابة ، فحرى أن يحذر الله منه عباده ، ويصف لهم أحوالهم .

لأن هذا ـ وإن كان خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم ـ فإن أمته تبع له ، فى سائر الأحكام ، التى ليست من خصائصه .

والله تعالى أصدق قيلا ، وأصدق حديثا ، و [هو أعلم بمن يضل عن سبيله] وأعلم بمن يهتدى ويهدى .

فيجب عليكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم ، وأرحم بكم من أنفسكم .

ودلت هذه الآية ، على أنه لا يستدل على الحق ، بكثرة أهله ، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور ، أن يكون غير حق .

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ

بل الواقع بخلاف ذلك ، فإن أهل الحق ، هم الأقلون عددا ، الأعظمون ـ عند الله ـ قدراً وأجراً .

بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل ، بالطرق الموصلة إليه .

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، بمقتضى الإيمان ، وأنهم ، إن كانوا مؤمنين ، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، من بهيمة الأنعام ، وغيرها ، من الحيوانات المحللة ، ويعتقدوا حلها ، ولا يفعلوا كما يفعله أهل الجاهلية ، من تحريم كثير من الحلال ، ابتداعا من عند أنفسهم ، وإضلالا من شياطينهم .

فذكر الله ، أن علامة المؤمن ، مخالفة أهل الجاهلية ، فى هذه العادة الذميمة ، المتضمنة لتغيير شرع الله ، وأنه ، أى شىء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم ، وبينه ووضحه ؟

فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة ، توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال ، خوفا من الوقوع فى الحرام .

ودلت الآية الكريمة ، على أن الأصل فى الأشياء والأطعمة ، الإباحة .

وأنه ، إذا لم يرد الشرع بتحريم شىء منها ، فإنه باق على الإباحة .

فما سكت الله عنه ، فهو حلال ، لأن الحرام قد فصله الله ، فما لم يفصله الله ، فليس بحرام .

عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

ومع ذلك ، فالحرام الذى قد فصله الله ، وأوضحه ، قد أباحه عند الضرورة ، والمخمصة ، كما قال تعالى : [حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير] إلى أن قال : [فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم] .

ثم حذر عن كثير من الناس ، فقال : [وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم] أى : بمجرد ما تهوى أنفسهم [بغير علم] ولا حجة .

فليحذر العبد من أمثال هؤلاء ، وعلامتهم — كما وصفهم الله لعباده — أن دعوتهم ، غير مبنية على برهان ، ولا لهم حجة شرعية .

وإنما يوجد لهم شبه ، بحسب أهوائهم الفاسدة ، وآرائهم القاصرة .

فهؤلاء معتدون على شرع الله ، وعلى عباد الله ، والله لا يحب المعتدين .

بخلاف الهادين المهتدين ، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى ، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية ، ولا يتبعون فى دعوتهم إلا رضا ربهم ، والقرب منه .

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

---

* المراد بالإثم : جميع المعاصى ، التى تؤثم العبد ، أى : توقعه فى الإثم ، والحرج ، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق عباده .

فنهى الله عباده ، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن .

أى : السر والعلانية ، المتعلقة بالبدن والجوارح ، والمتعلقة بالقلب .

ولا يتم للعبد ، ترك المعاصى الظاهرة والباطنة ، إلا بعد معرفتها ، والبحث عنها .

فيكون البحث عنها ، ومعرفة معاصى القلب ، والبدن ، والعلم بذلك ، واجباً متعيناً على المكلف .

وكثير من الناس ، يخفى عليه كثير من المعاصى ، خصوصاً ، معاصى القلب ، كالكبر ، والعجب ، والرياء ، ونحو ذلك .

حتى إنه يكون به كثير منها ، وهو لايحس به ولايشعر ، وهذا من الإعراض ، عن العلم ، وعدم البصيرة .

ثم أخبر تعالى ، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن ، سيجزون على حسب كسبهم ، وعلى قدر ذنوبهم ، قلت أو كثرت .

وهذا الجزاء يكون فى الآخرة .

وقد يكون فى الدنيا ، يعاقب العبد ، فيخفف عنه بذلك ، من سيئاته .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ

---

* ويدخل تحت هذ المنهى عنه ، ما ذكر عليه اسم غير الله ، كالذى يذبح للأصنام ، وآلهة المشركين .

فإن هذا ، مما أهل لغير الله به ، المحرم بالنص عليه خصوصاً .

ويدخل فى ذلك ، متروك التسمية ، مما ذبح لله ، كالضحايا ، والهدايا ، أو للحم والأكل ، إذا كان الذابح متعمدا ترك التسمية ، عند كثير من العلماء .

ويخرج من هذا العموم ، الناسى بالنصوص الأخر ، الدالة على دفع الحرج عنه .

ويدخل فى هذه الآية ، مامات بغير ذكاة من الميتات ، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه .

ونص الله عليها بخصوصها ، فى قوله : [حرمت عليكم الميتة] ولعلها سبب نزول الآية ، لقوله [وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم] بغير علم .

فإن المشركين ـ حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة ، وتحليله للمذكاة ، وكانوا يستحلون أكل الميتة ـ قالوا ـ معاندة لله ورسوله ، ومجادلة بغير حجة ولا برهان ـ أتأكلون ماقتلتم ، ولا تأكلون ماقتل الله ؟ يعنون بذلك : الميتة .

أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

وهذا رأى فاسد ، لايستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدةالتى لو كان الحق تبعاً لها،لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول ، على شرع الله وأحكامه ، الموافقة للمصالح العامة ، والمنافع الخاصة .

ولا يستغرب هذا منهم ، فإن هذه الآراء وأشباهها ، صادرة عن وحى أوليائهم من الشياطين ، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير .

[وإن أطعتموهم] فى شركهم ، وتحليلهم الحرام ، وتحريمهم الحلال [إنكم لمشركون]لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله ، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين ، فلذلك كان طريقكم، طريقهم .

ودلت هذه الآية الكريمة ، على أن مايقع فى القلوب ، من الإلهامات، والكشوف ، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم ، لاتدل ـ بمجردها على أنها حق ، ولاتصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله .

فإن شهدا لها بالقبول ، قبلت ، وإن ناقضتها ، ردت ، وإن لم يعلم شيء من ذلك ، توقف فيها ، ولم تصدق ، ولم تكذب .

لأن الوحى والإلهام ، يكون من الشيطان ، فلابد من التميز بينهما .

والفرقان وبعدم التفريق بين الأمرين ، حصل من الغلط والضلال ، مالا يحصيه إلا الله .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ

---

* يقول تعالى : [أو من كان] من قبل هداية الله له [ميتًا] في ظلمات الـكفر ، والجهل ، والمعاصى .

[فأحييناه] بنور العلم والإيمان والطاعة ، فصار يمشى بين الناس في النور ، متبصراً في أموره ، مهتديًا لسبيله ، عارفا للخير ، مؤثرا له ، مجتهدًا في تنفيذه فى نفسه .

وغيره عارفا بالشر ، مبغضاً له ، مجتهدًا فى تركه ، وإزالته عن نفسه وعن غيره .

فيستوي هذا بمن هو في الظلمات ، ظلمات الجهل والغى ، والـكفر والمعاصى .

[ليس بخارج منها] قد التبست عليه الطرق ، وأظلمت عليه المسالك ، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء .

فنبه تعالى ، العقول بما تدركه وتعرفه ، أنه لا يستوى هذا ولا هذا كما لا يستوى الليل والنهار ، والضياء والظلمة ، والأحياء والأموات .

فـكأنه قيل : فـكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل ، أن يكون بهذه الحالة ، وأن يبقى فى الظلمات متحيراً :

فأجاب بأنه [زين للـكافرين ما كانوا يعملون] فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم ، ويزينها فى قلوبهم ، حتى استحسنوها ، ورأوها حقا .

أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ

وصار ذلك عقيدة فى قلوبهم ، وصفة راسخة ملازمة لهم .

فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح .

وهؤلاء ، الذين فى الظلمات يعمهون ، وفى باطلهم يترددون ، غير متساوين .

فمنهم : القادة ، والرؤساء ، والمتبوعون ، ومنهم : التابعون المرءوسون.

والأولون ، منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال ، ولهذا قال :

[وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها] أى : الرؤساء الذين قد كبر جرمهم ، واشتد طغيانهم [ليمكروا فيها] بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ، ومحاربة الرسل وأتباعهم ، بالقول والفعل .

وإنما مكرهم وكيدهم ، يعود على أنفسهم ، لأنهم يمكرون ، ويمكر الله، والله خير الماكرين .

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم فى سبيل الله ، ويسلكون بذلك ، السبل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم الله ، ويسدد رأيهم ، ويثبت أقدامهم ، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتى يدول الأمر فى عاقبته ، بنصرهم وظهورهم ، والعاقبة للمتقين .

سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم ، وقاموا برد الحق الذى جاءت به الرسل ، حسداً منهم وبغياً ، فقالوا :

[لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله] من النبوة والرسالة .

وفى هذا اعتراض منهم على الله ، وعجب بأنفسهم ، وتكبر على الحق الذى أنزله على أيدى رسله ، وتحجر على فضل الله وإحسانه .

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد ، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين ، فضلا أن يكونوا من النبيين والمرسلين :

فقال : [الله أعلم حيث يجعل رسالته] فيمن علمه يصلح لها ، ويقوم بأعبائها ، وهو متصف بكل خلق جميل ، ومتبرىء من كل خلق دنىء ، أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلا وتبعاً .

ومن لم يكن كذلك ، لم يضع أفضل مواهبه ، عند من لا يستأهله ، ولا يزكو عنده .

وفى هذه الآية ، دليل على كمال حكمة الله تعالى ، لأنه ، وإن كان تعالى رحيما ، واسع الجود ، كثير الإحسان ، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله .

ثم توعد المجرمين فقال : [سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله] أى : إهانة وذل ، كما تكبروا على الحق ، أذلهم الله .

[وعذاب شديد بما كانوا يمكرون] أى : بسبب مكرهم ، لا ظلماً منه تعالى .

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً لعباده علامة سعادة العبد وهدايته ، وعلامة شقاوته وضلاله — :

إن من انشرح صدره للإسلام ، أى : اتسع وانفسح ، فاستنار بنور الإيمان ، وحيي بضوء اليقين ، فاطمأنت بذلك نفسه ، وأحب الخير ، وطوعت له نفسه فعله ، متلذذا به — غير مستثقل — فإن هذا ، علامة ، على أن الله قد هداه ، ومن عليه بالتوفيق ، وسلوك أقوم الطريق .

وأن علامة من يرد الله أن يضله ، أن يجعل صدره ضيقاً حرجاً .

أى : فى غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين .

قد انغمس قلبه فى الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته ، يكاد يصعد فى السماء ، أى : كأنه يكلف الصعود إلى السماء ، الذى لا حيلة فيه .

وهذا سببه ، عدم إيمانهم ، فهو الذى أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم ، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان .

وهذا ميزان لا يعول ، وطريق لا يتغير .

فإن من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، ييسره الله لليسرى .

ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسييسره للعسرى .

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

---

* أى : معتدلا ، موصلا إلى الله ، وإلى دار كرامته ، قد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه ، وميز الخير من الشر .

ولكن هذا التفصيل والبيان ، ليس لكل أحد ، إنما هو [لقوم يذكرون] :

فإنهم الذين علموا ، فانتفعوا بعلمهم ، وأعدلهم الجزاء الجزيل ، والأجر الجميل .

فلهذا قال : [لهم دار السلام عند ربهم] .

وسميت الجنة دار السلام ، لسلامتها من كل عيب ، وآفة وكدر ، وهم وغم ، وغير ذلك من المنغصات .

ويلزم من ذلك ، أن يكون نعيمها : فى غاية الكمال ، ونهاية التمام ، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ، ولا يتمنى فوقه المتمنون ، من نعيم الروح ، والقلب ، والبدن .

ولهم فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

[وهو وليهم] الذى يتولى تدبيرهم وتربيتهم ، ولطف بهم فى جميع أمورهم ، وأعانهم على طاعته ، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته .

وإنما تولاهم ، بسبب أعمالهم الصالحة ، ومقدماتهم التى قصدوا بها رضا مولاهم .

بخلاف من أعرض عن مولاه ، واتبع هواه .

فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه ، فأفسد عليه دينه ودنياه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

* يقول تعالى [ويوم يحشرهم جميعاً] أى : جميـع الثقلين ، من الإنس والجن ، من ضل منهم ، ومن أضل غيره .

فيقول موبخاً للجن ، الذين أضلوا الإنس ، وزينوا لهم الشر ، وآزوهم إلى المعاصى :

[يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس] أى: من إضلالهم ، وصدهم عن سبيل الله .

فـكيف أقدمتم على محارمى ، وتجرأتم على معاندة رسلى ؟ وقمتم محاربين لله ، ساعين فى صد عباد الله عن سبيله ، إلى سبيل الجحيم ؟

فاليوم حقت عليكم لعنتى ، ووجبت لـكم نقمتى . وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم ، وإضلالـكم لغيركم .

وليس لـكم عذر به تعتذرون ، ولا ملجأ إليه تلجأون ، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع .

فلا تسأل حينئذ ، عما يحل بهم من النـكال ، والخزى والوبال ، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً .

وأما أولياؤهم من الإنس ، فأبدو عذراً غير مقبول فقالوا :

[ربنا استمتع بعضنا ببعض] أي تمتع كل من الجنى والإنسى ، بصاحبه ، وانتفع به .

إِلاَّ مَا شَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ

فالجنى يستمتع بطاعة الإنسى له ، وعبادته ، وتعظيمه ، واستعاذته به .

والإنسى ، يستمتع بنيل أغراضه ، وبلوغه ، بحسب خدمة الجنى له ، بعض شهواته .

فإن الإنسى يعبد الجنى ، فيخدمه الجنى ، ويحصل له بعض الحوائج الدنيوية .

أى : حصل منا ، من الذنوب ، ما حصل ، ولا يمكن رد ذلك .

[وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا] أى : وقد وصلنا المحل الذى نجازى فيه بالأعمال .

فافعل بنا الآن ، ما تشاء ، واحكم فينا ، بما تريد .

قد انقطعت حجتنا ، ولم يبق لنا عذر ، والأمر أمرك ، والحكم حكمك .

وكان فى هذا الكلام منهم ، نوع تضرع وترقق ، ولكن فى غير أوانه .

ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل ، الذى لا جور فيه فقال: [النار مثواكم خالدين فيها] .

ولما كان هذا الحكم ، من مقتضى حكمته وعلمه ، ختم الآية بقوله : [إن ربك حكيم عليم] .

فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمها ، فحكمته الغائية ، شملت الأشياء وعمتها ووسعتها .

[وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون] .

أى : وكما ولينا الجن المردة ، وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة ، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك .

كذلك من سنتنا ، أن نولى كل ظالم ظالما مثله ، يؤزه إلى الشر ، ويحثه عليه ، ويزهده فى الخير ، وينفره عنه ، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها ، البليغ خطرها .

والذنب ذنب الظالم ، فهو الذى أدخل الضرر على نفسه ، وعلى نفسه جنى [وما ربك بظلام للعبيد] .

ومن ذلك ، أن العباد ، إذا كثر ظلمهم وفسادهم ، ومنعهم الحقوق الواجبة ، ولى عليهم ظلمة ، يسومونهم سوء العذاب ، ويأخذون منهم ، بالظلم والجور ، أضعاف ما منعوا من حقوق الله ، وحقوق عباده ، على وجه غير مأجورين فيه ، ولا محتسبين .

كما أن العباد ، إذا صلحوا واستقاموا ، أصلح الله رعاتهم ، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف ، لا ولاة ظلم واعتساف .

ثم وبخ الله ، جميع من أعرض عن الحق ورده ، من الجن والإنس ، وبين خطأهم ، فاعترفوا بذلك ، فقال :

[يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى] الواضحات البينات ، التى فيها تفاصيل الأمر والنهى ، والخير والشر ، والوعد والوعيد .

[وينذرونكم لقاء يومكم هذا] ويعلمونكم أن النجاة فيه ،

وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ

والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيـــه ، وأن الشقاء والخسران فى تضييع ذلك .

فأقروا بذلك واعترفوا ، فـ « قالوا » [بلى شهدنا على أنفسنا. وغرتهم الحياة الدنيا] بزينتها ، وزخرفها ، ونعيمها فاطمأنوا بها ، ورضوا بها ، وألهتهم عن الآخرة .

[وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين] فقامت عليهم حجة الله ، وعلم حينئذ ، كل أحد ، حتى هم بأنفسهم . عدل الله فيهم .

فقال لهم : حا كما عليهم بالعذاب الأليم :[ادخلوا في] جملة [أمم،قد خلت من قبلكم ، من الجن والإنس] صنعوا كصنيعكم ، واستمتعوا بخلاقهم ، كما استمعتم ، وخاضوا بالباطل كما خضتم ، إنهم كانوا خاسرين .

أى : الأولون من هؤلاء والآخرون .

وأى خسران أعظم ، من خسران جنات النعيم ، وحرمان جوار أكرم الأكرمين ؟ !!

ولـكنهم ، وإن اشتركوا فى الخسران ، فإنهم يتفاوتون فى مقداره ، تفاوتا عظيما .

[ولكل] منهم [درجات مما عملوا] بحسب أعمالهم ، لا يجعل قليل الشر منهم ، كـكثيره ، ولا التابع كالمتبوع ، ولا المرءوس كالرئيس .

كما أن أهل الثواب والجنة ، وإن اشتركوا فى الربح والفلاح ودخول

دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ

الجنة ، فإن بينهم من الفرق ، مالا يعلمه إلا الله ، مع أنهم كلهم ، رضوا بما آتاهم مولاهم ، وقنعوا بما حباهم .

فنسأله تعالى ، أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى ، التى أعدها الله للمقربين من عباده ، والمصطفين من خلقه ، وأهل الصفوة ، أهل وداده .

[وما ربك بغافل عما يعملون] فيجازى كلا بحسب عمله ، وبما يعلمه من مقصده .

وإنما أمر الله العباد بالأعمال الصالحة ، ونهاهم عن الأعمال السيئة ، رحمة بهم ، وقصدا لمصالحهم .

وإلا ، فهو الغنى بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، فلا تنفعه طاعة الطائعين ، كما لا تضره معصية العاصين .

[إن يشأ يذهبكم] بالإهلاك [ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين] .

فإذا عرفتم بأنكم ، لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار ، كما انتقل غيركم ، وترحلون منها ، وتخلونها لمن بعدكم ، كما رحل عنها من قبلكم ، وخلوها لكم .

فلم اتخذتموها قرارا ؟ وتوطنتم بها ، ونسيتم ، أنها دار ممر لادار مقر .

وأن أمامكم دارا ، هى الدار التى جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص ؟

كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ

وهى الدار التى يسعى إليها الأولون والآخرون ، ويرتحل نحوها ، السابقون واللاحقون .

التى إذا وصلوها ، فثم الخلود الدائم ، والإقامة اللازمة ، والغاية التى لا غاية وراءها ، والمطلوب الذى ينتهى إليه كل مطلوب ، والمرغوب الذى يضمحل دونه كل مرغوب .

هنالك ، والله ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، ويتنافس فيه المتنافسون ، من لذة الأرواح ، وكثرة الأفراح ، ونعيم الأبدان والقلوب ، والقرب من علام الغيوب .

فلله همة ، تعلقت بتلك الكرامات ، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات !!

وما أبخس حظ من رضى بالدون ، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون !!

ولا يستبعد المعرض الغافل ، سرعة الوصول إلى هذه الدار .

[إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين] لله ، فارين من عقابه ، فإن نواصيكم تحت قبضته ، وأنتم تحت تدبيره وتصرفه .

[قل] يا أيها الرسول لقومك : إذا دعوتهم إلى الله ، وبينت لهم مآلهم وما عليهم من حقوقه ، فامتنعوا من الانقياد لأمره ، واتبعوا أهواءهم ، واستمروا على شركهم :

[يا قوم اعملوا على مكانتكم] أى : على حالتكم التى أنتم عليها ، ورضيتموها لأنفسكم .

إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

[إنى عامل] على أمر الله ، ومتبع لمراضى الله .

[فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار] أنا أو أنتم .

وهذا من الإنصاف ، بموضع عظيم حيث بين الأعمال وعامليها ، وجعل الجزاء مقرونا بنظر البصير ، ضارباً فيه صفحا ، عن التصريح الذى ، يغنى عنه التلويح .

وقد علم أن العاقبة الحسنة ، فى الدنيا والآخرة ، للمتقين .

وأن المؤمنين لهم عقبى الدار ، وأن كل معرض عن ماجاءت به الرسل ، عاقبته سوء وشر ، ولهذا قال :

[إنه لا يفلح الظالمون] فكل ظالم ، وإن تمتع فى الدنيا بما تمتع به ، فنهايته فيه ، الاضمحلال والتلف « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

---

* يخبر تعالى ، عما عليه المشركون المكذبون للنبي صلى الله عليه وسلم ، من سفاهة العقل ، وخفة الأحلام ، والجهل البليغ .

وعدد تبارك وتعالى شيئاً من خرافاتهم ، لينبه بذلك ، على ضلالهم ، والحذر منهم ، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء للحق ، الذى جاء به الرسول ، لا تقدح فيه أصلا ، فإنهم لا أهلية لهم فى مقابلة الحق .

فذكر من ذلك أنهم [جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا] ولشركائهم من ذلك نصيباً .

والحال أن الله تعالى ، هو الذى ذرأه للعباد ، وأوجده رزقا ، فجمعوا بين محذورين محظورين بل ثلاثة محاذير .

منتهم على الله ، فى جعلهم له نصيباً ، مع اعتقادهم أن ذلك منهم ، تبرع .

وإشراك الشركاء ، الذين لم يرزقوهم ، ولم يوجدوا لهم شيئاً فى ذلك .

وحكمهم الجائر ، فى أن ما كان لله ، لم يبالوا به ، ولم يهتموا ، ولو كان واصلا إلى الشركاء .

وما كان لشركائهم اعتنوا به ، واحتفظوا به ، ولم يصل إلى الله ، منه شيء .

وذلك أنهم إذا حصل لهم — من زروعهم وثمارهم وأنعامهم ، التى أوجدها الله لهم — شيء ، جعلوه قسمين :

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ

قسما قالوا : هذا لله بقولهم وزعمهم ، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصا لوجهه ، ولا يقبل عمل من أشرك به .

وقسما ، جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد .

فإن وصل شيء مما جعلوه لله ، واختلط بما جعلوه لغيره ، لم يبالوا بذلك.

وقالوا : الله غنى عنه ، فلا يردونه .

وإن وصل شيء مما جعلوه لآلهتهم إلى ما جعلوه لله ، ردوه إلى محله .

وقالوا : إنها فقيرة ، لابد من رد نصيبها .

فهل أسوأ من هذا الحكم . وأظلم ؟!! حيث جعلوا ما للمخلوق ، يجتهد فيه وينصح ، ويحفظ ، أكثر مما يفعل بحق الله .

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة ، ما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن الله تعالى أنه قال :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من أشرك معى شيئاً تركته وشركه » .

وأن معنى الآية أن ما جعلوه ، وتقربوا به لأوثانهم ، فهو تقرب خالص لغير الله ، ليس لله منه شيء .

وما جعلوه لله — على زعمهم — فإنه لا يصل إليه لكونه شركا ، بل يكون حظ الشركاء والأنداد ، لأن الله غنى عنه ، لايقبل العمل الذى أشرك به معه أحد من الخلق .

لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ

ومن سفه المشركين وضلالهم ، أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم — أى : رؤساؤهم وشياطينهم — قتل أولادهم ، وهو : الوأد ، الذين يدفنون أولادهم وهم أحياء خشية الافتقار ، والإناث خشية العار .

وكل هذا من خدع الشياطين ، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك ، ويلبسوا عليهم دينهم ، فيفعلون الأفعال التى فى غاية القبح .

ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم ، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة .

ولو شاء الله أن يمنعهم ، ويحول بينهم وبين هذه الأفعال ، ويمنع أولادهم عن قتال الأبوين لهم ، ما فعلوه .

ولكن اقتضت حكمته ، للتخلية بينهم وبين أفعالهم ، استدراجا منه لهم ، وإمهالا لهم ، وعدم مبالاة بما هم عليه ، ولهذا قال :

[فذرهم وما يفترون] أى : دعهم مع كذبهم وافترائهم ، ولا تحزن عليهم ، فإنهم لن يضروا الله شيئاً .

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التى أحلها الله لهم عموما ، وجعلها رزقا ورحمة ، يتمتعون بها ، وينتفعون ، قد اخترعوا فيها بدعاً وأقوالا ، من تلقاء أنفسهم .

فعندهم اصطلاح فى بعض الأنعام والحرث أنهم يقولون فيها :

[هـذه أنعام وحرث حجر] أى : محرم [لا يطعمها إلا من نشاء]

إِلَّا مَن نَشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

أى : لا يجوز أن يطعمه أحد ، إلا من أردنا أن يطعمه ، أو وصفناه بوصف من عندنا .

وكل هذا — بزعمهم — لا مستند لهم ولا حجة ، إلا أهويتهم ، وآراؤهم الفاسدة .

وأنعام ليست محرمة من كل وجه ، بل يحرمون ظهورها ، أى: بالركوب والحمل عليها ، ويحمون ظهرها ، ويسمونها الحام .

وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، بل يذكرون اسم أصنامهم ، وما كانوا يعبدون من دون الله عليها ، وينسبون تلك الأفعال إلى الله ، وهم كذبة فجار فى ذلك .

[سنجزيهم بما كانوا يفترون] على الله ، من إحلال الشرك ، وتحريم الحلال ، من الأكل ، والمنافع .

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ، ويعينونها — محرما ما فى بطنها ، على الإناث دون الذكور ، فيقولون :

[ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا] أى : حلال لهم ، لا يشاركهم فيها النساء .

[ومحرم على أزواجنا] أى : نسائنا ، هذا إذا ولد حياً .

إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

وإن يكن ما فى بطنها يولد ميتاً ، فهم فيه شركاء ، أى : فهو حلال للذكور والإناث .

[سيجزيهم] الله [وصفهم] حيث وصفوا ما أحله الله ، بأنه حرام ، ووصفوا الحرام بالحلال ، فناقضوا شرع الله ، وخالفوه ، ونسبوا ذلك إلى الله .

[إنه حكيم] حيث أمهل لهم ، ومكنهم مما هم فيه من الضلال .

[عليم] بهم ، لا تخفى عليه خافية ، وهو تعالى ، يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه ، وهو يعافيهم ، ويرزقهم ، جل جلاله .

ثم بين خسرانهم وسفاهة عقولهم فقال :

[قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم] أى : خسروا دينهم وأولادهم ، وعقولهم ، وصار وصفهم — بعد العقول . الرزينة — السفه المردى ، والضلال .

[وحرموا ما رزقهم الله] أى : ما جعله رحمة لهم ، وساقه رزقا لهم .

فردوا كرامة ربهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وصفوها بأنها حرام ، وهى من أحل الحلال .

وكل هذا [افتراء على الله] أى : كذب يكذب به كل معاند كفار .

[قد ضلوا وما كانوا مهتدين] أى: قد ضلوا ضلالا بعيدا ، ولم يكونوا مهتدين فى شىء من أمورهم .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ

---

* لما ذكر تعالى تصرف المشركين فى كثير مما أحله الله لهم ، من الحروث والأنعام ، ذكر تبارك وتعـالى ، نعمته عليهم بذلك ، ووظيفتهم اللازمة عليهم ، فى الحروث والأنعام فقال :

[وهو الذى أنشأ جنات] أى : بساتين ، فيها أنواع الأشجار المتنوعة ، والنباتات المختلفة .

[معروشات وغير معروشات] أى : بعض تلك الجنات ، مجعول لها عرش ، تنتشر عليه الأشجار ، ويعاونها فى النهوض عن الأرض .

وبعضها خال من العروش ، تنبت على ساق ، أو تنفرش فى الأرض .

وفى هذا تنبيه على كثرة منافعها ، وخيراتها ، وأنه تعالى ، علم العباد كيف يعرشونها ، وينمونها .

[و] أنشأ تعالى [النخل والزرع مختلفا أكله] أى : كله فى محـل واحد ، ويشرب من ماء واحد ، ويفضل الله بعضه على بعض فى الأكل .

وخص تعالى ، النخل ، والزرع على اختلاف أنواعه ، لـكثرة منافعها ، ولـكونها هى القوت لأكثر الخلق .

(و) أنشأ تعالى [الزيتون والرمان متشابها] فى شجره [وغير متشابه] فى ثمره وطعمه .

كأنه قيل : لأى شىء أنشأ الله هذه الجنات ، وما عطف عليها ؟

مُتَشَٰبِهٖ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾

فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال : [كلوا من ثمره] أى : النخل والزرع [إذا أثمر] .

[وآتوا حقه يوم حصاده] أى : أعطوا حق الزرع ، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة فى الشرع .

أمرهم أن يعطوها يوم حصادها ، وذلك لأن حصاد الزرع ، بمنزلة حولان الحول .

لأنه الوقت ، الذى تتشوف إليه نفوس الفقراء ، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع ، ويكون الأمر فيها ظاهراً ، لمن أخرجها ، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج .

وقوله : [ولا تسرفوا] يعم النهى عن الإسراف فى الأكل ، وهو : مجاوزة الحد والعادة ، وأن يأكل صاحب الزرع أكلا يضر بالزكاة ، والإسراف فى إخراج حق الزرع ، بحيث يخرج فوق الواجب عليه ، أو يضر نفسه أو عائلته أو غرماءه .

فكل هذا ، من الإسراف الذى نهى الله عنه ، الذى لا يحبه الله ، بل يبغضه ويمقت عليه .

وفى هذه الآية ، دليل على وجوب الزكاة فى الثمار ، وأنه لا حول لها ، بل حولها ، حصادها فى الزروع ، وجذاذ النخيل .

وأنه لا تتكرر فيها الزكاة ، لو مكثت عند العبد أحوالا كثيرة ،

۞ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ

إذا كانت لغير التجارة ، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه ، إلا وقت حصاده .

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر ، أنه لا يضمنها ، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع ، قبل إخراج الزكاة منه ، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة ، بل يزكى المال الذى يبقى بعده .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يبعث خارصاً ، يخرص للناس ثمارهم ، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث ، أو الربع ، بحسب ما يعتريها من الأكل وغيره ، من أهلها ، وغيرهم .

* أى : [و] خلق وأنشأ [من الأنعام حمولة وفرشا] أى : بعضها ، تحملون عليه وتركبونه ، وبعضها ، لا تصلح للحمل والركوب عليها ، لصغرها ، كالفصلان ونحوها ، وهى الفرش .

فهى من جهة الحمل والركوب ، تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل ، وأنواع الانتفاع ، فإنها كلهـا ، تؤكل ، وينتفع بها .

ولهذا قال : [كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان] أى : طرقه وأعماله ، التى من جملتها ، أن تحرموا بعض ما رزقكم الله .

[وإنه لكم عدو مبين] فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتكم وشقاؤكم الأبدى .

وهذه الأنعام التى امتن الله بها على عباده ، وجعلها كلها حلالا طيبا ، فصلها بأنها :

أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ
أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ

[ثمانية أزواج من الضأن اثنين] ذكر وأنثى [ومن المعز اثنين] كذلك.
فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل الله ، لا فرق بين شيء منها .

فقل لهؤلاء المتكلفين ، الذين يحرمون منها شيئا دون شيء ، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور ، ملزما لهم بعدم وجود الفرق ، بين ما أباحوا منها ، وحرموا :

[آلذكرين] من الضأن والمعز [حرم] الله ، فلستم تقولون بذلك وتطردونه .

[أم الأنثيين] حرم الله من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم ، لا تحريم الذكور الخلص ، ولا الإناث الخلص من الصنفين .

بقي إذا كان الرحم مشتملا على ذكر وأنثى ، أو على مجهول فقال :

[أم] تحرمون [ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) أي : أنثى الضأن، وأنثى المعز ، من غير فرق ، بين ذكر وأنثى ، فلستم تقولون أيضاً بهذا القول .

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك ، فإلى أي شيء تذهبون ؟ .

[نبئوني بعلم إن كنتم صادقين] في قولكم ودعواكم .

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولا سائغاً في العقل ، إلا واحداً من هذه الثلاثة .

قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون : إن بعض الأنعام التى يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإناث ، دون الذكور ، أو محرمة فى وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ، التى يعلم علماً لا شك فيه ، أن مصدرها ، من الجهل المركب ، والعقول المختلفة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ، ما أنزل — بما قالوه — من سلطان ، ولا لهم عليه ، حجة ، ولا برهان .

ثم ذكر فى الإبل والبقر مثل ذلك .

فلما بين بطلان قولهم ، وفساده ، قال لهم قولا ، لا حيلة لهم فى الخروج من تبعته ، إلا فى اتباع شرع الله .

[أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا] أى : لم يبق عليكم إلا دعوى ، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها .

وهى : أن تقولوا : إن الله وصانا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله .

بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكتب.

وهذا افتراء لا يجهله أحد ، ولهذا قال :

[فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم] أي : مع

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ

كذبه وافترائه على الله ، قصده بذلك ، ضلال عباد الله عن سبيل الله ، بغير بينة منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل .

[إن الله لا يهدى القوم الظالمين] الذين لا إرادة لهم ، فى غير الظلم والجور ، والافتراء على الله .

* لما ذكر تعالى ذم المشركين ، على ما حرموا من الحلال ، ونسبوه إلى الله ، وأبطل قولهم .

أمر تعالى رسوله ، أن يبين للناس ، ما حرمه الله عليهم ، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال .

من نسب تحريمه إلى الله ، فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون ، إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله :

[قل لا أجد فيما أوحى إلى محر ما على طاعم يطعمه] أى: محرما أكله ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه .

[إلا أن يكون ميتة] والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك لا يحل .

كما قال تعالى : [حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير] .

[أو دما مسفوحاً] وهو : الدم الذى لا يخرج من الذبيحة عند ذكاتها ، فإنه الدم الذى يضر احتباسه فى البدن ، فإذا خرج من البدن ، زال الضرر بأكل اللحم .

أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ

ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذى يبق فى اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر .

[أو لحم خنزير فإنه رجس] أى : فإن هذه الأشياء الثلاثة ، رجس ، أى : خبث نجس مضر ، حرمه الله ، لطفاً بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث .

[أو] إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ؛ من الأوثان ، والآلهة التى يعبدها المشركون ، فإن هذا ، من الفسق الذى هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته .

[فمن اضطر] أى : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمات ، من اضطر إليها ، أى : حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شىء منها ، بأن لم يكن عنده شىء ، وخاف على نفسه التلف .

[غير باغ] أي : مريد لأكلها ، من غير اضطرار .

[ولا عاد] أى : متجاوز للحد ، بأن يأكل زيادة عن حاجته .

[فإن ربك غفور رحيم] أى : فالله قد سامح من كان بهذه الحال .

واختلف العلماء رحمهم الله فى هذا الحصر المذكور ، فى هذه الآية ، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها ، كالسباع ، وكل ذى مخلب من الطير ونحو ذلك .

فقال بعضهم : إن هذه الآية ، نازلة قبل تحريم ما زاد،على ما ذكرفيها.

رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ

فلا ينافى هذا الحصر المذكور فيها ، التحريم المتأخر بعد ذلك ، لأنه لم يجده فيما أوحى إليه فى ذلك الوقت .

وقال بعضهم : إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة .

فإن قوله تعالى فى تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير ، أو الأخير منها فقط : [فإنه رجس] وصف شامل لكل محرم . فإن المحرمات كلها ، رجس، وخبث ، وهى من أخبث الخبائث المستقذرة ، التى حرمها الله على عباده ، صيانة لهم ، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس .

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم ، من السنة ، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه .

فإذا كان الله تعالى ، لم يحرم من المطاعم ، إلا ما ذكر ، والتحريم لا يكون مصدره ، إلا شرع الله — دل ذلك على أن المشركين ، الذين حرموا ما رزقهم الله ، مفترون على الله ، متقولون عليه ما لم يقل .

وفى الآية احتمال قوى ، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير .

وهو : أن السياق فى نقض أقوال المشركين المتقدمة ، فى تحريمهم لما أحله الله ، وخوضهم بذلك ، بحسب ما سولت لهم أنفسهم ، وذلك فى بهيمة الأنعام خاصة .

وليس منها ، محرم إلا ما ذكر فى الآية : الميتة منها ، وما أهل لغير الله به ، وما سوى ذلك ، فحلال .

أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا ، على هذا الاحتمال ، أن بعض الجهال ، قد يدخله فى بهيمة الأنعام ، وأنه نوع من أنواع الغنم ، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم ، فينمونها ، كما ينمون المواشى ، ويستحلونها ، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام .

فهذا المحرم على هذه الأمة كلها ، من باب التنزيه لهم والصيانة .

وأما ما حرم على أهل الكتاب ، فبعضه طيب ، ولكنه حرم عليهم ، عقوبة لهم ولهذا قال :

[وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر] وذلك كالإبل ، وما أشبهها .

[ومن البقر والغنم ، حرمنا عليهم] بعض أجزائها ، وهو : [شحومهما] .

وليس المحرم جميع الشحوم منها ، بل شحم الإلية والثرب ، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال :

[إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا] أى : الشحم المخالط للأمعاء [أو ما اختلط بعظم] .

(ذلك) التحريم على اليهود [جزيناهم ببغيهم] أى : ظلمهم وتعديهم فى حقوق الله وحقوق عباده فحرم الله عليهم هذه الأشياء ، عقوبة لهم ، ونكالا .

[وإنا لصادقون] فى كل ما نقول ، ونفعل ، ونحكم به .

ومن أصدق من الله حديثاً ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

* أى : فإن كذبك هؤلاء المشركون ، فاستمر على دعوتهم ، بالترغيب والترهيب ، وأخبرهم بأن الله [ذو رحمة واسعة] أى : عامة شاملة لجميع المخلوقات كلها .

فسارعوا إلى رحمته بأسبابها ، التى رأسها وأساسها ومادتها ، تصديق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاء به .

[ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين] أى : الذين كثر إجرامهم وذنوبهم .

فاحذروا الجرائم الموصلة ، لبأس الله ، التى أعظمها ورأسها ، تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

* هذا إخبار من الله ، أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ، ما أحل الله بالقضاء والقدر ، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء ، من الخير والشر ، حجة لهم فى دفع اللوم عنهم .

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه ، كما قال فى الآية الأخرى :

[وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء] الآية .

فأخبر تعالى أن هذه الحجة ، لم تزل الأمم المكذبة ، تدفع بها عنهم دعوة الرسل ، ويحتجون بها ، فلم تجد فيهم شيئاً ، ولم تنفعهم ، فلم يزل هذا دأبهم ، حتى أهلكهم الله ، وأذاقهم بأسه .

فلو كانت حجة صحيحة ، لدفعت عنهم العقاب ، ولما أحل الله بهم العذاب ، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه .

فعلم أنها حجة فاسدة ، وشبهة كاسدة ، من عدة أوجه :

منها : ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة ، لم تحل بهم العقوبة .

ومنها : أن الحجة ، لابد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان .

فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص ، الذى لا يغنى من الحق شيئاً ، فإنها باطلة ، ولهذا قال :

[قل هل عندكم عن علم فتخرجوه لنا] فلو كان لهم علم — وهم خصوم ألداء — لأخرجوه ، فلما لم يخرجوه علم أنه ، لا علم عندهم .

حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ

[إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون] ومن بنى حججه على الخرص والظن ، فهو مبطل خاسر .

فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد ؟

ومنها : أن لله الحجة البالغة ، التي لم تبق لأحد عذراً ، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون ، والكتب الإلهية ، والآثار النبوية ، والعقول الصحيحة ، والفطر المستقيمة ، والأخلاق القويمة .

فعلم بذلك ، أن كل ما خالف هذه الآية القاطعة ، باطل ، لأن نقيض الحق ، لا يكون إلا باطلا .

ومنها : أن الله تعالى ، أعطى كل مخلوق ، قدرة ، وإرادة ، يتمكن بها ، من فعل ما كلف به .

فما أوجب الله على أحد ، ما لا يقدر على فعله ، ولا حرم على أحد ، ما لا يتمكن من تركه .

فالاحتجاج ـ بعد هذا ـ بالقضاء والقدر ، ظلم محض ، وعناد صرف .

ومنها : أن الله تعالى ، لم يجبر العباد على أفعالهم ، بل جعل أفعالهم ، تبعاً لاختيارهم .

فإن شاءوا ، فعلوا ، وإن شاءوا ، كفوا .

وهذا أمر مشاهد ، لا ينكره إلا من كابر ، وأنكر المحسوسات .

فإن كل أحد ، يفرق بين الحركة الاختيارية ، والحركة القسرية ، وإن كان الجميع داخلا فى مشيئة الله ، ومندرجاً تحت إرادته .

ومنها : أن المحتجين على المعاصى بالقضاء والقدر ، يتناقضون فى ذلك .

فإنهم لا يمكنهم ، أن يطردوا ذلك ، بل لو أساء إليهم مسىء ، بضرب ، أو أخذ مال ، أو نحو ذلك ، واحتج بالقضاء والقدر ، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج ، ولغضبوا من ذلك ، أشد الغضب .

فياعباً [1] ، كيف يحتجون به على معاصى الله ومساخطه . ولا يرضون من أحد ، أن يحتج به ، فى مقابلة مساخطهم ؟ ! !

ومنها : أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ، ليس مقصوداً ، ويعلمون أنه ليس بحجة .

وإنما المقصود منه ، دفع الحق ، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل .

فهم يدفعونه ، بكل ما يخطر ببالهم ، من الكلام المصيب عندهم ، والمخطىء .

(١) هكذا في الأصل . لعل الصواب فياعجباً .

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

---

* أى: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم، الذين يشهدون أن الله حرم هذا .

فإذا قيل لهم هذا الكلام ، فهم بين أمرين :

إما : أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا ، فتكون دعواهم ، إذاً باطلة ، خلية من الشهود والبرهان .

وإما : أن يحضروا أحداً ، يشهد لهم بذلك ، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم ، غير مقبول الشهادة .

وليس هذا ، من الأمور التى يصح أن يشهد بها العدول ، ولهذا قال تعالى ـ ناهياً نبيه ، وأتباعه عن هذه الشهادة ـ :

[فإن شهدوا ، فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون] أى : يسوون به غيره من الأنداد والأوثان .

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر ، غير موحدين الله ، كانت أهواءهم ، مناسبة لعقيدتهم ، وكانت دائرة ، بين الشرك والتكذيب بالحق .

فحرى بهوى ، هذا شأنه ، أن ينهى الله خيار خلقه ، عن اتباعه ، وعن الشهادة مع أربابه .

وعلم حينئذ ، أن تحريمهم لما أحل الله ، صادر عن تلك الأهواء المضلة .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

---

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [قل] لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله .

[تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم] تحريماً عاماً ، شاملا لكل أحد ، محتوياً على سائر المحرمات ، من المآكل ، والمشارب ، والأقوال ، والأفعال .

[أن لا تشركوا بالله شيئاً] أى : لا قليلا ولا كثيراً .

وحقيقة الشرك بالله : أن يعبد المخلوق ، كما يعبد الله ، أو يعظم كما يعظم الله ، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية .

وإذا ترك العبد الشرك كله ، صار موحداً ، مخلصاً لله فى جميع أحواله .

فهذا حق الله على عباده ، أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً .

ثم بدأ بآكد الحقوق بعد حقه فقال : [وبالوالدين إحساناً] من الأقوال الكريمة الحسنة ، والأفعال الجميلة المستحسنة .

فكل قول وفعل ، يحصل به منفعة للوالدين ، أو سرور لهما ، فإن ذلك ، من الإحسان ، وإذا وجد الإحسان ، انتفى العقوق .

[ولا تقتلوا أولادكم] من ذكور وإناث [من إملاق] أى : بسبب الفقر وضيقتكم من رزقهم ، كما كان ذلك موجوداً فى الجاهلية القاسية الظالمة .

وإذا كانوا منهيين عن قتلهم فى هذه الحال ، وهم أولادهم ، فنهيهم عن قتلهم ، لغير موجب ، أو قتل أولاد غيرهم ، من باب أولى ، وأحرى .

نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

[نحن نرزقكم وإياهم] أي : قد تكفلنا برزق الجميع ، فلستم الذين ترزقون أولادكم ، بل ولا أنفسكم ، فليس عليكم منهم ضيق .

[ولا تقربوا الفواحش] وهى : الذنوب العظام المستفحشة .

[ما ظهر منها وما بطن] أى : لا تقربوا الظاهر منها ، والخفى ، أو المتعلق منها بالظاهر ، والمتعلق بالقلب والباطن .

والنهى عن قربان الفواحش ، أبلغ من النهى عن مجرد فعلها ، فإنه يتناول النهى عن مقدماتها ، ووسائلها الموصلة إليها .

[ولا تقتلوا النفس التى حرم الله] وهى : النفس المسلمة ، من ذكر ، وأنثى ، صغير ، وكبير ، بر ، وفاجر ، والكافرة التى قد عصمت ، بالعهد والميثاق .

[إلا بالحق] كالزانى المحصن ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، المفارق للجماعة .

[ذلكم] المذكور [وصاكم به لعلكم تعقلون] عن الله وصيته ، ثم تحفظونها ، ثم تراعونها ، وتقومون بها .

ودلت الآية ، على أنه بحسب عقل العبد ، يكون قيامه بما أمر الله به .

[ولا تقربوا مال اليتيم] بأكل ، أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم ، أو أخذ من غير سبب .

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ

[إلا بالتى هى أحسن] أى : إلا بالحال التي تصلح بها أموالهم ، وينتفعون بها .

فدل هذا ، على أنه لا يجوز قربانها ، والتصرف بها ، على وجه يضر اليتامى ، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة .

[حتى يبلغ] اليتيم [أشده] أى : حتى يبلغ ويرشد ، ويعرف التصرف .

فإذا بلغ أشده ، أعطى ، حينئذ ، ماله ، وتصرف فيه على نظره .

وفى هذا دلالة على أن اليتيم ـ قبل بلوغ الأشد ـ محجور عليه ، وأن وليه ، يتصرف فى ماله بالأحظ ، وأن هذا الحجر ، ينتهى ببلوغ الأشد .

[وأوفوا الكيل والميزان بالقسط] أى : بالعدل ، والوفاء التام .

فإذا اجتهدتم فى ذلك ، فإننا [لا نكلف نفساً إلا وسعها] أى : بقدر ما تسعه ، ولا تضيق عنه .

فمن حرص على الإيفاء ، فى الكيل ، والوزن ، ثم حصل منه تقصير ، لم يفرط فيه ، ولم يعلمه ، فإن الله غفور رحيم .

وبهذه الآية استدل الأصوليون ، بأن الله لا يكلف أحداً ، ما لا يطيق ، وعلى أن من اتقى الله ، فيما أمر ، وفعل ما يمكنه من ذلك ، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك .

[وإذا قلتم] قولا تحكمون به بين الناس ، وتفصلون بينهم الخطاب ، وتتكلمون به على المقالات والأحوال [فاعدلوا] فى قولكم ، بمراعاة الصدق

وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

فيمن تحبون ، ومن تكرهون والإنصاف ، وعدم كتمان ما يلزم بيانه .

فإن الميل ، على من تكره بالكلام فيه ، أو فى مقالته ، من الظلم المحرم .

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع ، فالواجب عليه ، أن يعطى كل ذى حق حقه ، وأن يبين ما فيها ، من الحق والباطل ، ويعتبر قربها من الحق ، وبعدها منه .

وذكر الفقهاء أن القاضى يجب عليه العدل بين الخصمين ، فى لحظة ، ولفظة .

[وبعهد الله أوفوا] وهذا يشمل العهد الذى عاهده عليه العباد ، من القيام بحقوقه ، والوفاء بها ، ومن العهد الذى يقع التعاهد به بين الخلق .

فالجميع ، يجب الوفاء به ، ويحرم نقضه ، والإخلال به .

[ذلكم] الأحكام المذكورة [وصاكم به لعلكم تذكرون] ما بينه لكم من الأحكام ، وتقومون بوصية الله لكم ، حق القيام ، وتعرفون ما فيها ، من الحكم والأحكام .

ولما بين كثيراً من الأوامر الكبار ، والشرائع المهمة ، أشار إليها ، وإلى ما هو أعم منها فقال :

[وأن هذا صراطى مستقيما] أى : هذه الأحكام وما أشبهها ، مما

عن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

بينه الله فى كتابه ، ووضحه لعباده ، صراط الله الموصل إليه ، وإلى دار كرامته ، المعتدل السهل المختصر .

[فاتبعوه] لتنالوا الفوز والفلاح ، وتدركوا الآمال والأفراح .

[ولا تتبعوا السبل] أى : الطرق المخالفة لهذا الطريق .

[فتفرق بكم عن سبيله] أى : تضلكم عنه وتفرقكم ، يميناً وشمالا .

فإذا ضللتم عن الصراط المستقيم ، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم.

[ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون] ، فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم، علماً وعملا ، صرتم من المتقين ، وعباد الله المفلحين .

ووحد الصراط ، وأضاف إليه ، لأنه سبيل واحد موصل إليه .

والله هو المعين للسالكين ، على سلوكه .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟

---

* [ثم] فى هذا الموضع ، ليس المراد منها الترتيب الزمانى ، فإن زمن موسى عليه السلام ، متقدم على تلاوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب ، وإنما المراد ، الترتيب الإخبارى .

فأخبر أنه آتى [موسى الكتاب] وهو : التوراة [تماماً] لنعمته ، وكمالا لإحسانه .

[على الذى أحسن] من أمة موسى ، فإن الله أنعم على المحسنين منهم ، بنعم لا تحصى .

من جملتها وتمامها ، إنزال التوراة عليهم .

فتمت عليهم نعمة الله ، ووجب عليهم القيام بشكرها .

[وتفصيلا لكل شىء] يحتاجون إلى تفصيله ، من الحلال ، والحرام ، والأمر ، والنهى ، والعقائد ونحوها .

[وهدى ورحمة] أى : يهديهم إلى الخير ، ويعرفهم بالشر ، فى الأصول ، والفروع .

[ورحمة] يحصل لهم بها ، السعادة والرحمة ، والخير الكثير .

[لعلهم] بسبب إنزالنا الكتاب والبينات عليهم .

[بلقاء ربهم يؤمنون] فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة ، على البعث ، والجزاء بالأعمال ، وما يوجب لهم الإيمان ، بلقاء ربهم ، والاستعداد له .

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

[وهذا] القرآن العظيم ، والذكر الحكيم .

[كتاب أنزلناه مبارك] أى : فيه الخير الكثير ، والعلم الغزير .

وهو الذى تستمد منه سائر العلوم ، وتستخرج منه البركات .

فما من خير ، إلا وقد دعا إليه ، ورغب فيه ، وذكر الحكم والمصالح ، التى تحث عليه .

وما من شر ، إلا وقد نهى عنه ؛ وحذر منه ، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله ، وعواقبها الوخيمة .

[فاتبعوه] فيما يأمر به ، وينهى ، وابنوا أصول دينكم ، وفروعه عليه .

[واتقوا] الله تعالى أن تخالفوا له أمراً [لعلكم] إن اتبعتموه [ترحمون] .

فأكبر سبب لنيل رحمة الله ، اتباع هذا الكتاب ، علما وعملا .

[أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين] .

أى : أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك ، قطعاً لحجتكم ، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، أى : اليهود والنصارى .

(وإن كنا عن دراستهم لغافلين) أى : تقولون لم تنزل علينا كتاباً والكتب ، التى أنزلتها على الطائفتين ، ليس لنا بها علم ولا معرفة .

أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ

فأنزلنا إليكم كتاباً ، لم ينزل من السماء كتاب ، أجمع ، ولا أوضح ، ولا أبين ، منه .

[أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم] .

أى : إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم .

وإما أن تعتذروا ، بعدم كمالها وتمامها ، فحصل لكم بكتابكم ، أصل الهداية وكمالها .

ولهذا قال : [فقد جاءكم بينة من ربكم] وهذا اسم جنس ، يدخل فيه كل ما يبين الحق .

[وهدى] من الضلالة [ورحمة] أى : سعادة لكم فى دينكم ودنياكم .

فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه ، والإيمان بأخباره ، وأن من لم يرفع به رأساً ، وكذب به ، فإنه أظلم الظالمين ، ولهذا قال :

فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها] أى : أعرض ونأى بجانبه .

[سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب] الذى يسوء صاحبه ، ويشق عليه .

ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

[بما كانوا يصدفون] لأنفسهم ولغيرهم ، جزاء لهم ، على عملهم السيء [وما ربك بظلام للعبيد] .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن علم القرآن ، أجل العلوم وأبركها ، وأوسعها ، وأنه به ، تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم ، هداية تامة ، لايحتاج معها إلى تخرص المتكلفين ، ولا إلى أفكار المتفلسفين ، ولا لغير ذلك ، من علوم الأولين والآخرين .

وأن المعروف ، أنه لم ينزل جنس الكتاب ، إلا على الطائفتين ، من اليهود والنصارى .

فهم أهل الكتاب عند الإطلاق ، لايدخل فيهم سائر الطوائف . لا المجوس ، ولاغيرهم .

وفيه : ماكان عليه الجاهلية ، قبل نزول القرآن ، من الجهل العظيم ، وعدم العلم بما عند أهل الكتاب ، الذين عندهم ، مادة العلم ، وغفلتهم عن دراسة كتبهم .

۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ

---

* يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم .

[إلا أن يأتيهم] مقدمات العذاب ، ومقدمات الآخرة ، بأن تأتيهم [الملائكة] لقبض أرواحهم .

فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال ، لم ينفعهم الإيمان ، ولا صالح الأعمال.

[أو يأتى ربك] لفصل القضاء بين العباد ، ومجازاة المحسنين والمسيئين .

[أو يأتى بعض آيات ربك] الدالة على قرب الساعة .

[يوم يأتى بعض آيات ربك] الخارقة للعادة ، التى يعلم بها أن الساعة قد دنت ، وأن القيامة قد اقتربت .

[لا ينفع نفسا إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً] .

أى : إذا وجد بعض آيات الله ، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن ، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك .

بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك . وما كان له من الخير الموجود ، قبل أن يأتى بعض الآيات .

والحكمة فى هذا ، ظاهرة ، فإنه إنما كان الإيمان ينفع ، إذا كان إيمانا بالغيب ، وكان اختيارا من العبد .

إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

فأما إذا وجدت الآيات ، صار الأمر شهادة ، ولم يبق للإيمان فائدة ، لأنه يشبه الإيمان الضرورى ، كإيمان الغريق ، والحريق ، ونحوهما ، ممن إذا رأى الموت ، أقلع عما هو فيه ، كما قال تعالى :

[فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم ، لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده].

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أن المراد ببعض آيات الله ، طلوع الشمس من مغربها ، وأن الناس إذا رأوها ، آمنوا ، فلم ينفعهم إيمانهم ، ويغلق حينئذ ، باب التوبة .

ولما كان هذا وعيدا للمكذبين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، منتظراً ، وهم ينتظرون] بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور قال [قل انتظروا إنا منتظرون] فستعلمون أينا أحق بالأمن .

وفى هذه الآية ، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة ، فى إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى ، كالاستواء ، والنزول ، والإتيان لله ، تبارك وتعالى من غير تشبيه له ، بصفات المخلوقين .

وفى الكتاب والسنة ، من هذا ، شىء كثير .

وفيه أن من جملة أشراط الساعة ، طلوع الشمس من مغربها .

وأن الله تعالى حكيم ، قد جرت عادته وسنته ، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريا لا اضطراريا ، كما تقدم .

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه .

فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو ، إذا كان مع العبد إيمان .

فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شىء من ذلك .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

---

* يتوعد تعالى ، الذين فرقوا دينهم ، أى : شتتوه وتفرقوا فيه ، وكل أخذ لنفسه نصيبا من الأسماء ، التى لا تفيد الإنسان فى دينه شيئا ، كاليهودية والنصرانية ، والمجوسية .

أو لا يكمل بها إيمانه ، بأن يأخذ من الشريعة شيئا ، ويجعله دينه ، ويدع مثله .

أو ماهو أولى منه ، كما هو حال أهل الفرقة ، من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة .

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف فى أهل الدين ، وفى سائر مسائله الأصولية والفروعية .

وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال : [لست منهم فى شىء] أى لست منهم ، وليسوا منك ، لأنهم خالفوك وعاندوك .

[إنما أمرهم إلى الله] يردون إليه ، فيجازيهم بأعمالهم [ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون] .

ثم ذكر صفة الجزاء فقال : [من جاء بالحسنة] القولية والفعلية ، الظاهرة ، والباطنة ، المتعلقة بحق الله ، أو حق خلقه .

[فله عشر أمثالها] هذا أقل ما يكون من التضعيف .

[ومن جاء بالسيئة ، فلا يجزى إلا مثلها] وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه ، وأنه لا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال : [وهم لا يظلمون] .

* قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ

---

* يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يقول ويعلن ، بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم :

الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة ، والأعمال الصالحة ، والأمر بكل حسن ، والنهى عن كل قبيح ، الذى عليه الأنبياء والمرسلون ، خصوصاً أمام الحنفاء ، ووالد من بعث من بعد موته ، من الأنبياء ، خليل الرحمن ، إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو الدين الحنيف ، المائل عن كل دين غير مستقيم ، من أديان أهل الانحراف ، كاليهود ، والنصارى ، والمشركين .

وهذا عموم ، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال :

[قل إن صلاتى ونسكى] أى : ذبحى ، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ودلالتهما على محبة الله تعالى ، وإخلاص الدين له ، والتقرب إليه بالقلب واللسان ، والجوارح ، وبالذبح الذى هو بذل ما تحبه النفس ، من المال ، لما هو أحب إليها ، وهو الله تعالى .

ومن أخلص فى صلاته ونسكه ، استلزم ذلك إخلاصه لله فى سائر أعماله وأقواله :

[ومحياي ومماتي] أى : ما آتيه فى حياتى ، وما يجريه الله على ، وما يقدر على فى مماتى .

الجميع [لله رب العالمين لاشريك له] فى العبادة ، كما أنه ليس له شريك فى الملك والتدبير .

وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا
وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

ليس هذا الإخلاص لله ، ابتداعاً منى ، وبدعاً أتيته من تلقاء نفسى .

بل [وبذلك أمرت] أمراً حتما ، لا أخرج من التبعة ، إلا بامتثاله [وأنا أول المسلمين] من هذه الأمة .

[قل أغير الله] من المخلوقين [أبغى ربا] أى : يحسن ذلك ويليق بى ، أن أتخذ غيره ، مربياً ومدبراً والله رب كل شيء،فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته ، منقادون لأمره ؟ ! ! .

فتعين على وعلى غيرى ، أن يتخذ الله ربا ، ويرضى به ، ولا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين .

ثم رغب ورهب بذلك الجزاء فقال :

[ولا تكسب كل نفس] من خير وشر [إلا عليها] كما قال تعالى : [من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها] .

[ولا تزر وازرة وزر أخرى] بل كل عليه وزر نفسه .

وإن كان أحد قد تسبب فى ضلال غيره ووزره ، فإنه عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء .

[ثم إلى ربكم مرجعكم] يوم القيامة [فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون] من خير وشر ، ويجازيكم على ذلك ، أو فى الجزاء .

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَـٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

[وهو الذى جعلكم خلائف الأرض] أى : يخلف بعضكم بعضاً ، واستخلفكم الله فى الأرض ، وسخر لكم جميع ما فيها ، وابتلاكم ، لينظر كيف تعملون .

[ورفع بعضكم فوق بعض درجات] فى القوة والعافية ، والرزق ، والخلق والخُلق .

[ليبلوكم فيما آتاكم] فتفاوتت أعمالكم .

[إن ربك سريع العقاب] لمن عصاه وكذب بآياته .

[وإنه لغفور رحيم] لمن آمن به ، وعمل صالحاً ، وتاب من الموبقات .

آخر تفسير سورة الأنعام ، وبه تم الجزء الثانى من (تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان) ، فلله الحمد والثناء .

ويليه الجزء الثالث ، وأوله تفسير سورة الأعراف .

. . . .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

وكان الفراغ من كتابته ، فى يوم الجمعة ، الموافق خمسة وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ هـ . بقلم الفقير إلى ربه المنان على الحسن العلى البريكان .

وقد نسخته من نسخة المؤلف ، غفر الله له ، وأثابه على ذلك ، الثواب الجزيل .

وجزاه الله عنا ، وعن جميع المسلمين ، أفضل الجزاء ، فى دار الجزاء .

وأدخله الله ــ برحمته ــ فسيح الجنان ، ووقانا وإياه ، عذاب النيران ، بفضله وكرمه ، إنه قريب مجيب .

وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ــ آمين ثم آمين . يارب العالمين .



صفحة